سعيد الأفغاني
أستاذ العربية في كلية الآداب
ورئيس قسم اللغة العربية وآدابها فيها

في أصول النحو

المكتب الإسلامي

طُبع بإذن من المؤلف
بيروت ١٤٠٧ هـ. — ١٩٨٧ م

المكتب الإسلامي
بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقياً: اسلاميا
دمشق: ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقياً: اسلامي



الحمد لله منزل الكتاب بلسان عربي مبين ؛ والصلاة والسلام على المبعوث حياة للعرب ورحمة للعالمين.

كانت كليات الجامعة السورية قبل العام الدراسي (١٩٤٨ ــ ١٩٤٩) تتبع في تدرّج طلابها نظام السنين المرعي في جامعات بريطانيا وأمريكا ومصر، ثم رأى الأكثرون من الأساتذة في كلية الآداب وكلية العلوم اتخاذ نظام الشهادات المرعي في جامعات فرنسا ؛ فسمّي قسم اللغة العربية في كلية الآداب لطلابه شهادات ثلاثا يؤدّونها على النسق الآتي:

١ ــ شهادة تاريخ العرب والاسلام	في السنة الثانية.
٢ ــ شهادة علوم اللغة العربية	في السنة الثالثة
٣ ــ شهادة الآداب العربية	في السنة الرابعة

أمّا السنة الأولى فسُميت شهادتها بـ (الثقافة العامة) ويتلقّى فيها الطلاب محاضرات في اللغة العربية وآدابها وفي التاريخ والجغرافية، وفي علم الأجتماع، مع دروس في اللغة الأجنبية التي يتابع الطالب دراستها طول السنين الأربع دون انقطاع.

ثم أصاب التعديل الشهادتين الأوليين فأصبحتا:

١ ــ شهادة الدراسة الاعدادية ٢ ــ شهادة الدراسات الاسلامية.

وكان علي وضع منهاج للنحو والصرف في شهادة (علوم اللغة العربية) على وجه ينسجم فيه في الجملة هو ومناهج التفسير والحديث وعلوم البلاغة وفقه اللغة في الشهادة نفسها، فآثرت أن يدرس الطلاب النحو فيها عن طريق الأدوات، وأن تكون ثقافتهم فيه ثقافة شواهد كما هي ثقافة قواعد، فاخترت لهم بحوثهم جاعلاً مرجعهم الأساسي فيها كتاب (مغني اللبيب) لابن هشام، أمّا الصرف فيدرسون بحوثاً فيه من وجهتي النظر الكوفية

والبصرية في كتاب (الانصاف في مسائل الخلاف) لابن الانباري. وقد ارتحت الى ثمرات هذا المنهج مدى سنين، وقدّمت بين يدي دراستهم تلك، محاضرات أربعاً في (الاحتجاج، والقياس، والاشتقاق، والخلاف) هي مادة هذا الكتاب.

حرصت في هذه المباحث على أن يتزوّد الطلاب بمادة صالحة فيها مع مسايرة النظرة التاريخية على قدر الامكان، وراعيت فيها مستواهم وحاجتهم، ولو ذلك لوجب طي بعض ما نُشر ونشر بعض ما طُوي، فكثير من القضايا مررت به خطفاً لأنه بُحث باسهاب في دراستهم السابقة.

وكنت أود التريّث في الطبع حتى أنهي موضوعات أخرى في (الأدوات في اللغة العربية) وأعيد النظر فيما كتبت، لكن عناء الطلاب في الاستملاء والنفقة الغالية يكلفهم اياها النسخ بالآلة الكاتبة، ثم كثرة الخطأ والتصحيف من بعد العناء والانفاق... كل ذلك حمل مجلس كلية الآداب على اقتراح الطبع في مطبعة الجامعة السورية. وأعيد الطبع الآن مع تعديل واضافات.

وأنا موقن بأن بين هذه المحاضرات والكمال الذي أتصوّره لها مراحل فساحاً، وأن عمل الانسان أبداً في حاجة الى الاصلاح، وأن الخطوات العلمية لا تسدّد إلّا بالنقد يسهم فيه كل مَن عنّ له رأي صالح، وأنه ما من أحد يصغر عن أن ينقد كما أنه ما من أحد يكبر عن أن يُنقد. ولست أضمن من عملي هذا أكثر من أني بذلت فيه جهداً باخلاص ؛ فان خرج منه قارئه المثقف ممتلئاً إيماناً بالعربية وخصائصها ومنطقيتها ثم بتقصيرنا حيالها التقصير الأكبر، رجوت أن يكون من ذلك حافز للقادرين على الاتمام، وكان ذلك حسبي من جهدي.

أسأل الله أن يجعلنا في عداد النافعين المنتفعين﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾وأن يزيدنا علماً وعملاً صالحاً، ويأخذ بأيدينا جميعاً الى ما فيه خير البلاد والعباد.

دمشق: كلية الآداب

١٣٨٣ هـ ــ ١٩٦٣ م

سعيد الأفغاني

الاحتجاج

في اللغة العربية

الاحتجاج

١ ـ مقدمة تاريخية ، ٢ ـ العلوم التي يحتج لها ٣ ـ من يحتج به ، ٤ ـ ما يحتج به ، ٥ ـ بعض قواعد في الاحتجاج ، ٦ ـ خاتمة .

(١)

مقدمة تاريخية

يراد بالاحتجاج هنا إثبات صحة قاعدة ، أو استعمال كلمة أو تركيب ، بدليل نقلي صح سنده الى عربي فصيح سليم السليقة على ما سيأتي تفصيله في موضعه .

وإنما احتاج القوم الى الاحتجاج لما خافوا على سلامة اللغةالعربية بعد أن اختلط اهلها بالاعاجم إثرالفتوح وسكنوا بلادهم وعايشوهم، نشأ عن ذلك بسنة الطبيعة أخذ وعطاء في اللغة والافكاروالاخلاق والأعراف . وتنبهأولو البصرإلى أنالامر آيل إلى إفساداللغةوضياع العصبية من جهة ، والى التفريط في صيانةالدين من جهة ثانية ، اذكانت سلامة أحكامه موقوفةعلى حسن فهم المستنبطلنصوص القرآنالكريم والحديث الشريف ، وكان في ضعف العربية تضييع لهذا الفهم .

يعتبر اللحن الباعث الاول علىتدوين اللغة وجمعها ،وعلى استنباط

قواعد النحو وتصنيفها ، فقد كانت حوادثه المتابعة نذير الخطر الذي هب على صوته أولو الغيرة على العربية والاسلام ، ولا بأس من عرض تاريخي سريع لبعض أحداثه المتتابعة :

بدأ اللحن قليلا خفيفاً منذ ايام الرسول على ما يظهر ، فقد لحن رجل بحضرته فقال : « أرشدوا أخاكم فانه قد ضل »[1] والظاهر ايضاً انه كان معروفاً بهذا الاسم نفسه « اللحن » بدليل ان السيوطي روى عن رسول الله ﷺ قوله : « أنا من قريش ونشأت في بني سعد فأنى لي اللحن »[2] وقد كان ابو بكر الصديق يقول : « لأن أقرأ فأسقط أحب إلي من أن أقرأ فألحن » .

فاذا بلغنا عهد عمر راينا المصادر تثبت عدداً من حوادث اللحن ، فتذكر أن[3] عمر مر على قوم يسيئون الرمي فقرعهم فقالوا : « إنا قوم متعلمين » فأعرض مغضباً وقال : « والله لخطؤكم في لسانكم أشد علي من خطئكم في رميكم » سمعت رسول الله ﷺ يقول : « رحم الله امرأ أصلح من لسانه » وورد الى عمر كتاب أوله : « من أبو موسى الاشعري » فكتب عمر لأبي موسى بضرب الكاتب[4] سوطاً . والأنكى من ذلك تسرب اللحن الى قراءة الناس للقرآن فقد قدم أعرابي في خلافة عمر فقال : « من يقرئني شيئاً مما أنزل على محمد ؟ » فأقرأه رجل سورة براءة بهذا اللحن :

---

(١) الخصائص لابن جنى ٢/٨ (مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٥) . وروي في ارشاد الاريب عن عبد الله بن مسعود ١/٨٢

(٢) المزهر للسيوطي ٢/٣٩٧ طبعة (دار احياء الكتب العربية – القاهرة) بعناية محمد احمد جاد المولى ورفيقيه ، ورواه السيوطي في الجامع الصغير عن الطبراني وقد ضعفه المحدثون .

(٣) ارشاد الاريب ١/٦٧ مطبوعات دار المأمون ، والأضداد لابن الأنباري ص ٢٤٤ طبع حكومة الكويت .

(٤) هو ابو الحصين بن ابي الحر العنبري كما في وفيات الاعيان (٥/٩٩) ، وكان ابو موسى قد استكتبه بعد زياد .

« وأذانٌ من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الاكبر أن الله بريء من من المشركين ورسولِه ... »[1] فقال الأعرابي : « ان يكن الله بريء من رسوله فأنا أبرأ منه » فبلغ عمر مقالةالأعرابي فدعاه فقال : « يا أمير المؤمنين ، إني قدمت المدينة ... وقص القصة فقال عمر : «ليس هكذا يا أعرابي » فقال : « كيف هي يا أمير المؤمنين ؟ » فقال : « ... أن الله بريء من المشركين ورسولُه .. » فقال الأعرابي : « وأنا أبرأ ممن بريء الله ورسولُه منهم » . فأمر عمر ألا يقرىء القرآن إلا عالم باللغة . »[2] ولعمر تنسب تلك القولة المأثورة : « تعلموا العربية فانها تثبت العقل وتزيد في المروءة »[3] .

ومر عمر برجلين يرميان فقال احدهما للآخر : « أسبت » فقال عمر : « سوء اللحن أشد من سوء الرمي »[4] فجعل إبدال الصاد سينا من اللحن .

وتكاد قصة بنت أبي الأسود تكون المعْلَم المشهور في تاريخ النحو : فقد دخل عليها أبوها في وقدة الحر بالبصرة فقالت له : « ياأبت ما أشدُ الحر ! » رفعت (أشد) فظنها تسأله وتستفهم منه : أيّ زمان الحر أشد ؟ فقال لها

---

(١) سورة التوبة ٩/٣

(٢) نزهة الالباء ص٧وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٧/١١٠ مطبعة الترقي بدمشق ١٣٥١ هـ وانظر الخصائص لابن جني ٢/٨ وعيون الاخبار.وانظر مراتب النحويين ص١٨ هذا وروايات اللحن في هذه الآية لا تتفق على وتيرة ، فمنها ما يجعل هذه القصة في زمن زياد، وأن زياداً هوالذي طلب من أبي الاسود وضع شيء يقيم عوج الالسنة اللاحنة فأبى ابوالاسود « فبعث زياد رجلا يقعد له بطريقه ، وأمره أن يقرأ شيئاً من القرآن ويتعمد اللحن ، فقرأ : « .. أن الله بريء من المشركين ورسوله . . » بالجر ، فاستعظم ذلك ابو الاسود وقال : « عز وجه الله ، إن الله لا يبرأ من رسوله » ثم رجع من فوره الى زياد فقال : « يا هذا قدأجبتك الى ما سألت»انظر كتاب (الف باء) للبلوي ١/٤٦ . ولا يبعد الجمع بين الروايات .

(٣) ارشاد الاريب ١/٧٧ وفي ص (٧٨) ان الزهري كان يقول : « ما احدث الناس مروءة احب الي من تعلم النحو » . هذا وقد زعموا ان عمر بن الخطاب كان يضرب اولاده على اللحن ولا يضربهم على الخطا (ص ٧٩) وان ابنه عبد الله كذلك (ص٨٩)

(٤) البخاري في « الأدب المفرد » ص ٢٢٧

« شهرا تاجر . » فقالت : « يا أبت إنما أخبرتك ولم أسألك . »[1]

وتتقدم خطوة في الزمن فيقص علينا ابن قتيبة أن رجلا دخل على زيادفقال له : « انابينا هلك وان اخينا غصبنا على ميراثنا من أبانا » فقال زياد : «ماضيعت من نفسك اكثر مما ضاع من مالك » ، وأن أعرابياً سمع مؤذناً يقول : « أشهد أن محمداً رسولَ الله » فقال : « ويحك » يفعل ماذا ؟ »[1].

وأن أعرابياً دخل السوق « فسمعهم يلحنون فقال : سبحان الله ! يلحنون ويربحون ونحن لا نلحن ولا نربح ! »[2]

وروى الجاحظ ان « اول لحن سمع بالبادية : هذه عصاتي (بدل عصاي) وأول لحن سمع بالعراق : حي على الفلاح (بكسر الياء بدل فتحها) »[3]

ثم شاع في العصر الاموي حتى تطرق الى البلغاء من الخلفاء والامراء كعبد الملك والحجاج . والناس يومئذ تتعاير به ، وكان مما يسقط الرجل في المجتمع ان يلحن ، حتى قال عبد الملك وقد قيل له (أسرع اليك الشيب) : « شيبني ارتقاء المنابر مخافة اللحن[4] . وكان يقول : « انَّ الرجل يسألني الحاجة فتستجيب نفسي

(١) وتتمة الخبر في الاغاني للاصفهاني (١١/١٠١) : انه دخل على امير المؤمنين علي بن ابي طالب فقال : يا أمير المؤمنين ذهبت لغة العرب لما خالطت العجم ، واوشك ان تطاول عليها زمان ان تضمحل » واخبره خبر ابنته .. فأملى عليه : أن الكلام كله لا يخرج عن اسم وفعل وحرف جاء لمعنى) وهذا القول اول كتاب سيبويه . ثم رسم اصــول النحو كلها فنقلها النحويون وفرعوها . اهـ قلت : هـذه احدى روايات مشهورة في اولية النحو ، وبعد صفحة نجد ابا الفرج يروي عن ابن ابي الاسود قوله : « أول باب وضعه ابي من النحو : التعجب » .

وفي الحادث الذي حفز أبا الاسود على وضع ما وضع روايات عـدة قـد يأتي بعضها في باب الخلاف ، وانظر واحدة يرويها الزبيدي في كتابه طبقات النحويين واللغويين ص ١٥ وفي النفس شيء من نسبة الأولية في وضع النحو وسائر العلوم لعلي بن أبي طالب .

(٢) عيون الاخبار ٢/١٠٩ . ومر أبو عمرو بن العلاء بالبصرة فاذا أعدال مطروحة مكتوب عليها : (لأبو فلان) فقال : « ياربّ يلحنون ويرزقون » إنباه الرواة ٢/٣١٩

(٣) البيان والتبين ٢/٢١٩

(٤) مخطوطة الظاهرية من تاريخ دمشق لابن عساكر رقم ٢٢ تاريخ ج٥ الورقة ١/٤٩٠

له بها فاذا لحن انصرفت نفسي عنها[1] وكان يرى اللحن في الكلام أقبح من التفتيق في الثوب النفيس[2].

والحجاج على انه من الخطباء الأبيناء البلغاء ، كان في طبعه تقزز من اللحن أن يقع منه أو من غيره ، فاذا وقع منه حرص على ستره وإبعاد من اطلع عليه منه ، ذكروا انه سأل يحيى بن يعمر الليثي : « أتسمعني ألحن على المنبر ؟ » فقال يحيى : « الامير افصح الناس الا انه لم يكن يروي الشعر » قال : « أتسمعني ألحن حرفاً ؟ » قال « نعم ، في آي القرآن » قال : « فذاك أشنع ؛ وما هو ؟ » قال تقول :

« قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها أحبُّ اليكم من الله ورسوله .. »[3] تقرؤها (أحبُّ) بالرفع فأنف الحجاج ان يطلع له رجل على لحن فبعث به الى خراسان[4]. وكان الحجاج يعجب بفصاحة يحيى هذا فسأله يوماً : أخبرني عن عنبسه بن سعيد : أيلحن ؟ » قال : كثيراً » قال : « أفأنا ألحن ؟ » قال : « لحناً خفيفاً » قال : « كيف ذلك؟ » قال تجعل (أنّ : إنّ) و (إنّ : أنّ) ونحو ذلك . قال : «لا تساكني ببلد ، اخرج »[4] وكان الرجل اذا أراد أن يفلت من عمل للحجاج

---

(١) من رسالة الجاحظ في صناعة القواد ، ص ٢٦٠ (رسائل الجاحظ) جمع السندوبي

(٢) عيون الاخبار ١٥٨/٢ ، ومن قول ابن مسلمة « اللحن في الكلام اقبح من الجدري في الوجه »

(٣) سورة التوبة ٢٤/٩ .

(٤) تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٤ / ٦٠ (روضة الشام ١٣٣٢ هـ) وطبقات النحويين واللغويين ص ٥ .

ذكر ابن قتيبة : ان الحجاج أم قوماً فقرأ « والعاديات ضبحا » وقرأ في آخرها : «ان ربهم بهم يومئذ خبير » بفتح همزة (أن) ثم تنبه على اللام في (لخبير) وان (أن) قبلها لا تكون الا مكسورة فحذف اللام من (لخبير) فقرأ : «أن ربهم بهم يومئذ خبير» . - عيون الاخبار ١٦٠/٢ . ومع هذا فقد روي عن الاصمعي قوله: «أربعة لم يلحنوا في جد ولا هزل :الشعبي وعبد الملك والحجاج بن يوسف وابن القرية . والحجاج أفضلهم - أمالي الزجاجي ص ١٠

عاذ باللحن فنجا[1] .

وهؤلاء تطرق إليهم قليل من اللحن لبعدهم عن قومهم في الجزيرة مع أنهم نشؤوا فيها وترعرعوا واكتهلوا ، فلما كان مَن بعدهم عظم فشو اللحن فيهم حتى كان من أعظم المصائب في نفس عبد الملك أن ابنه الوليد لحانة ، وأنه أخذه بتعلم العربية فلم يفلح . ونقلوا عن عبد العزيز بن مروان الامير الاموي المعروف وهو أخو عبد الملك لحناً ، على أن عبـد العزيز هذا وهو من أفصح الناس كان « يعطي على العربيـة ويحرم على اللحن ، حتى قدم عليه زوار من أهل المدينة وأهل مكة من قريش فجعل يقول للرجل منهم : « من أنت ? » فيقول : « من بني فلان . » فيقول للكاتب : « أعطه مئتي دينار » .. حتى جاءه رجل من بني عبد الدار فقال : « من أنت ? » فقال : « من بنو عبد الدار » فقال : « تجدها من جائزتك » وقال لكاتبه : أعطه مئة دينار »[2]

(١) في إرشاد الاريب(١/٨٧): بعث الحجاج الى والي البصرة: ان اختر لي عشرة ممن عندك فاختار رجالاً منهم كثير بن أبي كثير وكان رجلا عربياً ، قال كثير : فقلت في نفسي: « لا افلت من الحجاج الا باللحن . » . فلما أدخلنا عليه دعاني فقال : « ما اسمك? » قلت: « كثير » قال: « ابن من ? » فقلت .. (ابن أبا كثير) فقال: عليك لعنة الله وعلى من بعث بك، جئوا في قفاه » فأخرجت

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (مخطوطة الظاهرية رقم ٢٢ تاريخ ج ٥ الورقة ١/١٥٠).

هـذا ومن المفيد ذكر الباعث على عناية عبد العزيز بن مروان بالعربية فقد روى ابن عساكر قبل هذا الخبر أنه « دخل على عبد العزيز رجل يشكو صهراً له فقال : « ان ختني فعل بي كذا وكذا» فقال له عبد العزيز: « من خَتَنَك ? فقال له « ختنني الختان الذي يختن الناس» فقال عبد العزيز لكاتبه : « ويحك ، بم أجابني ? » فقال له : « أيها الأمير إنك لحنت وهو لا يعرف اللحن ، كان ينبغي أن تقول له : « ومن خَتَنُك ? » فقال عبد العزيز : اراني اتكلم بكلام لا يعرفه العرب ، لا شاهدت الناس حتى أعرف اللحن . » فأقام في البيت جمعة لا يظهر ومعه من يعلمه العربية، فصلى بالناس الجمعة وهو من أفصح الناس . » اهـ. قلت : تروى هذه اللحنة للوليد بن عبد الملك : انظر ص ١٤٣ من (نقد النثر) المنسوب لقدامة (مطبعة التأليف والترجمة والنشر: القاهرة ١٣٠٩ هـ) . خزانة الأدب ٣/٥٨٣ .
=

وقال عمر بن عبد العزيز : « ان الرجل ليكلمني في الحاجة يستوجبها فيلحن فأرده عنها ، وكأني أقضم حب الرمان الحامض لبغضي استماع اللحن ، ويكلمني آخر في الحاجة لا يستوجبها فيعرب فأجيبه إليها التذاذاً لما أسمع من كلامه » وكان يقول : « أكاد أضرس إذا سمعت اللحن » — [الاضداد لابن الأنباري ص٢٤٥].

وهذا معاوية بن بجير والي البصرة تشغله لحنة الناعي عن مصيبته بأبيه فيقدّم انكارها .

= وانظر في لحنه ايضاً البيان والتبيين للجاحظ(٢/٢٠٤) فما بعد(مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٣٦٨)

أما أمر الوليد الذي مر آنفاً فقد أهم عبد الملك حتى أفضى بذات نفسه يوماً الى روح ابن زنباع قائلا :

« يا أبا زرعة ، قد غلبني الوليد باللحن ، وساظهر المشية كآبة فسلني عنها ودعني والوليد» فلما أذن العشاء أظهر كآبة وعنده الوليد وسليمان وروح فقال له روح : « ماهذه الكآبة ياأمير المؤمنين ؟ لا يسوؤك (الله) ولا يريك مكروهاً ! » قال : ذكرت مافي عنقي من هذه الأمة وإلى من أصير أمرها بعدي ؟ » قال له روح : يغفر الله لك يا أمير المؤمنين . فاين أنت عن الوليد سيد شباب العرب ؟» قال « ياأبازرعة ! لاينبغي ان يلي أمر العرب إلا من يتكلم بكلامها» فقام الوليد فدخل منزله فجمع اليه اصحاب النحو ، فاقام ستة أشهر معهم ، وخرج يوم خرج وهو أجهل بالنحو منه يوم دخل ، فقال عبد الملك : «قد أجهد وأعذر» المصدر السابق الورقة ١/٤٢١

واحتج على عبد الملك بلحن الوليد هذا ، فقد ذكر ابن عساكر ان عبد الملك قال لرجل من قريش : « انك لرجل لولا انك تلحن » فقال : « وهذا ابنك الوليد يلحن » قال عبد الملك : « لكن ابني سليمان لا يلحن » قال الرجل : « واخي فلان لا يلحن ! » الورقة ١/٤٢٤ .

بل كان لا يستطيع تجنب اللحن حتى على المنبر ، ذكره ابو الزناد يوماً فقال : « كان لحاناً كأني اسمعه على منبر النبي صلى الله عليه وسلم يقول : يا أهلُ المدينة ! »

بل كان لا يستطيع تجنبه حتى في آيات القرآن : قرأ يوماً على المنبر « يا ليتها كانت القاضيةُ » وضم التاء ، فقال عمر بن عبد العزيز (وكان تحت المنبر) : يا ليتها كانت [القاضية] عليك وأراحتنا منك ! » الورقة ١/٤٢٤ .

وكان عمر بن عبد العزيز هذا أشد الناس في اللحن على ولده وخاصته ورعيته وربما أدّب عليه . — ارشاد الاريب ١/٨٩

فأنت تجد مما تقدم أن الخوف على العربيـة له ما يفرضه من النذر ، وأنه تمكن في النفوس حتى تضافرت جهود العلماء وذوي السلطان على صيانة العربية ، وأن الحرمان من المال او العمل مما كان يصيب اللحانة ، وأن فصاحة المرء قد ترفعه الى الولايات والغنى وتزيد شأنه عند أولي الامر ؛ وهذا من طرف السلطان كاف في الترغيب والترهيب . وسؤال الحجاج عن لحن بعض الناس ذوي الشأن مشعر باهتمام الحكومة والمجتمع بأمر اللحن . وذلك طبيعي من دولة قامت على العصبية العربية بعد أن رأت اللحن يفشو في الطبقات الرفيعة من الامراء والحكام وأشراف الناس ، وفي قصة بشكست النحوي تعبير واضح عن أمرين : فشو اللحن ونظرة المثقفين اليه ، ولا بأس في ايرادها ففيها طرافة وفيها ظرف :

« وفد بشكست النحوي على هشام بن عبد الملك ، فلما حضر الغداء دعاه هشام ، وقال لفتيان بني أمية : « تلاحنوا عليه » فجعل بعضهم يقول : « يا أمير المؤمنين رأيت أبي فلان .. » ويقول آخر : « مر بي أبي فلان .. » ونحو هذا ؛ فلما ضجوا أدخل يده في صحفة فغمسها ثم طلى لحيته وقال لنفسه : « ذوقي ، هذا جزاؤك في مجالسة الأنذال ! »[1]

الى هذا المدى بلغ أمر اللحن في المئة الأولى للهجرة والدولة عربية محضة ، والعصبية ذات سلطان ، والقوم حديثو عهد بجزيرتهم ولا تزال

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (مخطوطة الظاهرية) الجزء السابق الورقة ٤٠٤/١ ثم قال ابن عساكر فيه : « وكان نحوياً أخذ عنه أهل المدينة ، وكان يذهب مذهب الشراة ويكتم ذلك . فلما ظهر ابو حمزة الشاري بالمدينة (سنة ١٣٠ هـ) خرج معه فقتل فيمن قتل بخلافة مروان بن محمد . » واسمه عبد العزيز القاري وقيل في مقتله :

لقد كان بشكست عبد العزيز — من اهل القراءة والمسجد
فبعداً لبشكست عبد العزيز — وأما القران فلا يبعـد

انظر النسخة الثانية من تاريخ دمشق لابن عساكر (رقم ٩/٣٣٧٤ تاريخ) ١٠ الورقة ٢٠٢ ، والاغاني ١١١/١ و ١٠٨/٢٠ و ١١٠ وإنباه الرواة ١٨٣/٢

مجتمعاتهم تتناقل القول المشهور « ليس للاحنِ حرمة » وتتعامل به ، هذا عبد الملك بن مروان استأذن عليه رجل من علية أهل الشام وبين يديه قوم يلعبون بالشطرنج فقال : « ياغلام ، غطّها » فلما دخل الرجل فتكلم، لحن ، فقال عبد الملك : « ياغلام ، اكشف عنها ، ليس للاحنِ حرمة » ـ [الاضـداد لابن الانباري ص ٢٤٥] وبيت الخلافة أعرق بيوت قريش شرفاً ومجداً وبلاغة وأقواها عصبية وعروبة . (١) والعرب

---

(١) هذا ومع ضعف السليقة العربية على الزمن لم يضعف استهجان الخاصة للحن، وحسبك هذه الحوادث الاربع رمزاً الى ذلك وكلها في صدر الدولة العباسية :

تكلم ابو جعفر المنصور في مجلس فيه اعرابي فلحن ، فصرّ الاعرابي أذنيه [حددهمـــا مصغياً باهتمام] فلحن مرة أخرى أعظم من الاولى ، فقال الاعرابي : « أف لهذا : ماهذا ؟ » ثم تكلم فلحن الثالثة فقال الاعرابي : « أشهد لقد وليت هذا الامر بقضاء وقدر ! ».

وقال سعيد بن مسلم: «دخلت على الرشيد فبهرني هيبة وجمالا، فلما لحن خفّ في عيني». ودخل رسول والي الكوفة العباس بن محمد بن موسى على طاهر بن الحسين فقال له : « أخيك أبي موسى يقرأ عليك السلام » قال : « وما أنت منه ؟ » قال : « كاتبه الذي يطعمه الخبز» فأمر ثواً بصرف العباس عن الكوفة إذ لم يتخذ كاتباً يحسن الأداء عنه.
إرشاد الاريب ١/ ٨٤ ، ٨٣ ، ٨٦ بتصرف يسير ،

بل إن المأمون كان يأخذ عماله بالقوم إذا كان في كتبهم إليه لحن ويعد ذلك تفريطاً في جانب مقام الخلافة وإليك حديث ابن قادم النحوي الكوفي :

« وجه إلي إسحاق بن إبراهيم المصعبي يوماً فأحضرني فلم أدر ما السبب ، فلما قربت من مجلسه تلقاني ميمون بن إبراهيم كاتبه على الرسائل وهو على غاية من الهلع والجزع ، فقال لي بصوت خفي : « إنه إسحاق » ومر غير متلبث ولا متوقف حتى رجع إلى مجلس إسحاق ، فراعني ذلك . فلما مثلت بين يديه قال لي : كيف يقال : « وهذا المال مالاً » أو « وهذا المال مال » ؟ فعلمت ما أراد ميمون ، فقلت له : « الوجه (وهذا المال مال) ويجوز (وهذا المال—

ـ كما قرر ابن جني ـ أشد استنكاراً لزيغ الإعراب منهم لخلاف اللغة ، فقد ينطق بعضهم بالدخيل والمولّد ولكنه لا ينطق باللحن .

ولذلك اشتد بلال بن أبي بردة على خالد بن صفوان لما رآه يلحن في حديثه العفوي معه فقال له : « أتحدثني أحاديث الخلفاء وتلحن لحن السقاءات ؟». فلنحاول تبيان ما اختط أهل العربية من خطط يعالجون بها استفحال الداء ، وهل كانوا الى الشدة حين شرطوا للاحتجاج تلك الشروط التي أسقطت الاحتجاج بكلام كثير من العرب حتى في زمن الجاهلية ؟

– مالاً)» . فأقبل إسحاق على ميمون بغلظة وفظاظة ثم قال : «الزم الوجه في كتبك . ودعنا من يجوز ويجوز » ورمى بكتاب في يده ، فسألت عن الخبر فاذا ميمون قد كتب إلى المأمون وهو ببلاد الروم عن إسحاق وذكر مالاً حمله ، فكتب : « وهذا المال مالاً » فخط المأمون على الموضع من الكتاب ووقع بخطه في حاشيته : « تخاطبني بلحن ؟! » فقامت القيامة على إسحاق!.

فكان ميمون بعد ذلك يقول : « ما أدري كيف أشكر ابن قادم ، أبقى عليّ روحي ونعمتي !! » قال ثعلب راوي الحديث : « فكان هذا مقدار العلم وعلى حسب ذلك كانت الرغبة في طلبه والحذر من الزلل . قال « وهذا المال مالا » ليس بشيء ، ولكن احسن ابن قادم في التأتي لخلاص ميمون . » – إنباه الرواة ٣ / ١٥٧ وطبقـــات النحويين واللغويين للزبيدي ص ١٠٣ .

حتى إذا امتد الزمن خف الاستنكار شيئاً ما فصرنا نرى ثعلباً النحوي « لا يتكلف إقامة الاعراب في كلامه إذا لم يخش لبساً في العبارة » ونرى إبراهيم الحربي وقد ذكر له ذلك يقول : « أيش يكون إذا لحن في كلامه ؟ كان هشام النحوي يلحن في كلامه . وكان ابو هريرة يكلم صبيانه بالنبطية . » – إنباه الرواة ١/ ١٤٠

بل كان بعض الأمراء بالبصرة يقرأ (إن الله وملائكته) بالرفع فمضى إليه الأخفش ناصحاً له فانتهره وتوعده وقال « تلحّنون امراءكم ؟! » – إنباه الرواة ٢/ ٤٣

على أن من يعتد بهم في المجتمع مضوا على استهجان اللحن زمناً طويلا فقد حدث حفص بن غياث قال :

« وجه إلينا عيسى بن موسى ليلا فصرنا إليه والجند سماطان وقد امتلانا رعبا منه فقال : « مادعوتكم إلا لخيراً » فزالت هيبته من قلوبنا لقبح لحنه » – المصون للعسكري ص ١٤٦ طبعة حكومة الكويت سنة ١٩٦٠ م

(٢)

العلوم التي يحتج لها

يحتج بالكلام العربي لغرضين : غرض لفظي يدور حول صحة الاستعمال من حيث اللغة والنحو والصرف ، وغرض معنوي لا علاقة له باللفظ . والظاهر أن فريقاً من العلماء حجَّر واسعاً فأسقط الاحتجاج بكلام الاسلاميين والمولدّين في اللفظ والمعنى جميعاً ، ولم يلتفت الجمهور الى هذا التحجير لعقمه وبعده عن طبيعة الحياة ، بل قصروا الاحتجاج بكلام المولدّين على المعاني فقط ، واحتجوا بكلام القدماء في اللفظ والمعنى . وخير من يمثل هؤلاء ابن جني ، فقد احتج في باب المعاني بشعر المتنبي وهو مولّد، ولعله توقع إنكاراً من المتزمتين فأتبع احتجاجه بعلة مقبولة معرّضاً بمذهب التزمت هذا ، قال في صدد كلامه على مجيء القول والكلام مما لا يعقل :

« قال عنترة :

لو كان يدري : ما المحاورة ؟ اشتكى ولكان - لو علم الكلام - مكلمي

وامتثله شاعرنا « يعني المتنبي » آخراً فقال :

فلو قدر السنان على لسانٍ لقال لك السنان كما أقول

وقال :

لو تعقل الشجر التي قابلتها مدت محييةً إليك الأغصنا

[illegible] ٤٨/١ [illegible] ٣٨/١ [illegible] (١)

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

(١) [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

القدماء) دون الثلاثة الاخيرة فإنه يستشهد عليها بكلام المولدين لأنها راجعة الى المعاني ، ولا فرق في ذلك بين العرب وغيرهم إذ هو أمر راجع الى العقل ، ولذلك قبل من أهل هذا الفن الاستشهاد بكلام البحتري وأبي تمام وأبي الطيب وهلم جرا. »[1]

(١) خزانة الادب للبغدادي ١/٣٠ (المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٨ هـ).

(٣)

من يحتج به

بحث علماء العربية فيمن نقل الرواة عنهم من أهل المدر والوبر قدماء ومحدثين. وتقصوا أحوالهم ونقدوها، فاجتمعوا على الاحتجاج بقول من يوثق بفصاحته وسلامة عربيته، ونحن عارضون لأصناف هؤلاء زماناً ومكاناً وأحوالاً .

فأما الزمان فقد قبلوا الاحتجاج بأقوال عرب الجاهلية وفصحاء الاسلام حتى منتصف القرن الثاني سواء أسكنوا الحضر أم البادية . أما الشعراء فقد صنفوا أصنافاً أربعة : جاهليين لم يدركوا الاسلام، ومخضرمين أدركوا الجاهلية والاسلام، وإسلاميين لم يدركوا من الجاهلية شيئاً ، ومحدثين أولهم بشار بن برد[1] . وشبه الاجماع انعقد على صحة الاستشهاد بالطبقتين الاوليين واختلفوا في الطبقة الثالثة ، وذهب عبد القادر البغدادي صاحب خزانة الادب الى جواز الاستشهاد بها[2] اما الطبقة الرابعة فلا يستشهد بكلامها في علوم اللغة والنحو والصرف خاصة، وكان آخر من يحتج بشعره على هذا الاساس بالاجماع ابراهيم بن هرمة

---

(١) الاقتراح ص ٣٢ .
(٢) خزانة الادب ٢٠/١

(٧٠ ـ ١٥٠ هـ) الذي ختم الاصمعي به الشعر[1]. أما أهل البادية فقد استمر العلماء يدونون لغاتهم حتى فسدت سلائقهم في القرن الرابع الهجري[2].

وعلى هذا « أجمعوا على انه لا يحتج بكلام المولدين والمحدثين في اللغة والعربية »[3].

وأما المكان او بعبارة أخرى القبائل، فقد اختلفت درجاتها في الاحتجاج

---

(١) الاقتراح للسيوطي ص ٢٢ (مطبعة المعارف بحيدر آباد ١٣١٠هـ). هذا وبعضهم يرى الاحتجاج بالطبقة الرابعة مستدلاً باستشهاد سيبويه بشعر بشار بن برد في (الكتاب)، ويرد المعترضون بأنه إنما فعل ذلك خوفاً من لسانه.

(٢) قرر ياقوت في معجم البلدان مادة (عكد) أن جبلي « عُكاد » فوق مدينة الزرائب « وأهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية الى اليوم لم تتغير لغتهم بحكم أنهم لم يختلطوا بغيرهم من الحاضرة في مناكحة وهم أهل قرار لا يظعنون عنه ولا يخرجون منه ». [توفي ياقوت سنة ٦٢٦هـ] ثم جاء صاحب القاموس المحيط المتوفى سنة (٨١٧) فقرر أن « عكاد » جبل باليمن قرب مدينة زبيد وأهله باقية على اللغة الفصيحة ».

ثم زاد المرتضى الزبيدي المتوفى سنة (١٢٠٥) في شرحه للقاموس عند هذه المادة كلمة « إلى الآن » وقال : « ولا يقيم الغريب عندهم أكثر من ثلاث ليال خوفاً على لسانهم !! » ـ ارجع الى هذه المادة (عكد) في المراجع الثلاثة المذكورة . والزبيدي أقام في (زبيد) زمناً طويلاً فهو بها عارف.

(٣) الاقتراح ص ٣١ وقد مال الزمخشري الى استثناء أئمة العربية من ذلك داعياً الى « جعل الوثوق بكلامهم كالوثوق برواياتهم » وليس بشيء .

على اختلاف قربها او بعدها من الاختلاط بالأمم المجاورة، فاعتمدوا كلام القبائل في قلب جزيرة العرب ، وردوا كلام القبائل التي على السواحل او في جوار الأعاجم ، واليك تصنيف أبي نصر الفارابي لهم في الاحتجاج :

أ ـ «كانت قريش أجود العرب انتقاء[1] للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً وأبينها عما في النفس.

والذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدي وعنهم أُخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم :

قيس وتميم وأسد فإن هؤلاء هم الذين أُخذ عنهم أكثر ما أُخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الاعراب والتصريف .

ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم[2] .

ب ـ وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضري ولا عن سكان البراري ممن

---

(١) قال ابن فارس : (وكانت قريش مع فصاحتها . . اذا اتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات الى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب .) ـ الصاحبي ص ٢٣ (المطبعة السلفية بالقاهرة) .

(٢) ومع هذا فلم تكن لغات هؤلاء بالمرضية دائماً : قال الحسن البصري يوماً (توضيت) فقيل له :(أتلحن يا أبا سعيد ؟!) فقال (إنها لغة هذيل وفيها فساد) . انظر كتاب (الف باء) للبلوي ١/٤٦ .

كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الأمم الذين حولهم :

لم يؤخذ من لخم ولا من جذام فإنهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقبط .

ولا من قضاعة ولا من غسان ولا من إياد فإنهم كانوا مجاورين لأهل الشام وأكثرهم نصارى يقرؤون بصلاتهم بغير العربية .

ولا من تغلب ولا النمر فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية .

ولا من بكر لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس .

ولا من عبد القيس لأنهم كانوا من سكان البحرين مخالطين للهند والفرس .

ولا من أزد عُمان لمخالطتهم للهند والفرس .

ولا من أهل اليمن أصلاً لمخالطتهم للهند والحبشة ولولادة الحبشة فيهم .

ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وسكان الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم .

ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدؤوا ينقلون لغة العرب، قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم».[1]

---

(١) الاقتراح للسيوطي ص ٢٢ نقلا عن كتاب الفارابي (الالفاظ والحروف).
هذا وقد أورد الجاحظ في كتابه البيان والتبيين مقابلة طريفة بين لغات أهل مكة والبصرة والكوفة، يفيد إيرادها في شرح الظاهرة المذكورة أعلاه، قال الجاحظ : (اهل الامصار انما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب، ولذلك نجد الاختلاف في الفاظ اهل الكوفة والبصرة والشام ومصر . . وقال أهل مكة لمحمد بن =

= مناذر الشاعر (ليست لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة ، إنما الفصاحة لنا أهل مكة .) فقال محمد بن مناذر : (أما ألفاظنا فأحكى الالفاظ للقرآن واكثرها موافقة له ، فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم : أنتم تسمون القدر برمة وتجمعون البرمة على برام ، ونحن نقول (قدر) ونجمعها على قدور ، وقال الله عز وجل (وجفان كالجواب وقدور راسيات) وأنتم تسمون البيت (علية) وتجمعون هذا الاسم على علالي ونحن نسميه (غرفة) ونجمعه على غرف وغرفات ، وقال الله « غرف من فوقها غرف مبنية » وقال : « هم في الغرفات آمنون » ، وأنتم تسمون الطلع (الكافور والاغريض) ونحن نسميه الطلع وقال الله « ونخل طلعها هضيم » .. فعد عشر كلمات لم أحفظ أنا منها غير هذا .

ألا ترى أن أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفرس في قديم الدهر علقوا بألفاظ من ألفاظهم ، ولذلك يسمون البطيخ (الخربز) ويسمون .. الخ .

وكذا أهل الكوفة يسمون المسحاة : (بال) وبال بالفارسية : ولو علق ذلك لغة أهل البصرة إذ نزلوا بأدنى بلاد فارس وأقصى بلاد العرب كان ذلك أشبه اذ كان أهل الكوفة نزلوا بأدنى بلاد النبط وأقصى بلاد العرب . ويسمي أهل الكوفة الحوك (البقلة الحمقاء) بازروج والبازروج بالفارسية والحوك كلمة عربية . وأهل البصرة إذا التقت أربع طرق يسمونها (مرْبُعة) وتسميها أهل الكوفة (جهارسو) والجهار بالفارسية . ويسمون السوق أو السويقة وازار والوازار بالفارسية . ويسمون القثاء خياراً والخيار فارسية . ويسمون المجذوم ويذي بالفارسية . ـ اهـ ١/١٨ .

وبهذه الامثلة التي طغى فيها الاثر الاجتماعي على الاثر الجغرافي تدرك الحافز لعلماء العربية على اسقاط من أسقطوا في الاحتجاج من العرب في الجاهلية والاسلام .»

عليه مدعاة الى النقد ، ولما اعتمد ابن مالك على لغات لخم وجذام وغسان ، تعقبه باللوم ابو حيان فقال في شرح التسهيل : « ليس ذلك من عادة أئمة هذا الشأن[١] .

وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : « لا أقول : (قالت العرب . .) إلا ما سمعت من عالية السافلة وسافلة العالية » يريد ما بين نجد وجبال الحجاز حيث قبائل أسد وتميم و بعض قبائل قيس[٢] بل كان عثمان يقول : « لا يملين في مصاحفنا إلا غلمان قريش وثقيف »[٢] .

وأما أحوال هؤلاء العرب المحتج بهم فخيرها ماكان أعمق في التبدي وألصق بعيشة البادية ، ولذا كان مما يفخر به البصريون على الكوفيين أخذهم عن الاعراب أهل الشيح والقيصوم وحرشة الضباب وأكلة اليرابيع ويقولون للكوفيين « أخذتم عن أكلة الشواريز وباعة الكواميخ[٣] » . وقد نص الفارابي بعد قوله المتقدم آنفاً على صناعة هؤلاء الاعراب وصفاتهم فقال : « كانت صنائع هؤلاء التي بها يعيشون الرعاية والصيد واللصوصية ، وكانوا أقواهم نفوساً وأقساهم قلوباً وأشدهم توحشاً وأمنعهم جانباً وأشدهم حمية وأحبهم لأن يغلبوا ولا يُغلبوا ، وأعسرهم انقياداً للملوك . وأجفاهم أخلاقاً وأقلهم احتمالاً

(١) الاقتراح ص ٢٤

(٢) انظر مجلة مجمع اللغة العربية (بالقاهرة) ٨/١٤١ .

(٣) الشيراز اللبن المصفى ، والكامخ : ادام ـ انظر القاموس المحيط .

للضيم والذلة .»[1]

وتستطيع ان تجعل مرد الامر كله ـــ بعدما تقدم لك ـــ الى الوثوق من سلامة لغة المحتج به وعدم تطرق الفساد اليها ، وهذا هو الضابط في التصنيف الزماني والمكاني اللذين مرا بك ، فأنت تعلم إسقاط العلماء الاحتجاج بشعر أمية بن أبي الصلت وعدي بن زيد العبادي[2] وحتى الاعشى عند بعضهم ، لمخالطتهم الاجانب وتأثر لغتهم بهذه المخالطة ، حتى حمل شعرهم عدداً غير قليل من ألفاظ ومصطلحات لاتعرفها العرب ، وكل هؤلاء شعراء جاهليون[1] ؛ بينما يذهب فريق

---

(١) الاقتراح ص ٢٤ .

(٢) اسقاط الاحتجاج في اللغة لا يؤثر في الشاعرية ؛ وعلى هذا ينبغي أن يفهم انكار القاضي الجرجاني زعم الاصمعي :

« زعم الاصمعي ان العرب لا تروي شعر أبي دؤاد وعدي بن زيد ، لان الفاظهما ليست بنجدية)، وكيف يكون ذلك وهذا معاوية يفضل عدياً على جماعة الشعراء ، وهذا الحطيئة يسأل : من أشعر الناس ؟ فيقول : الذي يقول وأنشد لأبي دؤاد :

لا أعد الإقتار عدماً ولكن   فقد من قد رزئته الاقتار .. الخ الابيات »

الوساطة ص ٤٩ .

هذا ومن العلماء من لا يحتج بغير الجاهليين وقد قال الأصمعي : « جلست إلى أبي عمرو بن العلاء عشر حجج ما سمعته يحتج ببيت إسلامي » .

(١) مع هذا لا بد من بعض التسامح فان التدقيق والتقصي لا يسلم عليهما كثير من كلام المحتج بهم : هذا الكميت والطرماح روي أنهما كانا « يسألان العجاج عن الغريب ثم يراه في شعرهما موضوعاً في غير مواضعه ، فقيل له : « ولم=

الى الاحتجاج بكلام الشافعي المتوفى في القرن الثالث للهجرة، حتى نص الامام أحمد بن حنبل على أن (كلام الشافعي في اللغة حجة)[1] لسلامة نشأته وتقلبه في البيئات العربية السليمة . قيل لبشار : « ليس لأحد من شعراء العرب شعر الا وقد قال فيه شيئاً استنكرته العرب من ألفاظهم وشُك فيه ، وإنه ليس في شعرك مايشك فيه . » قال : « ومن أين يأتيني الخطأ ؟ ولدت هاهنا ونشأت في حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بني عقيل مافيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ، وإن دخلت إلى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم ، وأيفعت فأبديت الى أن ادركت، فمن أين يأتيني الخطأ »[2].

وكلمة بشار هذه دليل قاطع على وجود بيئات في المدن سليمة من اللحن لزمنه في المئة الثانية للهجرة .

ويعجبني كثيراً قول ابن جني في هذا الموضوع في باب (ترك

=ذاك ؟ » قال : « لأنهما قرويان يصفان مالم يريا فيضعانه في غير موضعه وأنا بدوي أصف ما رأيت فأضعه في مواضعه . » — الاغاني ١٧/٢ بل ان الاصمعي كان يقول في الكميت : « جرمقاني من جراميق (عجم) الشام لا يحتج بشعره » وينكر مواضع من شعر الطرماح ويلحن ذا الرمة . — انظر الوساطة للقاضي الجرجاني ص ٩ . بل ذهب الجرجاني في باب (اغاليط الشعراء ص ٤ من الوساطة) إلى أنه لا توجد قصيدة واحدة من كل تلك الدواوين الجاهلية والاسلامية « تسلم من بيت أو أكثر لايمكن لعائب القدح فيه » اهـ . وما أشبه هذا بالحق .

(١) الاقتراح ص ٢٤ .
(٢) الاغاني ٢٦/٣ طبعة الساسي .

الأخذ عن أهل المدر كما أخذ عن أهل الوبر) :

«علة امتناع ذلك ماعرض للغات الحاضرة وأهل المدر من الاختلال والفساد والخطل ، ولو علم أن أهل مدينة باقون على فصاحتهم ولم يعترض شيء من الفساد للغتهم لوجب الاخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر . وكذلك ايضاً لو فشا في أهل الوبر ماشاع في لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة وخبالها وانتقاض عادة الفصاحة وانتشارهـا ، لوجب رفض لغتها وترك تلقي مايرد عنها ، وعلى ذلك العمل في وقتنا هذا لأنا لانكاد نرى بدوياً فصيحاً ، وإن نحن آنسنا منه فصاحة في كلامه لم نكد نعدم مايفسد ذلك ويقدح فيه ..»[1].

(١) الخصائص ٢/٥ ثم ذكر ابن جني أدلة على فساد سليقة الأعراب في زمنه فقال : « وقد كان طرأ علينا أحد من يدعي الفصاحة البدوية ويتباعد عن الضعفة الحضرية ، فتلقينا أكثر كلامه بالقبول له ، وميزناه تمييزاً حسّن في النفوس موقعه الى أن أنشدني يوماً شعراً لنفسه يقول في بعض قوافيه (أشاؤها . وأداؤها) [بوزن أشععها وأدععها] فجمع بين الهمزتين كما ترى . واستأنف من ذلك مالا أصل له ، ولا قياس يسوّغه ، نعم وأبدل إلى الهمز حرفاً لاحظ له في الهمز ، بضد ما يجب ، لانه لو التقت همزتان عن وجوب صنعة للزم تغيير احداهما . فكيف أن يقلبَ الى الهمز قلباً ساذجاً عن غير صنعة ما لاحظ له في الهمز ، ثم يحقق الهمزتين جميعاً ؟ هذا ما لا يبيحه قياس ولا ورد بمثله سماع ... الخ .

٤

مايحتج به

نقسم الكلام المحتج به إلى أقسام ثلاثة نتكلم على كل منها بالترتيب تيسيراً للبحث :

١ ـ القرآن الكريم ؛ ٢ ـ الحديث الشريف ؛ ٣ ـ كلام العرب

١ ـ لم يتوفر لنص ماتوفر للقرآن الكريم من تواتر رواياته ، وعناية العلماء بضبطها وتحريرها متناًوسنداً ، وتدوينهاوضبطهابالمشافهة عن أفواه العلماء الأثبات الفصحاء الأبيناء من التابعين ، عن الصحابة ، عن الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فهو النص العربي الصحيح المتواتر المجمع على تلاوته بالطرق التي وصل الينا بها في الأداء والحركات والسكنات ، ولم تعتن أمة بنص ما اعتنى المسلمون بنص قرآنهم.

وعلى هذا يكون هو النص الصحيح المجمع على الاحتجاج به في اللغة والنحو والصرف وعلوم البلاغة ، وقراءاته جميعاً الواصلة الينا بالسند الصحيح حجة لاتضاهيها حجة . أما طرقه المختلفة في الأداءفهي كذلك ، إذ أنها مروية عن الصحابة وقراء التابعين ، وهم جميعاً ممن يحتج بكلامهم العادي بله قراءاتهم التي تحروا ضبطها جهد طاقتهم كما سمعوها من رسول الله ، ولا ننسى بعد ذلك : أن أئمة القراء كأبي عمرو بن العلاء والكسائي ويعقوب الحضرمي هم أئمة في اللغة والنحو

أيضاً . وقد جرى عرف العلماء على الاحتجاج برواياته سواء أكانت متواترة أم روايات آحاد أم شاذة . والقراءة الشاذة التي منع القراء قراءتها في التلاوة يحتج بها في اللغة والنحو[1]. إذ هي — على كل حال — أقوى سنداً وأصح نقلاً من كل ما احتج به العلماء من الكلام العربي غير القرآن . ولئن كان القراء أسقطوا القراءة بها لعدم وثوقهم أنها قراءة النبي نفسه ، إن على علماء اللغة والنحو أن يعضوا عليها بالنواجذ إذ كان رواتها الأعلون عرباً فصحاء سليمة سلائقهم ، تبنى على اقوالهم قواعد العربية . وانت تعرف أن النحاة يحتجون بكلام من لم تفسد سلائقهم من تابعي التابعين فلأن يحتجوا بقراءة أعيان التابعين والصحابة أولى ، ورجحان قراءات القرآن في حجيتها اللغوية والنحوية على شواهد النحاة عرف قديم تعاوره العلماء .

وهنا أمر ينبغي التنبيه اليه بشيء من التفصيل ، فالحق أن موقف النحاة من النصوص العربية حين وضعهم القواعد ، فيه خلل واضطراب من الناحية المنهجية ، وأن موقف القراء علمياً ومنطقياً ومنهجياً سديد متسق واليك البيان :

أقل مايشترط القراء لصحة القراءة شروط ثلاثة :

١ — صحة السند بها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم[2].

---

(١) انظر الاقتراح للسيوطي ص ١٧ .

(٢) مذهب الاصوليين وفقهاء المذاهب الاربعة والمحدثين والقراء أن التواتر شرط في صحة القراءة ولا تثبت بالسند الصحيح غير المتواتر ولو وافقت=

٢ -- موافقتها رسم المصحف المجمع عليه .

٣ – موافقتها وجهاً من الوجوه العربية .

وكثيراً ما صرحوا في مناسبات عدة أن القراءة سنة متبعة وأنها لا تخضع لغير السماع الصحيح . أما القراءة الشاذة عندهم فما توفر فيها صحة السند وموافقة العربية وتخالف الشرط الثاني ، أو التواتر من من الشرط الاول ، وهذه هي التي منعوا القراءة بها في الصلاة ، وقد ظهر لك إذاً أن القراءة الشاذة لا يقدح في الاحتجاج بها عربيةً قادح، فمخالفة الرسم بزيادة كلمة أو نقص حرف لا تؤثر في صحة بناء القواعد عليها.

هذا وخير تعبير عن منهج القراء قول أحد أئمتهم أبي عمرو الداني :

« وأئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة ، والأقيس في العربية ، بل على الأثبت في الأثر والاصح في النقل،والرواية اذا ثبتت عندهم لم يردها قياس عربية ولا فشوّ لغة،لان القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير اليها »[1].

= رسم المصاحف العثمانية ووافقت العربية . – ص ٦ من غيث النفع للصفاقسي (بذيل شرح الشاطبية لابن القاصح المسمى سراج القارىء المبتدى وتذكار المقرىء المنتهى – مطبعة مصطفى محمد – الطبعة الاولى (١٣٥٢ ﻫ) قلت : ومع شبه الاجماع هذا نقل السيوطي في (الاتقان) ما يفيد أن كثيرين لم يشترطوا التواتر مكتفين بالمشهور من الطرق (انظر ص ٧٥ المطبعة الازهرية سنة ١٣٤٣ ﻫ) .

(١) النشر في القراءات العشر ١٠/١ .

هذا دستور القراء أثبتوه في كتبهم وكانوا في تطبيقه على غاية من الدقة والامانة ، فكانوا منهجيين منطقيين قولا وعملا ، فهل كان النحاة كذلك؟

الحق أن النقد يجد في صف النحاة وفي قواعد نحوهم ثغراً عدة ينفذ منها الى الصميم ، فهم يريدون بناء قواعدهم على كلام العرب فيجمعون نتفاً نثرية وشعرية من هذه القبيلة ومن تلك ، من أعرابي في الشمال الى امرأة في الجنوب ، ومن شعر لا يعرف قائله الى جملة غير منسوبة ، يجمعون هذا الى أقوال معروفة مشهورة ، ويضعون قواعد تصدق على أكثر ما وصل اليهم بهذا الاستقراء الناقص الذي لا يستند الى خطة محكمة في الجمع ، ثم يسددون هذه القواعد بمقاييس منطقية يريدون اطرادها في الكلام ، حتى اذا أتت بعضهم قراءة صحيحة السند تخالف قاعدته القياسية ، طعن فيها وان كان قارئها أبلغ وأعرب من كثير ممن يحتج النحوي بكلامهم !! فلا استقراؤه كامل أو كاف ، ولا لشواهده التي استند اليها بعض ما للقراءة الصحيحة من القوة ، ولا اللغة تخضع للمقاييس المنطقية التي ابتدعها. وخير ما يصف اضطراب موقفهم هذا قول الرازي :

« اذا جوزنا إثبات اللغة بشعر مجهول ، فجواز اثباتها بالقرآن العظيم أولى ، وكثيراً ما ترى النحويين متحيرين في تقرير الالفاظ الواردة في القرآن ، فاذا استشهدوا في تقريرها ببيت مجهول فرحوا

وهم في أقوالهم هذه متهافتون خارجون على أصولهم التي أصّلوها هم أنفسهم ، واليك البيان :

أولاً — من المتفق عليه عند اللغويين والنحاة أنه لم يصل الينا من كلام العرب الا القليل ولو جاءنا وافراً لجاء علم كثير ، ومن المتفق عليه عندهم «أن اللغة إذا وردت في القرآن فهي أفصح مما في غير القرآن» .

ثانياً — بعد هـذا نرى أن ما ذهب اليه النحاة واللغويون غير صحيح ، فقد استعمل الكلمة أبو الأسود في بيته السابق ، ووردت في قول الشاعر :

وثَم ودعنا آل عمرو وعامر فرائس أطراف المثقفة السمر[1]

والعلماء يثبتون استعمال الكلمة بشاهد واحد إذا لم تخالف القياس، وكلمة (ودع) على ما مر بك من كلام ابن جنى مطردة في القياس ، أما قوله (شاذة في الاستعمال) فيحبطها اعتراف النحاة بضآلة ما انتهى الينا من كلام العرب وأن أحكامهم عامة مبنية على الاستقراء الناقص ، وورودها مع ذلك في شعر ابي الاسود وشعر شاعر آخر .

ثالثاً — نأتي الآن الى قراءة التخفيف في قوله تعالى (ما ودَعك ربك وما قلى) فقد قرأها كذلك عروة بن الزبير وابنه هشام وهما من

---

(١) انظر تفسير الكشاف للزمخشري ٤/٧٦٦ (مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٦٥ هـ) .

هما، بل ان الغريب في ذلك أن ابن جني نفسه نص في كتابه (المحتسب) على أنها قراءة النبي صلى الله عليه وسلم[1] !

وفي العباب للصاغاني : وقد اختار النبي ﷺ أصل هذه اللغة فيما روى ابن عباس أنه قرأ (ما ودعكَ) مخففة ، وكذلك قرأ عروة ومقاتل وأبو حيوة وابن أبي عبلة ويزيد النحوي[1] .

هذا وفي النهاية لابن الأثير (وهو معجم لألفاظ الحديث) تحت مادة (ودع) حديث عن النبي ﷺ فيه استعمال المصدر الذي زعموا أنه أميت وهو قوله : « لينتهين قوم عن ودْعهم الجمعات أو ليختمن على قلوبهم » .

والطريف أن بعض المحققين ممن تأخر زمانه عن أولئك صحح خطأهم فأثبت صاحب المصباح هذه اللغة الفصيحة في معجمه واستنكر ادعاءهم الإماتة فقال : « ودعته أدعه ودعاً تركته ... وزعمت النحاة أن العرب أماتت ماضي يدع ومصدره واسم الفاعل ، وقد قرأ مجاهد وعروة ومقاتل وابن أبي عبلة ويزيد النحوي « ما ودعك ربك » بالتخفيف ، وفي الحديث : «لينتهين قوم عن ودعهم الجمعات ..» فقد رويت هذه الكلمة عن افصح العرب ، ونقلت من طريق القراء فكيف

---

(١) انظر كتاب القراءات واللهجات ص ١٤٧ .

يكون إماتة ؟ »[1] ومثل ذلك تجده في معجم (المغرب) للمطرزي[1].

وبذلك ترى تسرب الوهي الى بعض احكامهم إذ كانت خطتهم ينقصها الإحكام في المنهج والكفاية في الاستقراء معاً ، وكان عليهم قبل إرسالها استيعاب قراءات القرآن على الأقل والاحتجاج بها.

٢ — من المعروف في العربية ان حرف العلة الزائد في الرباعي (صحيفة. عجوز ، سحابة) يقلب همزة في التكسير : (صحائف عجائز سحائب) ، فلما تواترت القراءة عن نافع المدني وابن عامر الدمشقي وهما إمامان عظيمان من أئمة القراء في قوله تعالى : (وجعلنا لكم فيها معائش) بالهمز — وهي غير قراءة الجمهور — قرروا أنها خطأ ، وغالى

(١) مادة (ودع) في : (المصباح المنير) ، و (المغرب) .

وقد رأيت بعد صدور الطبعة الاولى لهذا الكتاب حديثاً آخر فيه (ودع) وذلك بصدد الكلام عن عيينة بن حصن وأنه هو الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : « إن شر الناس من ودعه الناس اتقاء شره . » — انظر الروض الانف للسهيلي ٢/١٨٧ و « الأدب المفرد » ص ٣٣٥ الحديث (١٣١١) . وروى البخاري عن سعيد بن المسيب في تفسير قوله تعالى : « ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام .. الآية) : « والحامي فحل الإبل يضرب الضراب المعدود فاذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت وأعفوه من الحمل فلا يحمل عليه شيء وسموه : الحامي . » وأثبت البخاري في هذا الكتاب في الحديث (١٢٤٣) في ص ٣٢٠ قول عبد الله بن عمر لنافع : « فمن شاء أكل ومن شاء ودع » .

المازني منهم فقال: «إن نافعاً رحمه الله لم يدر ما العربية[1]» وخطأ همزها جميع نحاة البصرة على ما قال الزجاج.

وكان على نحاة البصرة تصحيح قاعدتهم أو تذييلها بأن العرب ربما حملت الحرف الاصلي على الزائد فعاملته معاملته اذ كان شبيهاً به في اللفظ[2] ثم عليهم ان يستشهدوا على ذلك بقراءة نافع هذه. وبذلك يزيد مذهبهم إحكاماً وانسجاماً مع أصوله التي اهمها البناء على السماع الصحيح. وأي سماع اصح من قراءة نافع وابن عامر والاعرج والاعمش وزيد بن علي روايةً عن عثمان بن عفان عن النبي ﷺ، هؤلاء الرواة فصحاء بمنابتهم، علماء بتحصيلهم سليقيون عاشوا ولم يتطرق الفساد الى ملكاتهم. وتعجبني كلمة ابي حيان في تفسيره تعقيباً على نقل الزجاج المتقدم: «ولسنا متعبدين بأقوال نحاة البصرة» لان اللغة تثبت بالنقل لا بالمقاييس المبنية على الاستقراء الناقص.

٣ ـ «كان اهل الشأم يقرؤون (ابراهام) بالف في مواضع دون مواضع (وهي لغة اهل الشام قديماً) ثم تركوا القراءة بالالف

---

(١) صبح الاعشى ١/١٧٩ وانظر كلام الخفاجي على هذه الآية في حاشية البيضاوي.

(٢) احتج على النحاة بتواتر قول العرب (مصائب ومنائر) وهما مثل (معايش) في كون همزتها مقلوبة عن حرف أصلي لا زائد، فلم يسع النحاة الا المكابرة والحمل على الشذوذ.

وقرؤوا جميع القرآن بالياء ... فرووا انه قيل لمالك بن انس : «ان اهل دمشق يقرؤون (ابراهام) فقال: «اهل دمشق بأكل البطيخ أبصر منهم بالقراءة » فقيل : « انهم يدّعون قراءة عثمان » فقال مالك: «ها مصحف عثمان عندي » ثم دعا به فإذا فيه كما قرأ اهل دمشق ... وفي سائر المصاحف (ابراهيم) مكتوب بالياء في جميع القرآن الا في البقرة فإنه بغير ياء »[1]

٤ ـ تدخل لام الأمر على المضارع الغائب في الأعم الاغلب ، وانكر قوم دخولها على غيره ، ولم يكن لهذا الانكار قيمة ما اذ «احتج على جواز ادخالها على المضارع المبدوء بتاء الخطاب بالقراءة الشاذة « فبذلك فلتفرحوا » كما احتج على ادخالها على المبدوء بالنون بالقراءة المتواترة : « ... ولنحمل خطاياكم .. »[2]

٥ ـ وقال فريق : لايجوز تسكين لام الامر بعد (ثم) الا في ضرورة الشعر . وقد أسقط المحققون هذا الحكم محتجين بالقراءة المتواترة: « ثم ليقطع » « ثم ليقضوا تفثهم » فقد قرأ جمهور القراء السبعة بتسكين اللام »[3].

---

(١) القراءات واللهجات ١٠٩ - فثبت ان بصر اهل دمشق بالقراءة لا يقل عن بصرهم بأكل البطيخ .

(٢) الاقتراح للسيوطي ١٧ .

(٣) نظرة في النحو للمرحوم طه الراوي : مجلة المجمع العلمي العربي ١٤/ ٣٢٣ وانظر الاقتراح ص ١٨ . هذا وتمام الآية الأولى :

نكتفي بهذه الامثلة الصرفية ذاكرين مثالين نحويين :

٦ ـ قال السيوطي : « كان قوم من النحاة المتقدمين يعيبون على عاصم وحمزة وابن عامر قراءات بعيدة في العربية (قلت : يعني العربية الصناعية التي وضعوها) وينسبونهم الى اللحن ، وهم في ذلك مخطئون فإن قراءاتهم ثابتة بالاسانيد المتواترة الصحيحة التي لامطعن فيها ، وثبوت ذلك دليل على جوازه في العربية ، وقد رد المتأخرون ، منهم ابن مالك ، على من عاب عليهم ذلك بأبلغ رد ... من ذلك احتجاجه على جواز العطف على الضمير المجرور من غير اعادة الجار بقراءة حمزة :

«.. واتقوا الله الذين تساءلون به والارحامِ ان الله كان عليكم رقيباً» [1] .

وقبل ابن مالك علق الفخر الرازي على هذه القراءة وعلى منع المانعين لجوازها وعلى تجويز سيبويه لها ببيتين مجهولي القائل بقوله : «... لأن حمزة احد القراء السبعة ، والظاهر انه لم يأت بهذه القراءة

« من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ » سورة الحج ١٥/٢٢ والآية الثانية : « ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليَطـّوّفوا بالبيت العتيق » سورة الحج ٢٩/٢٢ .

(١) الاقتراح ص ١٧ والآية هي الاولى من سورة النساء .

من عند نفسه بل رواها عن رسول الله ﷺ ، وذلك يوجب القطع بصحة هذه اللغة ، والقياس يتضاءل عند السماع ، لاسيما بمثل هذه الاقيسة التي هي او هي من بيت العنكبوت » ثم تعرض لاستشهاد سيبويه السابق فقال : « والعجب من هؤلاء النحاة انهم يستحسنون اثبات هذه اللغة بهذين البيتين المجهولين ولا يستحسنون اثباتها بقراءة حمزة ومجاهد ، مع انهما من اكابر علماء السلف في علم القرآن !»[1].

٧ ــ في كتاب الإنصاف لابن الانباري[2] تفصيل الخلاف بين البصريين والكوفيين حول الفصل بين المتضايفين بغير الظرف والجار والمجرور ، فقد منعه البصريون وأجازه الكوفيون محتجين بقراءة ابن عامر المتواترة :

« وكذلك زُيّن لكثير من المشركين قتلُ أولادَهم شركائهم ، ليردُوهم وليَلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله مافعلوه فذرهم وما يفترون »[3].

ولكن البصريين من النحاة تسرعوا فوهّموا هذه القراءة تعصباً لمقاييسهم النظرية . ومع ان القراءة ليست فنهم فقد حملهم التعصب على القطع في مسألة من غير فهم ، لتسلم لهم قواعد وضعوها دون استقراء

---

(١) تفسير الرازي ٣/١٩٣

(٢) ١/٢٤٩

(٣) سورة الانعام

واف . فقد قالوا : إن المضاف والمضاف اليه في حكم الشيء الواحد والكلمة الواحدة فلا يفصل بينهما أجنبي ، وإنما جاز الفصل بالظرف والجار والمجرور لاننا نتسامح فيهما مالا نتسامح في غيرهما [1] وهذا قول قد يتسق لو أن اللغة اخترعوها هم واخترعوا لها مقاييسها . أما واللغة سماع فقولهم لا نهض حجة في شيء ، ومن الذي أوحى اليهم أن المضاف والمضاف اليه بمنزلة الكلمة الواحدة؟ وهلا فصلوا جزءي الكلمة الواحدة بالظرف والجار والمجرور كما فعلوا بالمتضايفين اذا كان الامر فيهما — كما يقولون — واحداً ؟ [2]

ليس غريباً أن يكون هذا من النحاة في القرن الثاني وما بعده في زمن انقسام المدرستين وتحزب الأشياع لهما في عهد البدء بتدوين النحو ، ولكن الغريب أن يتم تدوين النحو وتدوين غيره من العلوم كالتفسير والحديث والقراءات واللغة ، وتحرر مسائلها ، ويمضي الزمن

(١) انظر الانصاف لابن الانباري ١/٢٥٠

(٢) تستطيع ادراك الوهن في أمثال هذه الحجج المرتجلة إذا رجعت الى ص ٢١٨ من المصدر السابق نفسه حيث ترى البصريين أنفسهم ينقضون ما قرروا هنا فيقولون عن الكوفيين : « وأما قولهم : (إن المضاف والمضاف اليه بمنزلة الشيء الواحد فجاز ترخيمه كالمفرد) قلنا : **هذا فاسد** لأنه لو كان معتبراً لوجب أن يؤثر النداء في المضاف اليه البناء كما يؤثر في المفرد . فلما لم يؤثر النداء فيه البناء دل على فساد ما ذهبتم اليه » — اه . وهكذا يرد البصريون على انفسهم .

على ذلك حتى تنضج وتحترق ـــ كما يقولون ـــ ثم يأتي الزمخشري في المئة السادسة (توفي سنة ٥٣٨) وهو العالم المفسر النحوي البليغ ،فيرى لنفسه الحق أن يرسل الأحكام في فن لم يتقنه اتقان اهله ، فيرد هـذه القراءة المتواترة بكلام خطابي هذا نصه :

واماقراءة ابن عامر(قتلُ اولادَهم شركائهم) برفع القتل و نصب الاولاد وجر الشركاء على اضافة القتل الى الشركاء، والفصل بينهما بغير الظرف ،فشيء لو كان في الضرورات وهو الشعر لكان سمجاً مردوداً... فكيف به في الكلام المنثور ؟ فكيف به في القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته !؟ والذي حمله على ذلك ان رأى في بعض المصاحف (شركائهم) مكتوباً بالياء . ولو قرأ بجر الاولاد والشركاء ،لان الاولاد شركاؤهم في اموالهم ، لوجد في ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب [1] » .

وفي هـذا الكلام زلتان كبيرتان يتنزه عنهما الشادي في علم القراءات ، فأما الاولى : ففي جملته الاخيرة المشعرة بأن ابن عامر حر في اختراع القراءة ، حتى لقد عجب بعضهم من هذا الجهل الساذج بما هو معروف ضرورة [2] ، والمقرر البديهي ان القراءة سماع محض

---

(١) تفسير الكشاف ٢/٧٠ (مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٣٦٥ هـ)

(٢) انظر كلمة التفتازاني في حاشية الأمير على مغنى اللبيب ٢/١٨٨ (الطبعة الثانية ـــ المطبعة الأزهرية بمصر ١٣٤٧ هـ - ١٩٢٨) .

لامجال للاجتهاد فيها ، واما الثانية : فظنه ان القارىء اسير الرسم [1] . وان الذي حمل ابن عامر على جر (شركائهم) رسمها بالياء في المصحف الشامي ، وهذه شبه تلك في الجهالة ، فالقراءة تتلقى مشافهة بالإسناد ، وهي - عادة - توافق الرسم ، وليس لقارىء ان يقرأ قراءة لم يتلقها ، وان وافقت الرسم [2] .

وعبد الله بن عامر هذا ، امام من اعلام القراء وكبار التابعين (١١ - ١١٨ هـ) ، احد القراء السبعة وامام الشاميين في قراءتهم تلق قراءته عن كبار الصحابة كعثمان بن عفان وغيره وعن كبار التابعين ، وهو بعد، من صميم العرب الذين يحتج بكلامهم ، وقد تلق قراءته هذه عن الأثبات وتلقاها عنه المئات ، وهو قاضي دمشق وشيخ مشايخ

---

(١) وكثيراً ما يسهو النحاة في مثل هذه المواقف اذ يرجمون بالظن في علم لم يتلقوه ، وانظر مثلا أمالي ابن الشجري (٩٢/١) حين ظن ان وقوف القراء الستة (غير ابي عمرو بن العلاء) على (كأين) بالنون كان اتباعاً لخط المصحف ! مع أنها اللغة الأشيع التي تلقوها عن العرب الثقات شفاهاً .

(٢) لما زعم ابن مقسم العطار المقرىء النحوي (- ٣٥٤) « ان كل من صح عنده وجه في العربية لحرف من القرآن يوافق خط المصحف فقراءته جائزة في الصلاة وغيرها . » أنكروا عليه - انظر إنباه الرواة ج ٣/١٠١ الحاشية (١) وهو من النحاة الكوفيين ، اتبع ابن شنبوذ في اتخاذ القراءات الشاذة ، وانفرد منها بأشياء لا تدل على ملكة سليمة في العربية . وحفظ أقوال الكوفيين مع اتخاذ فوضاهم في السماع يؤدي بصاحبه الى مثل هذا الشذوذ ، وقد استتيب عند السلطان فرجع عن تخبطه - بغية الوعاة ص ٣٦ .

قرائها ، وامام جامعها الاعظم على عهد عمر بن عبد العزيز »[1] ، وكان علي الزمخشري وهو اعجمي تخرج بقواعد النحاة المبنية على الاستقراء الناقص ، ان يتحرى لنقد رجل عربي قويم الملكة فصيح اللسان حجة في لغة العرب ، شيئاً غير هذه الخطابيات[2] .

وعلى هذا تكون هذه القراءة حجة قوية على الفصل بين المتضايفين بغير الظرف والجار والمجرور مثل القراءة الثانية في قوله تعالى (فلا تحسبن الله مخلفَ وعْدَه رسلِه إن الله عزيز ذو انتقام»[3] ويكون هذا الفصل

(١) نظرة في النحو للمرحوم طه الراوي . مجلة المجمع العلمي العربي ١٤ / ٣٢٢ .

(٢) كتبت هـذا سنة ١٩٥٠ واستنكر ذلك بعض الاساتذة الأدباء ورأوا أني أتيت بأمر إدٍ في انتقاصي فعلة الزمخشري . وبعد سنتين كنت أراجع قراءة في كتاب « غيث النفع في القراءات السبع » للصفاقسي فوقفت عند كلامه على قراءات هذه الآية فإذا به يشتد على الزمخشري بما يجعل قولي السابق فيه تفريطاً في حق العربية إذا قيس بقول الصفاقسي فارجع اليه (ص ١٢٥ على هامش سراج القاري طبعة مصطفى محمد سنة ١٣٥٢ هـ) .

على أن ابن المنير الإسكندري صاحب كتاب « الانتصاف » الذي تتبع به تفسير الزمخشري لم يكن أرفق من الصفاقسي – انظر [تفسير الكشاف مع ذيوله طبعة الاستقامة سنة ١٣٦٥ هـ ٢/ ٦٩] .

ففي هذين التعليقين شواهد كثيرة وعلم غزير .

(٣) سورة ابراهيم ١٤ الآية ٤٧ . قال الزمخشري في كشافه (٢/٥٦٦) وقرىء : (مخلفَ وعدَه رسلِه) بجر الرسل ونصب الوعد . وهذه في الضعف كمن قرأ : (قتلُ أولادَهم شركائِهم) اه وقد علمت آنفاً ما في حكمه هذا من الخطأ .

على ـ ندرته ـ عربياً قوياً . وكان المنهج السليم يقضي أن يصحح النحاة البصريون قاعدتهم محتجين بهذه القراءة كما فعل الكوفيون ، لا أن يضعفوا قراءة متواترة يرويها المئات من فصحاء العرب المحتج بكلامهم عن رسول الله ﷺ .

وبعد ، فقراءات القرآن جميعها حجة في العربية متواترها وآحادها وشاذها[1] ، وأكبر عيب يوجه الى النحاة عدم استيعابهم إياها ، وإضاعتهم على أنفسهم ونحوهم مئات من الشواهد المحتج بها ، ولو فعلوا لكانت قواعدهم أشد إحكاماً .

(١) مذهب ابن جني الاحتجاج في العربية بالقراءة الشاذة ، وقد ألف في ذلك كتابه (المحتسب) جمع فيه شواذ القراءات ووجّهها واحتج لها . وصنيعه ذلك هو الصواب .

٢

الحديث الشريف

يراد بالحـديث الشريف أقوال النبي ﷺ وأقوال الصحابة التي تروي أفعالهاو أحواله او ما وقع في زمنه، وقد تشتمل كتب الحديث على أقوال التابعين أيضاً كالزهري وهشام بن عروة وعمر بن عبد العزيز . والذي جعل بعض اللغويين النحويين يثبتون أقوال التابعين هؤلاء مع الرسول والصحابة ثقتهم بصحة صدورها عنهم، فيحتجون بها في إثبات مادة لغوية أو دعم قاعدة نحوية أو صرفية .

وقد كان من المنهج الحق بالبداهة أن يتقدم الحـديث سائر كلام العرب من نثر وشعر في باب الاحتجاج في اللغة وقواعد الإعراب ، إذ لا تعهد العربية في تاريخها بعد القرآن الكريم بياناً أبلغ من الكلام النبوي ولا أروع تأثيراً ولا أفعل في النفس ولا أصح لفظاً ولا أقوم معنى ؛ ولكن ذلك لم يقع كما ينبغي لانصراف اللغويين والنحويين المتقدمين إلى ثقافة ما يزوّدهم به رواة الأشعار خاصة ، انصرافاً استغرق جهودهم ، فلم يبق فيهم لرواية الحديث ودرايته بقية ، فتعللوا لعدم احتجاجهم بالحديث بعلل، كلها وارد بصورة أقوى على ما احتجوا به هم أنفسهم من شعر ونثر .

ومع إجماع اللغويين والنحاة عامة على أن النبي ﷺ أفصح العرب قاطبة ، وأن الحديث لا يتقدمه شيء في باب الاحتجاج اذا ثبت لهم أنه لفظ النبي نفسه ، انقسموا فيما يروى من الأحاديث فريقين : فريقاً غلب على ظنه أنها لفظه عليه السلام فأجاز الاحتجاج بها ، وفريقاً غلب على ظنه أنها مروية بالمعنى لا باللفظ ، واذاً لا يجيز الاحتجاج بها. ونحن عارضون بشيء من التفصيل للمذهبين ثم خاتمون بما نرى أنه الأقرب الى الحق مستندين الى الحقائق التاريخية ووقائع الحال :

مذهب المانعين :

عبر عنه أبو حيان الأندلسي (ـ ٧٤٥ ﻫ) خير تعبير اذ كان أشدهم مبالغة فيه ، وانكاراً على مخالفيه ، ونحن نثبت من كلامه حجة المانعين في عدم الوثوق بأن المروي لفظ النبي ولهذا لم يحتجوا به ، قال :

« انما ترك العلماء ذلك لعدم وثوقهم ان ذلك لفظ الرسول ﷺ ، اذ لو وثقوا بذلك لجرى مجرى القرآن في اثبات القواعد الكلية ، وانما كان ذلك لأمرين :

١ ـــ احدهما ان الرواة جوزوا النقل بالمعنى فتجد قصة واحدة قد جرت في زمانه[1] ﷺ فتنقل بألفاظ مختلفة كحديث :

(١) الحديث : عن سهل بن سعد أن امرأة عرضت نفسها على النبي ، فقال له رجل : « يا رسول الله : زوجنيها » فقال : « ما عندك ؟ » قال « ما عندي شيء » قال: « اذهب والتمس ولو خاتماً من حديد . » فذهب ثم رجع فقال :=

« زوجتكها بما معك من القرآن » .

وفي رواية اخرى « ملكتكها بما معك من القرآن » .

وفي الثالثة « خذها بما معك من القرآن » .

وفي الرابعة : « أمكناكها بما معك من القرآن » ..

فنعلم يقيناً انه ﷺ لم يلفظ بجميع هذه الألفاظ ، بل لا نجزم بأنه قال بعضها إذ يحتمل أنه قال لفظاً آخر مرادفاً لهذه الالفاظ فأتت الرواة بالمرادف ولم تأت بلفظه إذ المعنى هو المطلوب ؛ ولا سيما مع تقادم السماع وعدم ضبطه بالكتابة والاتكال على الحفظ ، والضابط منهم من ضبط المعنى وأما ضبط اللفظ فبعيد جداً ولا سيما في الأحاديث الطوال ... ومن نظر في الحديث أدنى نظر علم العلم اليقين أنهم إنما يروون بالمعنى .

٢ ــ الأمر الثاني : أنه وقع اللحن كثيراً فيما روي من الحديث، لأن كثيراً من الرواة كانوا غير عرب بالطبع ، ولا يعلمون لسان العرب بصناعة النحو ، فوقع اللحن في كلامهم وهم لا يعلمون ذلك .

= « لا والله ما وجدت شيئاً ولا خاتماً من حديد ... فقال له : « ما ذا معك من القرآن ؟ » قال : « معي سورة كذا وسورة كذا وسورة كذا » لسور يعددها ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أمكناكها بما معك من القرآن » ــ وفي رواية : « اذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن » التجريد الصريح لاحاديث الجامع الصحيح ٢/١٢٠ (كتاب النكاح) . وانظر صحيح البخاري: الكتاب (٦٧) الباب ١٤ و ٣٢ و ٣٥ .

فنظرة الى معاجم (التهذيب للأزهري) و (الصحاح للجوهري) و (المخصص لابن سيده) و (المجمل ، ومقاييس اللغة لابن فارس) و (الفائق للزمخشري) كافية لدحض ما ادعى ابو حيان ، بل قد عد ابن الطيب [1] من اصحاب هذا المذهب من النحاة : ابن فارس وابن خروف وابن جني وابن بري والسهيلي، بل انه قال : لا نعلم احداً من علماء العربية خالف في هذه المسألة الا ما ابداه الشيخ ابو حيان في شرح التسهيل وابو الحسن الضائع (ـــ ٦٨٠) في شرح الجمل وتابعهما على ذلك الجلال السيوطي (ـــ ٩١١) " [1] .

ولا عجب في ان يتدارك المتأخرون ما فات المتقدمين ، بل ان ذلك هو المنتظر المعقول ، اذ كان العالم من الأوائل يعلم روايات محدودة وخيرهم من صنف مفردات اللغة في موضوع واحد كالأصمعي مثلا . ثم جاءت طبقة بعدهم وصل إليها كل ما صنف السابقون فكانت أوسع إحاطة ، ثم جاءت طبقة بعد طبقة ، وألفت المعاجم المحيطة بكل ما اطلع عليه أصحابها من تصانيف و نصوص غاب اكثرها عن الأولين فكانوا اوسع علماً ، ولذلك نجد ما لدى المتأخرين من ثروة نحوية او لغوية او حديثية شيئاً وافراً مكنهم من ان تكون نظرتهم أشمل واحكامهم أسدّ . ولو كانت هذه الثروة في ايدي الأقدمين كأبي عمرو بن العلاء والاصمعي وسيبويه ... لعضوا عليها بالنواجذ ولغيروا ـــ فرحين

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ٣/١٩٩ بحث (الاستشهاد بالحديث) للسيد محمد الخضر حسين

مغتبطين — كثيراً من قواعدهم التي صاحبها — حين وضعها — شح المورد . ولكانوا اشد المنكرين على ابي حيان جموده وضيق نظرته وانتجاعه الجدب ، والخصب محيط به من كل جانب .

ثم اتى الإمام ابن مالك (ـ ٦٧٢) فأكثر من الاستدلال بما وقع في الأحاديث على إثبات القواعد الكلية في لسان العرب ولا سيما في كتابه (التسهيل) إكثاراً ضاق به ابو حيان شارح (التسهيل) غير مرة، حتى غلا في بعض هذه المرات فقال « والمصنف قد اكثر من الاستدلال بما ورد في الأثر متعقباً بزعمه على النحويين وما أمعن النظر في ذلك(!!) ولا صحب من له التمييز !!![1] » كذا قال !.

ثم جاء ابن هشام (ـ ٧٦١ هـ) تلميذ ابي حيان ونقيضه في مذهبه ازاء الاستشهاد في الحديث، يكثر من الاحتجاج به في كتبه ما وجد الى ذلك سبيلاً كغيره من النحاة ، حتى لفت نظر مترجميه فنصوا على انه « كان كثير المخالفة لشيخه ابي حيان ، شديد الانحراف عنه »[1] .

وهؤلاء يردون اعتراضات المانعين في سهولة ويسر :

فأما المانع الأول وهو تجويز الرواية بالمعنى فيجيبون عليه بأن الأصل الرواية باللفظ ، ومعنى تجويز الرواية بالمعنى ان ذلك احتمال عقلي فحسب لا يقين بالوقوع ، وعلى فرض وقوعه فالمغير لفظاً بلفظ في معناه عربي

---

(١) انظر الاقتراح للسيوطي ص ١٩ — ٢١

(١) بغية الوعاة ص ٢٩٣

مطبوع يحتج بكلامه في اللغة ، ونحن نعرف مقدار تحري علماء الحديث وضبطهم لألفاظه ، حتى اذا شك راوٍ عربي بين (على وجوههم) و (على مناخرهم)[1] أثبتوا شكه ودوّنوه مبالغة في التحري والدقة . هذا الى جانب كثير من الرواة صحابة وتابعين دوّنوا الأحاديث من عهد النبي ﷺ ، فهذا عبد الله بن عمرو بن العاص كان يكتب الحديث حياة رسول الله ، وكذلك روي عن عبد الله بن عمر ، وأنس بن مالك ، وسهل بن سعد الساعدي من الصحابة الكرام . وهذا عمر بن عبد العزيز (ــ ١٠١) يكتب إلى الآفاق أن : «انظروا ما كان من حديث رسول الله أو سنته فاكتبوه» ثم كان الزهري (ــ ١٢٤) وابن أبي عروبة (ــ ١٥٦) والربيع بن صبيح (ــ ١٦٠) ممن دونوا الحديث كتابة . ثم شاع التدوين في الطبقات التي بعد هؤلاء ، وهذا كاف في غلبة الظن بأن الذي في مدونات الطبقة الأولى لفظ النبي نفسه ، فإن كان هناك إبدال لفظ بمرادفه فإنما أبدله عربي فصيح يحتج به . وإن وقع بعد ذلك شك في بعض الروايات من غلط أو تصحيف فنزر يسير لا يقاس أبداً إلى أمثاله في الشعر وكلام العرب ، فكثير من الأشعار نفسها رويت بروايات مختلفة ، وبعضها موضوع وربما كان ما فطنوا إلى وضعه منه

---

(١) في الحديث « وهل يكبّ الناس في النار على وجوههم (او قال على مناخرهم) الا حصائد السنتهم . » انظر الحديث (٢٩) في الاربعين النووية .
وانظر أمثلة أخرى في كتاب (علوم الحديث ومصطلحه) ص ٧٧ – ٧٩

أقل من القليل، وجاز عليهم أكثر الموضوع اذ كان واضعه قد أحسن المحاكاة، قال الخليل بن أحمد: «ان النحارير ربما أدخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب ارادة اللبس والتعنيت.[1]»

وأنتم تحتجون بهذا الشعر والنثر على عجره وبجره، هذا من حيث المتن، وأما من حيث السند فقد عرف المجيزون والمانعون أن مافي روايات الحديث من ضبط ودقة وتحر لا يتحلى ببعضه كل ما يحتج به النحاة واللغويون من كلام العرب، حتى قال الأعمش: «كان هذا العلم عند أقوام كان أحدهم: لأن يخر من السماء أحب اليه من أن يزيد فيه واواً او ألفا أو دالاً»[2].

وأما المانع الثاني وهو وقوع لحن في بعض الأحاديث المروية، فهو شيء - ان وقع - قليل جداً لا يبنى عليه حكم، وقد تنبه اليه الناس وتحاموه ولم يحتج به أحد، ولا يصح أن يمنع من اجله الاحتجاج بهذا الفيض الزاخر من الحديث الصحيح الا ان جاز اسقاط الاحتجاج بالقرآن الكريم لأن بعض الناس يلحن فيه. وانت تعرف الى هذا انهم قد تشددوا في اخذ الناس بضبط ألفاظ الحديث، حتى اذا لحن فيه شاد او عامي اقاموا عليه النكير، بل ان بعضهم ليدخله النار بسببه، وكان هذا التشديد تقليداً متوارثاً في حملة الحديث حتى يومنا هذا. وانظر

(١) الصاحبي ص ٣٠ المطبعة السلفية بالقاهرة

(٢) الكفاية ص ١٧٨

ان شئت ما أثبته في هذا الموضوع أحد أعلام الشام السيد جمال الدين القاسمي (- ١٣٣٢ ﻫ) :

« من قرأ حديث رسول الله وهو يعلم انه يلحن فيه سواء أكان في أدائه ام في اعرابه ، يدخل في هذا الوعيد الشديد (يعني قوله صلى الله عليه وسلم : من كذب عليّ متعمّداً فليتبوّأ مقعده من النار) لأنه بلحنه كاذب عليه . »[1] اﻫ .

قلت : حتى الذين يروونه بالمعنى يعظمون امر اللحن في الحديث: فهذا امام اهل الشام الأوزاعي يقول : « أعربوا الحديث فإن القوم كانوا عرباً » ، ويقول: « لا بأس بإصلاح اللحن في الحديث. » وهذا حماد بن سلمة يقول : « من لحن في حديثي فليس يحدّث عني . » واليك هذه السلسلة :

عن الحسن بن علي الحلواني قال : « ما وجدتم في كتابي عن عفان لحناً فأعربوه فإن عفان كان لا يلحن » وقال لنا عفان : « ما وجدتم في كتابي عن حماد بن سلمة لحناً فأعربوه فإن حماداً كان لا يلحن . » وقال حماد : « ما وجدتم في كتابي عن قتادة لحناً فأعربوه فان قتادة كان لا يلحن . » ـــ انظر كتاب (الف باء) للبلوي ١/٤٤ .

واغلب الظن ان من يستشهد بالحديث من المتقدمين لو تأخر به

---

(١) قواعد التحديث من فن مصطلح الحديث ص ١٥٦ دمشق مطبعة ابن زيدون (١٣٥٣ ﻫ - ١٩٣٥)

الزمن الى العهد الذي راجت فيه بين الناس ثمرات علماء الحديث من رواية ودرايةلقصروا احتجاجهم عليه بعد القرآن الكريم ، ولماالتفتوا قط الى الأشعار والأخبار التي لا تلبث ان يطوقها الشك اذا وزنت بموازين فن الحديث العلمية الدقيقة ،

« واما ما ادعاه ابو حيان من ان المتأخرين من نحاة الأقاليم تابعوا المتقدمين في عدم الاحتجاج بالحديث ، فمردود بأن كتب النحاة من اندلسيين وغيرهم مملوءة بالاستشهاد بالحديث ، وقد استدل بالحديث الشريف الصقلي والشريف الغرناطي في شرحيهما لكتاب سيبويه ،وابن الحاج في شرح المقرب، وابن الخباز في شرح ألفية ابن معطي، علي الشلوبين في كثير من مسائله ،وكذلك استشهد بالحديث السيرافى والصفار في شرحيهما لكتاب سيبويه وقال ابن الطيب : « بل رايت الاستشهاد بالحديث فى كلام ابن حيان نفسه »[1] .

وجرى على ذلك العلماء حتى عصرنا الحاضر ، منهم المرحوم الاستاذ طه الراوي ، فقد كان يذهب الى الاحتجاج بما صح منها دون قيد ولا شرط ،ويعرض للذين اعترضوا بوجود اعاجم في رواة بعض الاحاديث فيقول « والقول بأن في رواة الحديث أعاجم ليس بشيء ، لان ذلك يقال في رواة الشعر والنثر اللذين يحتج بهما فان فيهم الكثير من الاعاجم،

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ٣/٢٠٧ بحث السيد محمد الخضر حسين ــ هـذا ويقال لأبي حيان : ابن حيان ايضاً لان أحد أجداده (حيان) .

وهل في وسعهم أن يذكروا لنا محدثاً ممن يعتد به يمكن أن يوضع في صف (حماد الراوية) الذي كان (يكذب ، ويلحن، ويكسر) ومع ذلك لم يتورع الكوفيون ومن نهج منهجهم عن الاحتجاج برواياته ، ولكنهم تحرجوا في الاحتجاج بالحديث... ثم لا ادري لم ترفع النحويون عما ارتضاه اللغويون من الانتفاع بهذا الشأن ، والاستقاء من ينبوعه الفياض بالعذب الزلال ، فأصبح ربع اللغة به خصيباً بقدرما صار ربع النحو منه جديباً :

وكان حالها في الحكم واحدة لو احتكمنا من الدنيا إلى حكم[1]

وقبله بقليل عالج هذا الموضوع السيد محمد الخضر حسين في مجلة مجمع اللغة العربية على خير مايعالجه عالم ثبت متروٍ وقاضٍ منصف ، وانتهى من بحثه إلى النتيجة المرضية الآتية :

« من الاحاديث مالاينبغي الاختلاف بالاحتجاج به في اللغة (والقواعد) وهو ستة أنواع :

أولها ــ مايروى بقصد الاستدلال على كمال فصاحته عليه الصلاة والسلام كقوله (حمي الوطيس) وقوله (مات حتف أنفه) وقوله (الظلم ظلمات يوم القيامة) الى نحو هذا من الأحاديث القصار المشتملة على شيء من محاسن البيان كقوله (ارجعن مأزورات غير مأجورات) وقوله (إن الله لايمل حتى تملوا) .

(١) نظرة في النحو (مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ١٤/٣٢٥ – ٣٢٧)

ثانيها — مايروى من الأقوال التي كان يتعبد بها ، أو أمر بالتعبد بها كألفاظ القنوت والتحيات وكثير من الأذكار والادعية التي كان يدعو بها في أوقات خاصة .

ثالثها — مايروى على أنه كان يخاطب كل قوم من العرب بلغتهم .

ومما هو ظاهر أن الرواة يقصدون في هذه الانواع الثلاثة إلى رواية الحديث بلفظه .

رابعها — الاحاديث التي وردت من طرق متعددة واتحدت ألفاظها، فإن اتحاد الالفاظ مع تعدد الطرق دليل على أن الرواة لم يتصرفوا في ألفاظها ، والمراد أن تتعدد طرقها إلى النبي صلى عليه وسلم أو إلى الصحابة أو إلى التابعين الذين ينطقون الكلام العربي فصيحاً .

خامسها — الاحاديث التي دونها من نشأ في بيئة عربية لم ينتشر فيها فساد اللغة ، كمالك بن أنس وعبدالملك بن جريج والامام الشافعي .

سادسها — ماعرف من حال رواته أنهم لايجيزون رواية الحديث بالمعنى مثل ابن سيرين والقاسم بن محمد ورجاء بن حيوة وعلي بن المديني[1]

(١) قلت : لعل ذلك هو الغالب على رجال الحديث وغيرهم ممن يروي الحديث ، ولذا كان اول المرغبات عندهم في تعلم العربية صيانة ألفاظ القرآن والحديث من التحريف أولاً وحسن فهمها ثانياً ، قال الاصمعي « ان أخوف ماأخاف على طالب العلم اذا لم يعرف النحو ان يدخل في جملة قول النبي ﷺ : (من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار) لانه لم يكن يلحن ؛ فمها رويت عنه ولحنت فيه كذبت عليه . » اهـ مخطوطة الظاهرية لتاريخ دمشق لابن=

ومن الاحاديث مالاينبغي الاختلاف في عدم الاحتجاج به، وهي الاحاديث التي لم تدون في الصدر الاول وانما تروى في بعض كتب المتأخرين ...

والحديث الذي يصح أن تختلف الانظار في الاستشهاد بألفاظه ، هو الحديث الذي دوّن في الصدر الاول ولم يكن من الانواع الستة المبينة آنفاً وهو على نوعين: حديث يرد لفظه على وجه واحد ،وحديث اختلفت الرواية في بعض ألفاظه :

١ ـ أما الحديث الوارد على وجه واحد فالظاهر صحة الاحتجاج به، نظراً الى أن الاصل الرواية باللفظ، والى تشديدهم في الرواية بالمعنى، ويضاف الى هذا كله عدد من يوجد في السند من الرواة الذين لايحتج بأقوالهم ، فقد يكون بين البخاري ومن يحتج بأقواله من الرواة واحد أو اثنان وأقصاهم ثلاثة .

ومثال هذا النوع أن الحريري أنكر على الناس قولهم قبل الزوال (سهرنا البارحة) قال : وانما يقال (سهرنا الليلة) .ويقال بعد الزوال (سهرنا البارحة) اه . والشاهد على صحة مايقوله الناس حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا أصبح قال : (هل رأى أحد منكم البارحة

=عساكر ٥ / الورقة ١/٤٨١ والاصمعي هذا هو الذي كان ــ على جلالة قدره في اللغة العربية ــ يتقي ان يفسر حديث رسول الله كما يتقي ان يفسر القرآن! مبالغة منه في التحري والورع . ــ انظر الورقة ١/٤٨٢ من الجزء نفسه .

(رؤيا ؟) وحديث : (وان من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح ــ وقد ستره الله ــ فيقول عملت البارحة كذا .) ففي قوله (اذا أصبح قال: هل رأى احدمنكم البارحة) وقوله (ثم يصبح فيقول عملت البارحة)شاهد على صحة ان يقول الرجل متحدثاً عن الليلة الماضية وهو في الصباح : سهرنا البارحة ، او وقع البارحة كذا .

٢ ــ واما الاحاديث التي اختلفت فيها الرواية ... فنجيز الاستشهاد بما جاء في رواية مشهورة لم يغمزها احد المحدثين بأنها وهم من الراوي[1] . واما مايجيء في رواية شاذة ، او في رواية يقول فيها بعض المحدثين: انها غلط من الراوي[2] ، فنقف دون الاستشهاد بها .

وخلاصة البحث انا نرى الاستشهاد بألفاظ مايروى في كتب الحديث المدونة في الصدر الاول وان اختلفت فيها الرواية، ولا نستثني الا الالفاظ التي تجيء في رواية شاذة او يغمزها بعض المحدثين بالغلط او التصحيف غمزاً لامرد له ، ويشد ازرنا في ترجيح هذا الرأي ان جمهور اللغويين وطائفة عظيمة من النحويين يستشهدون بالالفاظ الواردة في الحديث ولو على بعض رواياته .)[3] هـ .

---

(١) مثل لها الاستاذ بكلمة (قام النبي ﷺ مثلاً) اي منتصباً، والمعروف في كلام العرب انما هو (ماثل) . وانظرها في لسان العرب .

(٢) مثل لها الاستاذ بكلمة (ان كلماته بلغت ناعوس البحر) . وفي بقية الروايات « قاموس البحر » وناعوس غير معروفة في كلام العرب

(٣) مجلة مجمع اللغة العربية ٣/٢٠٨ ــ ٢١٠

٣ ــ كلام العرب

اما العرب المحتج بهم فقد عرفت من هم في القسم الثالث من هذا البحث باسهاب فلا نعيد منه هنا شيئاً ، فقد اقتصر العلماء على تدوين كلام القبائل الضاربين في وسط الجزيرة: كأسد وقيس وتميم وهذيل ، والذي دوّن منه كلام لبعض افراد منهم . فاذا نسبت هؤلاء الافراد الى قبائلهم ، ثم نسبت هذه القبائل القليلة الى قبائل العرب عامة، عرفت صدق ابي عمرو بن العلاء وصحة مذهبه حين قال :

ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقلّه ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علمٌ وشعر كثير [1] » .

ومن ينعم النظر في معاجم اللغة وكتب قواعدها يجد كتب اللغويين أوفرَ حظاً في الاستشهاد بالشعر والنثر على السواء في إثبات معنى أو استعمال كلمة ، ويجد النحاةَ يكادون يقتصرون على الشعر . وزادت عنايتهم بالشواهد الشعرية مع الزمن ؛ حتى « كان أبو مسحل

---

(١) في طبقات فحول الشعراء لابن سلام : قال عمر بن الخطاب « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه » ، فجاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر فلم يؤولوا الى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل . فحفظوا ذلك وذهب عليهم منه كثير . اهـ ص ٢٢ طبعة دار المعارف بشرح محمود محمد شاكر

يروي عن علي بن المبارك الأحمر أربعين ألف بيت شاهد في النحو»[1]، بل كان أبو بكر الأنباري (ــ ٣٢٨) يحفظ فيما ذكر ثلاثمائة ألف بيت شاهد في القرآن الكريم»[2]. ونحن إن قابلنا الشواهد النثرية عند هؤلاء وأولئك بالشواهد الشعرية وجدناها ضئيلة جداً، فإذا أضفت إلى ذلك كله، حملهم على الصرورة الشعرية كل شعر لم ينطبق على قواعدهم ومقاييسهم[3] التي بنوها على استقراء ناقص جداً، عرفت أن أساس تلك القواعد والقوانين غير متين من الناحية النظرية على الأقل.

---

(١) بغية الوعاة ص ٢٨٢، ٣١٨، ٣٣٤.

(٢) طبقات الحنابلة ص ٣٢٨

(٣) بل كان بعض قدماء النحاة لا يستشهد بشعر جرير والفرزدق والاخطل ولا يتورع عن تلحينهم فيما لا ينطبق على قواعدهم. هذا عبدالله بن ابي إسحاق الحضرمي وهو مولى يلحن الفرزدق في قوله:

مستقبلين شمال الشام تضربنا ... بحاصب من نديف القطن منثور

على عمائمنا تلقى، وأرحلنا ... على زواحف تزجى، مخها رير

ويقول له: «الا قلت: على زواحف نزجيها محاسير» فيغضب الفرزدق قائلا «والله لأهجونك ببيت يكون شاهداً على ألسنة النحويين أبداً» = ويهجوه بقوله:

فلو كان عبد الله مولى هجوته ... ولكن عبد الله مولى مواليا

الشعر والشعراء ٣٥ «بتحقيق احمد محمد شاكر وانظر خزانة الادب للبغدادي «١/٢١٧ – ٢١٩» طبع السلفية ومراتب النحويين ص ١٢. فيستمر عبد الله في تلحينه ذاهباً الى انه ينبغي ان يقول: مولى موالٍ. ثم يخضع الفرزدق لسلطان النحو فيتشوف الى أن يصلح ابن ابي اسحاق مافي شعره من خلل ـ الموشح ص ١٠٠ =

. . . .

ولما سمع قول عثمان البتي الفصيح الرائع الملقب بالعربي لفصاحته الذي قال فيه يونس : « ماجاءنا عن أحدمن روائع الكلام ماجاءناعن البتي » لما سمع قوله :

كورهاء مشنيّ اليها حليها

قال : أخطأ عربيكم : إنما هو : مشنوء . » – إنباه الرواة ٣٤٤/٢ توفى البتي سنة ١٤٣ هـ

ومن قبله كان يونس بن حبيب يؤاخذ رؤبة واباه العجاج باشتقاقات يشتقانها على غير القياس عنده حتى ضاق به رؤبة وقال له : « علينا أن نقول وعليكم أن تعربوا . »

هذا ، وقد ارتقى ببعضهم الامر الى تلحين بعض فحول الجاهلية كما وقع لعيسى ابن عمر . فانه كان يقول : أساء النابغة بقوله : « . . . . في أنيابها السم ناقع » وكان عليه ان يقول « ناقعاً » . وعيسى هذا معروف مثل ابن أبي إسحق بأنه كان يطعن على العرب ويخطىء المشاهير منهم » (انباه الرواة ٣٧٥/٢ وطبقات النحويين واللغويين ص ٢٦) وكان ابو عمرو بن عبد العـــلاء وابن ابي اسحاق هذا والحسن البصري وابن شبرمة يلحنون الفرزدق والكميت وذا الرمة وأضرابهم – تاريخ آداب العرب للرافعي ٣٦٨/١

ويقول ابن فارس : « ماجعل الله الشعراء معصومين يوقون الغلط والخطأ فما صح في شعرهم فمقبول ، وأما أبته العربية وأصولها فهو مردود كقوله :

ألم يأتيك والأنباء تنمي

وقوله : لمـا جفا اخوانه مصعباً

وقوله : قفا عند مما تعرفان ربوع

فكله غلط وخطأ » اهـ – مجلة المجمع العلمي العربي ٣٢٧/١٤

وكان الاصمعي ينكر ان يقال (ابرق وأرعد) وانمـا الصواب (برقت السماء ورعدت) فلما أنشد قول ذي الرمة :

إذا خشيت منه الصريمة أبرقت   له بَرْقة من خلّب غير ماطر

أنكره ، ولم يكن يرى ذا الرمة حجة ، فلما انشدوه بيت الكميت :

أبرق وأرعد يا يزيـد   فما وعيدك لي بضائرْ

قال : « الكميت جرمقاني » !! – لسان العرب : مادة (برق)

(٥)

بعض قواعدهم في الاحتجاج [1]

١ ــ المسموع إما مطرد وإما شاذ . والاطراد والشذوذ أربعة أضرب :

١ ــ مطرد في القياس والاستعمال معاً ، كرفع الفاعل ونصب المفعول . وهذا أقوى مراتب الكلام .

٢ ــ مطرد في القياس شاذ في الاستعمال نحو الماضي من يذر ويدع [2] . وقولهم (مكان مبقل) هذا هو القياس ، والأكثر في السماع (باقل) ، وكذا مجيء منصوب عسى اسماً صريحاً مثل (عسى زيد قائماً) غير أن الأكثر مجيئه فعلاً .

٣ ــ مطرد في الاستعمال شاذ في القياس ، نحو قولهم : (استحوذ استنوق ، استصوب) والقياس الإعلال (استحاذ ..) .

٤ ــ شاذ في القياس وفي الاستعمال معاً كقولهم : ثوب مصوون ، وفرس مقوود [3] .

---

(١) مقتبسة بتصرف من كتاب « الاقتراح للسيوطي » ص ٢٤ - ٤١

(٢) علمت ما في هذا الحكم من خطأ ص ٣٠

(٣) تتمة ـ قال ابن هشام :

اعلم انهم يستعملون « غالباً » ، و« كثيراً » ، و« نادراً » و« قليلاً » ، و« مطرداً » فالمطرد لا يتخلف ، والغالب اكثر الاشياء ولكنه يتخلف ، والكثير دونه ، والقليل دونه ، والنادر أقل من القليل . فالعشرون بالنسبة الى «٢٣» غالب ، والخمسة عشر بالنسبة اليها كثير لا غالب ، والثلاثة قليل ، والواحد نادر .

٢ ــ لا تشترط العدالة في العربي المروي عنه وإنمـــا تشترط في الراوي .

٣ ــ يقبل ما ينفرد به الفصيح لاحتمال أن يكون سمع لغة قديمة باد المتكلمون بها .

٤ ــ اللغات على اختلافها حجة كلها . ألا ترى أن لغة الحجازيين في إعمال (ما) ، ولغة التميميين في تركه كل منهما يقبله القياس ؟ ، فليس لك أن ترد إحدى اللغتين بصاحبتها [1] .

٥ ــ في تداخل اللغات :

إذا اجتمع في كلام الفصيح لغتان فصاعداً كقوله :

وأشرب الماء ما بي نحوهُ عطش ... إلا لأن عيونهْ سال [2] واديها

فقال (نحوهُ) بالإشباع و(عيونهْ) بالإسكان... اعتبرتا معاً، لأن العرب قد تفعل ذلك للحاجة إليه في أوزان أشعارها وسعة تصرف أقوالها ويجوز أن تكون لغته إحداهما، ثم انه استفاد الأخرى من قبيلة أخرى.. قال الأصمعي : اختلف رجلان في (الصقر) فقال أحدهما بالصاد وقال الآخر بالسين، فتراضيا بأول وارد عليهما، فحكيا ما هما فيه، فقال: «لا أقول كما قلتما، انما هو الزقر» وعلى هذا يتخرج جميع ما ورد من التداخل

---

(١) قلت : أورد ابن فارس في كتابه « الصاحبي » طائفة من هذه اللغات ثم قال: « .. وكل هذه اللغات مسماة منسوبة الى اصحابها .. وهي وان كانت لقوم دون قوم ، فانها لما انتشرت تعاورها كل .» ــ الصاحبي ص ٢٢

(٢) كذا، والذي في لسان العرب مادة «ها» : «سيل واديها» ولعلها الصواب

نحو لغة (قلى يقلى) أخذ ماضيها من لغة (قلي يقلي) ومضارعها من لغة (قلي يقلى) ومثلها (سلى يسلى) ·

٦ ــ إذا دخل دليل الاحتمال سقط به الاستدلال .

رد أبو حيان بهذه القاعدة على ابن مالك كثيراً في مسائل استدل بها ، منها استدلاله على قصر (الأخ) بقوله :

أخاك الذي إن تدعه لملمة يجبك بما تبغي ويكفيك من يبغي

فإنه يحتمل أن يكون منصوباً بإضمار فعل (الزم) .وبذا لا يصح الاستدلال بالبيت على قصر (الأخ) .

٧ ــ كثيراً ماتروى الابيات على أوجه مختلفة،ويكون الشاهد في بعض دون بعض :

روي قول الشاعر : ولاأرض أبقلَ إبقالَها

على وجه ثانٍ : ولاأرض أبقلت ِابقالها

بالتذكير مرة،وبالتأنيث مع نقل حركة الهمزة إلى التاء مرة أخرى، فان صح أن القائل بالتأنيث هو القائل بالتذكير ، صح الاستشهاد به على الجواز من غير الضرورة ؛ وإلا فقد كانت العرب ينشد بعضهم شعر بعض ، وكل يتكلم على سجيته التي فطر عليها . ومن هنا تكثر الروايات في بعض الأبيات .

٨ ــ لايحتج في اللغة العربية بكلام المولدين والمحْدثين ، فابن هرمة (ــ ١٥٠) آخر الإسلاميين المحتجُ بأقوالهم ، وبشار (ــ١٦٧)

رأس المحدثين غير المحتج بكلامهم[1].

٩ ـ لايجوز الاحتجاج بشعرٍ ولا نثر لايعرف قائله إلا إذا رواه عربي ممن يحتج بكلامه[2]، مخافة أن يكون لمولد أولمن لايوثق بفصاحته ، فمثلاً أجاز الكوفيون :

١ ـ إظهار (أن) بعد (كي) مستشهدين بقول الشاعر :

أردت لكيما أن تطير بقربتي　　فتتركها شناً ببيداء بلقع

٢ ـ وأجازوا دخول اللام في خبر لكن واحتجوا بقول الشاعر :

ولكنني من حبها لعميد

وكلا الرأيين لايثبت لأن البيت الأول مجهول القائل فلايحتج به ، والشطر الثاني لايعرف قائله ولاشطره الأول ، وما بني عليهما غير صحيح[3].

هذا خلاصة ما أتى به السيوطي من قواعد في الاحتجاج ، بعضه موضع نظر اليوم وبعضه سليم لاخلاف فيه :

---

(١) سبق هذا ص ١٩

(٢) انظر القياس في اللغة العربية للسيد محمد الخضر حسين ص ٣٨

(٣) وابن هشام لايسلم دائماً باسقاط الاحتجاج بالمجهول وهذه حجته : « ولو صح ذلك لسقط الاحتجاج بخمسين بيتاً من كتاب سيبويه فان فيه الف بيت عرف قائلوها وخمسين مجهولة القائلين » اهـ. قلت : وليكن ذلك ، وماذا فيه ؟ والمنهج الحق يقتضي هذا الاسقاط .

فأما الذي هو موضع نظر اليوم فكالقاعدة الثالثة والسابعة، لقد كان الاقدمون يسجلون كل مايسمعون حينئذ ولو لغية رديئة او لهجة ضعيفة، فكثرت الوجوه في المسألة الواحدة دون تمييز بين ما عليه اكثر العرب وما انفرد به بعضهم . والهدف اليوم التنظيم والتشذيب والاخذ بالوجه الواحد الاصح فلا يستعمل غيره إلا في الضرورات ، وخيرٌ ان يحفظ في المطولات للفائدة العلمية النظرية دون استعمال . فلئن كان هدفهم قديماً الاستكثار من المعلومات والتباهي، إن هدفنا اليوم تعميم اللغة الفصحى وتيسيرها في نظام منسق يخفف ما قد يكون عالقاً بقواعدها من تطويل وتفريع وشذوذ على قلته .

وأما الذي يجب ان يبقى منها محكماً في امتحان كل قاعدة فإسقاط الإحتجاج بما يتطرق اليه الاحتمال، وما تأخر زمان صاحبه عن زمن الاحتجاج، ومجهول القائل . ونرى اضافة القواعد الآتية :

١ ـ لايحتج للقاعدة بكلام له روايتان متساويتان في القوة ، احداهما تؤيدها والاخرى لاعلاقة لها بها ، لاحتمال ان تكون الثانية هي التي قالها المتكلم كالشاهد المتقدم في القاعدة (٧) ، وكالجر بـ(لعل) اعتماداً على احدى روايتين في بيت كعب بن سعد الغنوي :

فقلت ادع أخرى وارفع الصوت جهرة لعل أبا المغوار منك قريب (١)

والرواية الثانية : (لعل أبي المغوار) بالجر ، فترفض لاستدعائها إنشاء حكم جديد للأداة (لعل) هو الجر ، ولأن الاصل هو أولى بالاتباع وهو النصب بها .

وكذلك نرفض رواية المثل المشهور (مكره اخاك لابطل) ونقطع ان الاصل « مكره اخوك لابطل » حسب القاعدة المطردة ؛ وهي الرواية التي أثبتها وحدها الميداني صاحب مجمع الامثال .

---

(١) انظر مغني اللبيب ، مادة (لعل) وشرح شواهد المغني للسيوطي ص ٢٣٦

٢ ـ لايبنى على شاهد قبل تحريه والتوثق من ضبطه ، إذ كثيراً ماترد الشواهد في كتب النحاة محرفة ويكون موضع التحريف هو موضع الاستشهاد على القاعدة ، ولو حرر الشاهد ماكان للقاعدة مؤيد ، واليك بعض الامثلة :

أ ـ زعم بعض النحاة جواز الجمع بين « كي » و « أن » واستشهد بالشاهد المجهول القائل الذي مر آخر القاعدة التاسعة ، وبقول جميل الذي رووه بهذا النص :

فقالت : أكلّ الناس أصبحت مانحاً   لسانك كيما ان تغر وتخدعا [1]

وبالرجوع الى الديوان نجد النص :   لسانك هذا كي تغر وتخدعا

وبهذا تنهار القاعدة من أساسها إذ لاشاهد معروفاً يؤيدها .

ب ـ قالوا : ان نون التوكيد الخفيفة قدتحذف ويبقى آخر الفعل مفتوحاً دليلا عليها واستشهدوا بقول الأضبط بن قريع الذي رووه :

لاتهين الفقيرعلّك أن تر   كع يوماً والدهر قد رفعه

وهذه الرواية محرفة فالبيت من قصيدته التي مطلعها :

لكل هم من الهموم سعة   والمسي والصبح لافلاح معه

من البحر المنسرح ، وروايتهم له جعلته من البحر الخفيف ، وصحة البيت:

لاتحقرن الفقير علك أن   تركع يوماً والدهر قد رفعه

وبهذا تبقى قاعدتهم مفتقرة الى شاهد قوي .

ﺟ ـ سلم صاحب مغنى اللبيب للذين زعموا جواز حذف الفعل المنصوب بـ (كي) مع بقائها بقوله : « نعم وقع في صحيح البخاري في تفسير «وجوه يومئذ ناضرة» : [فيذهب كيما فيعود ظهره طبقاً واحداً] أي (كيما يسجد) ، وهو غريب جداً لايحتمل القياس عليه . »

وكل مافي الامر هو ماقرره ابن حجر بقوله : « الثابت في نسخ البخاري

التصريح بـ (يسجد) ، فلعل ابن هشام وقعت له نسخة بحذف [يسجد] »[1] !!

قلت : لو تحرى ابن هشام لفظ الحديث في غير نسخة لم يتوهم ماتوهم ، وإذاً لاصحة لهذا الحكم : اجتماع (كي) و (أن) على فعل واحد [2].

٣ ـ لايكتفى بالكلام الابتر اذ كثيراً مايكون داعية الخطأ في المبنى والمعنى،فيجب الرجوع الى الشاهد في ديوان صاحبه ان كان شعراً،وفي مصادره المحققة الاولى ان كان نثراً لمعرفة ماقبله ومابعده ؛ واليك المثال :

هناك شواهد شعرية قليلة فيها لغة « أكلوني البراغيث » اضطر فيها الشاعر الى مطابقة الفعل المتقدم للفاعل المتأخر في التثنية والجمع ، وقد أراد نحاة أن يخرجوا هذه اللغة التي نسبت الى بعض طيء وبعض أزد شنوءة،فأتعبوا أنفسهم في غير طائل ، لأن هذه الروايات ان صحت فهي شاذة ولغتها رديئة لايحتج بها ولم يخطيء من نبزها بلغة « أكلوني البراغيث »

لكن بعضاً من فضلاء النحاة الأقدمين توهموا فظنوا آية«وأسروا النجوى» وحديث« يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار » من هذه اللغة،وكان الذي أوقعهم في الضلالة اكتفاؤهم بجملة من آية وجملة من حديث ، أما الآية

---

(١) جعل ابن هشام هذا من الضرورة – انظر مغني اللبيب مادة (كي).

(٢) هذا وهناك رواية النحاة الكوفيين لبيت جرير شاهداً على النصب بنزع الخافض كالشمس شهرة :

تمرون الديار ولم تعوجوا   كلامكم علي اذاً حرام

وهي رواية خاطئة كان يجب ان ينبههم الى خطئها اختلاف الزمن الذي افسد المعنى (تمرون) و (لم تعوجوا) والذي قال جرير :« مررتم بالديار ولم تعوجوا » . أما القاعدة فصحيحة ولها شواهد غير هذا ، واما الاحتجاج ففاسد لتحريف الرواية – انظر ديوان جرير وشرح شواهد المغني للسيوطي ص ١٠٧

فلها أول : « اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون. لاهية قلوبهم وأسروا النجوى ، الذين ظلموا : هل هذا إلا بشر مثلكم »

فـ (الذين) ليست فاعلا لـ (اسروا) والواو في (أسروا) لاتعود إلى (الذين) كما توهموا ، بل الى (الناس) الواردة في اول الكلام ؛ أما (الذين) فهي فاعل لـ (قال) المحروفة ، كما يرد كثيراً في القرآن الكريم بإثبات المقول وحذف فعل القول ، وليس هنا مكان إيراد الشواهد الكثيرة على هذا الاسلوب القرآني المعروف .

وأما الحديث فزعموا أن واو (يتعاقبون) تعود الى (ملائكة) التي بعدها ، وليس ذلك بصحيح . فللحديث أول ذكر في موطأ مالك وغيره وفيه مرجع الواو وهذا نصه : « إن لله ملائكة يتعاقبون فيكم ، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار » .

وإذاً لاشاهد على هذه اللغة غير الضرورات الشعرية .

٤ ـ ينبغي التفريق بين مايرتكب للضرورة الشعرية ومايؤتى به على السعة والاختيار ، فان اطمأنت النفس الى بناء القواعد على الصنف الثاني ففي جعل الضرورات الشعرية قانوناً عاماً للكلام نظمه ونثره الخطأ كل الخطأ .

واليك بعض الشواهد التي تروى في كتب النحو وهي قطرة من بحر :

١ - ألم يأتيك والانباء تنمي   بما لاقت لبون بني زياد ـ قيس بن زهير العبسي

٢ - لن يخب الآن من رجائك من   حرك من دون بابك الحلقة ـ أعرابي؟

٣ - لكنني حيثما يثني الهوى بصري   من حيثما سلكوا أدنو فأنظور

٤ - وما كان حصن ولا حابس   يفوقان مرداس في مجمع ـ العباس بن مرداس

٥ - طلب الأزارق بالكتائب إذ هوت   بشبيب غائلة النفوس غدور ـ الأخطل

فزعموا اعتماداً على الشاهد الاول أن العرب قد ترفع الفعل بعد (لم)»وأن (لن) قد تجزم المضارع اعتماداً على الشاهد الثاني ، وأنه يجوز أن نشبع (فأنظر) بتوليد واو من الضمة اعتماداً على الشاهد الثالث ، وأنه يجوز منع المنوّن من الصرف اذا كان علماً[1] بناء على الشاهد الرابع والخامس الخ . . الى شواهد كثيرة ألجأت فيها الضرورة الشاعر الى خلل في نظم تراكيبه . فهذا كله خطأ ارتكب ضرورة حين كان الشعر يرتجل فلا يجوز بناء حكم عليه البتة ، بل ان مثل هذه الضرورات القبيحة غير سائغة اليوم بوجه من الوجوه لأن الشعر لا يرتجل في زماننا هكذا .

(٦)

خاتمة

الآن ، وبعدما تقدم كله ، نستطيع ان نجمل الرأي في صنيع النحاة المتقدمين حول الاحتجاج في النظرات الآتية :

١ ـ لم يصدروا في تنسيق شواهدهم عن خطة محكمة شاملة ، فأنت تجد في البحث من بحوثهم قواعد عدة ، هذه تستند الى كلام رجل من قبيلة اسد ، وتلك الى كلام رجل من تميم ،والثالثة الى كلمة لقرشي . وتجد على القاعدة تفريعاً دعا اليه بيت لشاعر جاهلي ، واستثناء مبنياً على شاهد واحد اضطر فيه الشاعر الى ان يركب الوعر حتى يستقيم له وزن البيت . ولعل عذرهم في ذلك انه ليس

(١) مذهب المرحوم ابراهيم مصطفى في كتابه احياء النحو ص ١٦٩ ، ١٧٩

لديهم نصوص مصنفة على القبائل ، فلم يعن الرواة ولا المؤلفون الاولون بأن يذكروا كلام كل قبيلة في نسق ، حتى يأتي النحوي فيستنبط قواعد كل لهجة على حدة خطوةً اولى ، ثم يبحث عن الأشيع في لهجات القبائل فيقعّد عليه قواعده . ويصدق عليهم في ذلك تماماً ما يأخذه الأستاذ احمد امين على واضعي المعاجم الذين حشروا اللغات واللغيات واللهجات والتصحيفات والضرورات معاً فتضخمت معاجمهم تضخماً زائداً « وكان الأولى ان تستبعد اللثغات ويحقق التصحيف وتترك اللهجات[1] » ، واذاً لاختصرنا حيزاً كبيراً من معاجمنا . ولرمينا بكثير من البلبلة والفوضى والاضطراب يعانيه متصفح هذه المعاجم ، الذي كثيراً ما يحار بين الأقوال والروايات المتضاربة: أيها يأخذ وأيها يدع ؟

وهذا نفسه فعله النحاة ، فلو سئلنا : على لغة اية قبيلة ينطبق نحوكم الذي تدرسونه اليوم؟ ما أستطعنا تسمية القبيلة باطمئنان ، بل نكون اقرب الى دقة اذا أجبنا أنه أسس على خليط لا نظام له مما روي على انه تكلمت به العرب .

---

(١) انظر ضحى الاسلام ٣١٩/١ . فكثيراً ما تتغاير اللهجات فتضع حرفاً مكان حرف ف « عثا و عاث » و « الشائع والشاعي » وما اليها خلاف لهجات فحسب ، لكن المدونين جعلوها مواد مستقلة فزادوا في حجم موسوعاتهم زيادة غير قليلة ، والمادة في الاصل واحدة.

وعلى أن الخليل بن احمد رحمه الله وضع بما أوتي من ذهن رياضي علمي منظم خطة قريبة ، وأخذ نفسه ـــ فيما نظن ـــ بها ، ان الذين أتوا بعده انحرفوا كثيراً عن المنهج وحشروا في بحوثهم ما قرب وما بعد ، وما صح ولم يصح ، إرادة المكاثرة والمفاخرة في العلم :

قال رجل للخليل: « أخبرني عما وضعت مما سميت عربية : أيدخل فيه كلام العرب كله ؟ » فقال « لا » فقال : « كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة ؟ » فقال : « أحمل على الأكثر وأسمي ما خالفني لغات ، »[1] .

فأنت ترى أن إمام البصريين خط للنحو خطة هي أشبه بالتشذيب منها بالتنظيم ، فقد أهدرَ كثيراً مما يتكلم به العرب لتسلم له قواعد غالبية بقدر الامكان .

وعلى قصور هذه الخطة فقد كان الخير في اتباعها وتعاهدها بالإحكام مع الزمن ، فنهج قريب يتبع بأمانة وإصلاح خير من لا نهج ، وهذا ما لم يكن مع الاسف الشديد .

٢ — لم يدرسوا الرواة وأحوالهم ومن منهم الثقة الضابط ومن منهم الوضاع والخلط ، فلم نعرف عن طبقات رواة اللغة ما عرفنا عن طبقات المحدثين ، ولا حظي فن الرواية اللغوية ببعض ما حظي به فن

«١» انظر ضحى الاسلام ٢/٢٥٩

رواية الحديث ، ومع أن بعضهم حاول تقليد المحدثين في الجرح والتعديل فكان ينص في ترجمة الخليل وابي عمرو بن العلاء مثلاً على أمانتهما وينص في ترجمة قطرب بما يشعر بكذبه ، ويشير إلى تزيّد الاصمعي .. إن صنعهم أشبه بتقليد ابتدائي لا علمية فيه .

٣ — لم يحققوا النصوص التي بنوا عليها لا سنداً ولا متناً ، أما السند فكثيراً ما تجد الشاهد في كتبهم منسوباً الى غير قائله ، وأما المتن فكثيراً ما تجده مروياً عندهم على غير الصحيح ويبنون قاعدتهم على موضع الخطأ منه[١] . وكان عليهم أن يتقصوا الروايات المختلفة ويحققوها متحرين صحيحها من زائفها ، وإذاً يستطيعون الاطمئنان الى ما يبنون عليها من قواعد .

«١» واليك أمثلة على ذلك :

١ - عرفت أنهم استشهدوا بهذين البيتين :

أردت لكيما أن تطير بقربتي فتتركها شنا ببيداء بلقع ،
فقالت أكل الناس اصبحت مانحاً لسانك كيما أن تغر وتخدعا

على جواز ورود « أن » بعد « كي » في الشعر ، وقالوا في البيت الاول « كي » أما تعليلية مؤكدة للام ، واما مصدرية مؤكدة بـ « أن » ويرى الاخفش أن « كي » حرف جر وأن الناصب للفعل كلمة « أن » اما ظاهرة كما في البيت الثاني واما مضمرة .

اما البيت الاول فلايعرف قائله كما تقدم ، ولذا لايصح الاحتجاج به ، واما البيت الثاني فروايته خطأ ، وقد رآه السيوطي نفسه في ديوان جميل ليس فيه جمع —

ويرحم الله ابن سلام إذ قال« وجدنا رواة العلم يغلطون في الشعر»

— «أن» و «كي» ورواية الديوان: لسانك هذا كي تغر وتخدعا
واذاً لا أصل لما ذكروا من جواز وضرورة وتخريج . فلا تجتمع . «أن» و « كي » في نص صحيح .

انظر معاً : مغني اللبيب لابن هشام . مادة (كي) ، و(أوضح المسالك) للمؤلف نفسه: باب نصب المضارع، وشرح شواهد المغني للسيوطي:(شواهد كي) ص ١٧٣ وشرح شذور الذهب لابن هشام ص ٣٤٧ (مطبعة الاستقامة بالقاهرة)

٢ — قال سيبويه : « ومما جاء من الشعر في الاجراء على الموضع(أي مراعاة المحل لا اللفظ في الاعراب) قول عقيبة الاسدي :

« معاوي اننا بشر فأسجح فلسنا بالجبال ولا الحديدا
أديروها بني حرب عليكم ولا ترموا بها الغرض البعيدا» ـ الكتاب ٣٤/١

وأبيات عقيبة هذا مشهورة ، كلها مجرور الآخر ومنها :

أكلتم أرضنا فجردتموها فهل من قائم أو من حصيد

واذاً لا شاهد فيها على ما أورده سيبويه . وقد حاول بعضهم الاعتذار عن سيبويه بأن مقطوعة أخرى فيها هذا البيت ، منصوبة الآخر ومنها البيت الثاني لشاعر آخر هو ابن الزبير الاسدي، ولا عذر بعض تصريح سيبويه بأن شاعره عقيبة الاسدي.

انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٤٥/١(بتحقيق احمد محمد شاكر)وخزانة الادب للبغدادي ٢٢٥/٢(طبعة السلفية) .

٣ — استشهدوا على لغة (أكلوني البراغيث) بالحديث الصحيح :

« يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ... »

واكثر ابن مالك من الاستشهاد به حتى صار يسمي هذه اللغة (لغة يتعاقبون)

ولو تحروا الشاهد لعلموا أنه مختصر من حديث مطول رواه البزار أوله :

« ان لله ملائكة يتعاقبون فيكم : ملائكة بالليل وملائكة بالنهار .. » =

ولا يضبط الشعر إلا أهله [1] .

٤ ـــ تفريطهم بقسم كبير من اللغة حين أهملوا الاحتجاج ببعض القراءات التي قرىء بها القرآن الكريم، وأهملوا الاحتجاج بالحديث النبوي وفي ذلك إهدار لجزء غيريسير من أبلغ الكلام العربي واعلاه. بل لقد أخطؤوا حين تهاونوا بكتب الامام الشافعي ومن في طبقته من الفصحاء الذين نشؤوا في بيئة سليمة ولم يتطرق الفساد الى لغتهم، وهذه إضاعة أسف لها حتى علماء المشرقيات من الأجانب ، والحق كل الحق معهم ، فقد ذهبوا الى ان « بتدوين مثل الشافعي علوم الشريعة إغناءً للغة العربية بوسائل التأدية، اكثر مما أغناها به كثير من الشعراء. وهذه الناحية ـ مع الأسف ـ اهملها علماء الشرق إهمالاً تاماً واشتغلوا بشواهد لشعراء مجهولين . فكان هذا الاشتغال عبثاً اذا قيس بذلك الإهمال » [2] .

= واذاً لا شاهد فيه وبقيت (لغة البراغيث) محتاجة الى شاهد صحيح .
ـ انظر الاقتراح للسيوطي ص ٢٢

(١) طبقات الشعراء ص ٥٠

(٢) (التطور النحوي) لبرجستراسر (أملاه في كلية الآداب بالجامعة المصرية) ص ١٣٨ . هذا وقد عرف الاقدمون للشافعي قوة سليقته وعلو كعبه في اللغة حتى وصفه عالم من أهل زمانه هو عبد الملك بن هشام صاحب السيرة (ــ ٢١٣) فقال « جالست الشافعي زماناً فما سمعته تكلم بكلمة الا (اذا) اعتبرها المعتبر لايجد كلمة في العربية أحسن منها » و « كان قوم من أهل العربية

وبما تقدم تعلم ان الصورة التي تتمثل في ذهن من يعالج النحو واللغة في كتبها القديمة غير صحيحة التعبير ولا صادقته عما كانت عليه اللغة العربية شعراً ونثراً ، وستسلّم الى حد بعيد بما ذهب اليه اسرائيل ولفنسون من ان حالة اللغة العربية عند ظهور الاسلام يجب ان تبحث في القرآن اولاً . ثم في الأحاديث ثانياً ، ثم في الأمثال ثالثاً... «ثم في الشعر الجاهلي على تحفظ»[1] .

ان ما مر بك من هذا البحث حتى الآن عن نقص في النظام والتحري في مرويات اللغويين والنحاة ، يجعلك تسلم بما ذهب اليه هذا العالم دون تردد .

=يختلفون الى مجلس الشافعي معنا ويجلسون ناحية ، فقلت لرجل من رؤسائهم : «انكم لاتتعاطون العلم فلم تختلفون معنا ؟ قالوا : «نسمع لغة الشافعي» . وتصحيح الاصمعي عليه شعر الهذليين مشهور عند الادباء ، وبحق قال ابن هشام المذكور : «لغة الشافعي يحتج بها» انظر ارشاد الاريب ١٧ / ٢٩٩ .

(١) انظر تاريخ اللغات السامية لاسرائيل ولفنسون ص٢١٣-٢١٧ (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) .

القياس

القياس

١ — من تاريخ القياس والقياسيين . ب — أثر العلوم الدينية فيه .
ج — من احكام القياس . د — العصريون والقياس .

أبرز فرق بين علم اللغة وعلم الصرف والنحو ان الأول طريقه السماع والثاني طريقه القياس ولذلك عرفوا النحو بأنه :

« علم بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب » .

وادق من ذلك في رأيي قول الكسائي :

« انما النحو قياس يُتَّبع »[1] .

اذ لست اعقل النحو الا استقراء ثم قياساً .

اما القياس نفسه هنا فحمل غير المنقول على المنقول في حكم لعلة جامعة[2] وهم يعمدون اليه اذا كان المنقول عن العرب مستفيضاً بحيث

---

(١) مطلع قصيدة له ذكرها القفطي في ترجمته — انباه الرواة ٢/٢٦٧ وانظرها في تاريخ بغداد .

وذكر الزجاجي أنه « علم قياسي ومسبار لأكثر العلوم لا يقبل الا ببراهين وحجج » الايضاح ص ٤١ .

(٢) قال ابن الانباري : مثل ان تركب قياساً في الدلالة على رفع مالم يسم فاعله فتقول :

اسم أسند الفعل اليه مقدماً عليه فوجب أن يكون مرفوعاً قياساً على الفاعل . فالفاعل : أصل مقيس عليه ، ونائبه : فرع مقيس ، والحكم الرفع ، والعلة الجامعة الاسناد . (عن الاقتراح للسيوطي ٤٧) .

يطمأن الى انه كثير في كلامهم كثرة أرادوا معها القياس عليه.

وسأتناول طرفاً من تاريخه وما أفادت العربية منه. ثم أتكلم على اركانه، ثم أختم بعمل المحدثين فيه وما يرجى للغتنا من فوائده لأيامنا هذه.

(أ)

من تاريخ القياس

استقرى مدوّنو النحو ما وصلهم من كلام العرب وراعوا الحكم السائد في الأعمّ الأغلب منه، فدققوا علله وصنفوها ثم وضعوا قوانينهم المطّردة. ولا شك في ان بعض المنقول من مختلف اللهجات يخرج على هذه القوانين، فحاول النحاة تسجيله وتذييل بعض احكامهم باستثناءات وتفريعات، وبذلوا في ذلك جهداً صادقاً حتى لا يشذّ على قوانينهم شيء ذو بال، وحتى تكون محيطة بكلام العرب على قدر الإمكان. ومع ذلك شذّت على استثناءاتهم وقيودهم بعض نوادر لاقيمة لها، وانما العبرة بما اطرد في اكثر كلامهم.

كان هناك فريقان من علماء العربية: فريق حاول قصر الناس على السماع والتزامه والجمود عليه، فلم يكتب لمذهبه البقاء لمخالفته طبائع الاشياء ولانّ من غير المعقول ان يكون كلامنا كله بمفرداته وتراكيبه وارداً عن العرب، فالعرب اذا قالت مثلاً (كتب زيد)، فإنه يجوز ان يسند هذا الفعل الى عمرو وبشر وأردشير.. الى ما لا يدخل تحت

الحصر وإثبات ما لا يدخل تحت الحصر بطريق النقل محال»[1] .

القياسيون : والفريق الثاني هم أهل القياس أصحاب مذهب « ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب ، ألا ترى أنك لم تسمع أنت ولا غيرك اسم كل فاعل ولا مفعول وإنما سمعت بعضها فقست عليه غيره[2] »، واليهم يرجع الفضل في حياة اللغة الحياة النشيطة حتى أيامنا هذه ، فقد حافظوا على روحها وتعهدوها بالغذاء فنمت وبسقت وأظلت فروعها حضارات مختلفات . ومع انتسابهم جميعاً إلى مذهب القياس يتفاوتون فيا بينهم فيه توسيعاً وتضييقاً .

---

(١) الاقتراح ص ٤٧ .

(٢) كلمة المازني وأبي علي الفارسي ـ انظر الخصائص ١/٣٥٧ ، ٢/٢٥)

قال ابو علي « اذا قلت (طاب الخشكنان) فهذا من كلام العرب لانك باعرابك اياه قد أدخلته كلام العرب ، ويؤكد هذا عندك أن ما أعرب من أجناس الاعجمية قد أجرته العرب مجرى أصول كلامها ، ألا تراهم يصرفون في غير العلم نحو (آجر ، وإبريسم ، وفرند ، وفيروزج وجميع ما تدخله لام التعريف ، وذلك انه لما دخلته اللام في نحو الديباج والفرند والسهريز والآجر أشبه أصول كلام العرب أعني النكرات فجرى في الصرف ومنعه مجراها . » (١/٣٥٧) .

الخشكنان : خالص دقيق الحنطة اذا عجن بشيرج وبسط وملىء بالسكر واللوز والفستق وماء الورد وجمع وخبز ؛ وأهل الشام تسميه المكفن . ـ تذكرة داوود ١/١٢٩.

والسهريز : ضرب من التمر ، يقال : تمر سهريز ، بالوصف والاضافة . ـ المعرب للجواليقي ١٩٩ .

لم يكن أرباب القياس على بدع من الأمر،فأصحاب اللغةأنفسهم اتسعوا في طردها وتصريفها واشتقاقها بما سبقوا به أرباب القياس أنفسهم « فان الأعرابي إذا قويت فصاحته وسمت طبيعته تصرف وارتجل ما لم يسبقه (إليه) أحد قبله »[1] هذا رؤبة وأبوه العجاج الراجزان المشهوران « إنهما قاسا اللغة وتصرفا فيها وأقدما على ما لم يأت به من قبلهما[2] » ؛ «وحكي أنهما كانا يرتجلان ألفاظاً لم يسمعاها ولا سبقا اليها[1] » ومن يتصفح شعر الراجزين يجدمصداق هذاالقول.

ونحن نجد النزعة إلى تعميم القياس قديمة من أيام الخليل ، كما نجد إلى جانبها نزعة محافظة معتدلة يمثلها أمثال ابن قتيبة ، فقد ذهب في مقدمة كتابه (الشعر والشعراء) إلى أنه ليس لمتأخر الشعراء « أن يقيس على اشتقاقهم فيطلق ما لم يطلقوا»[3] واستشهدلذلك برأي الخليل فقد ذكر أن الخليل بن أحمد أتاه رجل فأنشده :

ترافع العزُّ بنا فارفَنْعَعا

فقال الخليل : « ليس هذا شيئاً .[4] » فقال الرجل : كيف جاز للعجاج أن يقول :

تقاعس العزُّ بنا فاقْعَنْسَسَا

(١) الخصائص ٢/٢٥ .

(٢) الاقتراح للسيوطي ص ٥٣ .

(٣) الشعر والشعراء ص ٢٣ تحقيق وشرح احمدمحمد شاكر (القاهرة ١٣٦٤هـ).

(٤) وقد اعتذر ابن جني – وهو من رؤوس مدرسة القياس – لمنع =

ولا يجوز لي ؟!

ويروى عن بشار أنه كان يقيس ما لم يرد على ما ورد فرأى العرب صاغت (فعَلى) وصفا فقالت : جمَزَى من (الجمز) وهو السرعة فقاس هو ايضاً (فعلى) فقال :

الآن أقصر عن سميّة باطلي   وأشار بالوَجَلى علي مشير

وقال :

على الغزلى مني السلام فربما   لهوت بها في ظل مخضلة زهر

فعابوه وقالوا « لم يسمع من العرب وجَلى ولا غزَلى »[1] وقع هذا وأمثاله في المئة الثانية للهجرة، فأصبح من الطبيعي أن ينشأ حول القياس

الخليل بعذر فني ، ذلك ان علة المنع كون لام الفعل حرف حلق وتكرير = حرف الحلق مستنكر عندهم مستثقل — (انظر الاقتراح للسيوطي ص ٥٣) وقال ابن جني أيضاً : « العرب لم تبن هذا المثال مما لامه أحد حروف الحلق . (انما هو مما لامه حرف نموي وذلك نحو اقعنسس واسحنكك واكلندد واعفنجج فلما قال الرجل للخليل (فارفنعما) أنكر ذلك من حيث رأينا » — الخصائص ٣٦٢/١) — اكلندد : غلظ واشتد ، اعفنجج : أسرع .

(١) الموشح للمرزباني ص ٢٤٦ ، وانظر محاضرة الاستاذ احمد امين في مجمع اللغة العربية في دورة ١٩٤٩ (مدرسة القياس في اللغة) مجلة مجمع اللغة العربية ج ٧ نقل ابن السكت في كتابه (المقصور والممدد) مايلي :

قال الاصمعي : « لم اسمع (فعلى) الا في المؤنث ، الا في بيت لأمية بن ابي عائذ في المذكر :

كأني ورحلي اذا رعتها   على جمزى جازىء بالرمال » — المزهر ٧١/٢ الحمار الجمزى : السريع والجازىء : المكتفي .

أخذ ورد بين المجيزين والمانعين أو بين المجددين والمحافظين ، وأن ينتهي هذا الجدل بنشوء مدرسة للقياس لها رسومها ونظمها، حاولت فرض سيطرتها حتى على أصحاب اللغـــة فخطؤوا بعض الشعراء الجاهليين والاسلاميين وحكموا على أبيات بالشذوذ لعدم انطباقها على قواعدهم ، وما بلاء الفرزدق بابن أبي اسحاق ببعيد عنك فينسى[1] ولا خبر عيسى بن عمر ، وعيسى هذا ذكروا انه كان ينزع إلى النصب إذا اختلفت العرب ... وضع كتابه على الاكثر (الأشيع) وبوبه وهذبه ، وسمى ما شذ عن الاكثر لغات »[2] وأن ابن أبي اسحاق ـــ على ما قال ابن سلام ـــ « أول من بعج النحو ومد القياس وشرح العلل، وكان معه أبو عمرو بن العلاء ، وكان بن أبي اسحاق أشد قياساً وابو عمرو أوسع علماً بكلام العرب ولغتها وغريبها »[3] وخير مايمثل اتجاهه جوابه حين سأله يونس : « هل يقول أحد : الصويق — يعني السويق ؟ » قال : « نعم ، عمرو بن تميم تقولها . وما تريد إلى هذا ؟ عليك بباب من النحو يطرد وينقاس . » وهذه عناية بالقياس تلفت النظر إلى الذهنية القياسية التي وجدت منذ القديم ، وابن أبي اسحاق هذا هو الذي قال فيه يونس « لو كان في الناس اليوم أحد لا يعلم إلا علم ابن ابي اسحاق يومئذ لاضحك منه. ولو كان فيهم من له ذهنه ونفاذه

(١) انظر ص ٦٠ من هذا الكتاب. (٢) طبقات النحويين واللغويين ص ١٥.
(٣) بغية الوعاة ص ٢٨٢

ونظر نظره لكان اعلم الناس »[1] .

كان أهم الأعلام في هذه المدرسة حينئذ الخليل وتلميذه سيبويه وكان من لطيف المصادفات ان تعاصر هذه المدوسة مدرسة أخرى في الفقه تشابهها هي مدرسة الرأي التي رفع بنيانها ابو حنيفة النعمان وتلاميذه . ولا غرابة في ذلك فالقوم حينئذ كانوا مدفوعين بحكم الضرورة إلى تأسيس بنيانهم الفكري تلبية لحاجات الحضارة إذ ذاك ، فقد وضعت في هذا الزمن أسس العلوم ومناهجها ، وانفرد في كل فن الاختصاصيون فيه يدفعون به إلى الأمام ليساير حضارة لا يحظى بخيرها متخلف .

* * *

من قياس الخليل وسيبويه :

لم يكن الخليل اول القيّاسين في النحو كما لم يكن ابو حنيفة اول القيّاسين في الفقه ، بل سبق كلاً من شيوخه من ضرب في القياس بسهم ، لكن كان الخليل فيهم كما قال ابن جني : « سيد قومه وكاشف قناع القياس في علمه »[2] وإذا ذكرت أنه واضع اساس المعاجم وله اول معجم الف في العربية ، وانه بخصب ذهنه ابتكر العروض لقياس الشعر ، لم تستكثر ان يكون لهذا الذهن تلك المرانة المولدة في النحو ،

---

(١) إنباه الرواة ٢/٢٧٥ ، ١٠٥ ، ١٠٨ وطبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ١٥ وطبقات النحويين واللغويين ص ٢٦ .

(٢) الخصائص ١/٣٦١ .

بحيث يرجع اليه الفضل في اظهار معالم القياس ووضع رسومه ومناهجه، وتجد في كتاب سيبويه انماطاً كثيرة من قياسه مبعثرة في ابواب شتى. واليك نمطاً من صنيعه: نسبت العرب الى (تهامة) فقالت تهامي على القياس و (تهامٍ) على غير القياس كما قالت (شامي وشآم) وجعلوا الف (تَهام) بدلاً من احدى ياءي النسب، قال ابن جني: «فان قلت: إن في تهامة الفاً فلِمَ ذهبت الى ان الألف في تهام عوض من احدى الياءين؟» فقال: «قال الخليل في هذا: انهم كأنهم نسبوه الى (فَعْل او فَعَل) وكأنهم فكوا صيغة تهامة فأصاروها الى (تهْم او تهَم) ثم اضافوا (اي نسبوا) فقالوا: تهام.» وانما ميّل الخليل بين (فعْل وفعَل) ولم يقطع بأحدهما لأنه قد جاء هذا العمل في هذين المثالين جميعاً وهو (الشأم واليمن). وهذا الترجيم الذي أشرف عليه الخليل ظناً قد جاء به السماع نصاً: انشدنا ابو علي: قال انشدنا احمد بن يحيى (ثعلب):

أرقني الليلة برق بالتهَم ... يالك برقا من يشِمه لا ينم

فانظر الى قوة تصور الخليل الى ان هجم به الظن على اليقين، فهو المعني بقوله:

(الألمعيْ الذي يظن بك الظـ ... ـنّ كأنْ قد رأى وقد سمعا)[1]

وسيمر بك نمط من قياس سيبويه عندما نصل الى الفقرة (ح).

استمر القياس على الطريق التي لحبها الخليل وسيبويه حتى كانت

---

(١) الخصائص ٢/١١١.

المئة الرابعة للهجرة فبلغ ذروة مجده بأبي علي الفارسي وتلميذه (ابن جني) ونهض به هذان الامامان نهضة لم يحظ بمثلها قبلهما ولا بعدهما حتى اليوم .

من قياس الفارسي :

فأما الفارسي (— بغداد ٣٧٧) فقد عرف فارس والعراق والشام واقام طويلاً ببلاد الشام وكان اكثر مقامه بحلب في بلاط سيف الدولة وطار صيته في النحو واخذ في القياس يفكر فيه ليله ونهاره، حتى استقام له منه مذهب وسع الشقة بين الجامدين على السماع وانصار القياس . والظاهر أن عشق القياس بهره وأخذ على فكره السبل ، فصار يمتحن به كل مسألة تعرض له ، وعلى رسومه يصدر فتاواه ويعتقد آراءه، وقد كان « الخطأ في خمسين مسألة في اللغة أحب إليه من الخطأ في مسألة واحدة من القياس » كما قال لتلميذه ابن جني[1] . وكذلك كان رحمه الله ، فقد حظيت مدرسة القياس من ثمرات تفكيره بفيض غزير حتى قال ابن جني « أحسب أن أبا علي قد خطر له وانتزع من علل هذا العلم ثلث ماوقع لجميع أصحابنا »[2] وليس هذا بالقليل . ولعل خير مايترجم العالم في مثل مقامنا هذا معرفة نمط من منهجه وإنتاجه : ذكر ابن جني أنه شاهد أبا علي غير مرة إذا أشكل عليه الحرف الفاء أو العين أو اللام ، استعان على علمه ومعرفته بتقليب أصول المثال الذي ذلك الحرف فيه،

---

(١) سنة ٣٤٦ بحلب — انظر الخصائص ٢/٨٨ . (٢) ١/٢٠٨

فهذا أغرب مأخذاً مما تقتضيه صناعة الاشتقاق[1] ونعت هذه الطرائق بأنها « حزنة المذهب والتورد لها وعر المسلك » ... وقد كان أبو علي رحمه الله يراها ويأخذ بها، ألا تراه غلّب كون لام (أُثْفِيّة) - فيمن جعلها أفعولة - واواً على كونها ياء (وإن كانوا قد قالوا « جاء يثفوه (يتبعه) ويثفيه ») بقولهم (جاء يثفه) قال : فيثفه لا يكون إلا من الواو..» فلما وجد فاء (وثف) واواً قوّى عنده في (أثفية) كون لامها واواً فتأنّس اللّام بموضع الفاء على بعد بينهما »[2] « ومن لطيف ما ألقاه — رضي الله عنه — علي أنه سألني يوماً عن قولهم (هاتِ لا هاتيتَ) فقال : « ماهاتيت ؟ » فقلت : « فاعلت ، فهات من هاتيت كعاطِ من عاطيت » فقال : « أشيء آخر ؟ » فلم يحضر إذ ذاك ، فقال : « أنا أرى فيه غير هذا.. يكون فعْليت » قلت : « مه ؟ » قال : « من الهوْتة وهي المنخفض من الأرض. وكذلك (هِيت) لهذا البلد ، لأنه في منخفض من الأرض ، فأصله (هوْتيت) ثم أبدلت الواو التي هي عين (فعليت) وإن كانت ساكنة .. فصار هاتيت وهذا لطيف حسن »[3].

كان ابن جني يقرأ على الفارسي كتاباً للمازني ، فلما جاء ذكر قول أبي عثمان في الالحاق المطرد : « إن موضعه من جهة اللام نحو قَعْدَد ،

(١) الخصائص ١/١٢ (٢) ١/١١
(٣) الخصائص ١/٢٧٧

ورمدد وشملل وصعرر . وجعل الإلحاق بغير اللام شاذاً لايقاس عليه مثل : جوهر و بيطر وجدول ... الخ » قال أبو علي :

« لوشاء شاعر أو ساجع أو متسع أن يبني بإلحاق اللام اسماً وفعلاً وصفة لجاز له ولكان ذلك من كلام العرب ، وذلك نحو قولك : خَرجج أكرم من دخْلل ، وضربب زيد عمراً ، ومررت برجل (ضربب وكرمم ونحو ذلك) فاعترضه ابن جني قائلاً : (أفترتجل اللغة ارتجالاً ؟!) قال : « ليس بارتجال ، لكنه مقيس على كلامهم، فهو إذاً من كلامهم : ألا ترى أنك تقول : (طاب الخشكنانُ) فتجعله من كلام العرب وإن لم تكن العرب تكلمت به هكذا ، فرفعك إياه كرفعها ، ماصار لذلك محمولاً على كلامها ومنسوباً إلى لغتها »[1] .

وسأله ابن جني يوماً (هل يجوز لنا في الشعر من الضرورة ماجاز للعرب أولاً ؟) فقال: « كما جاز أن نقيس منثورنا على منثورهم، فكذلك يجوز لنا أن نقيس شعرنا على شعرهم ، فما أجازته الضرورة لهم أجازته لنا ، وما حظرته عليهم حظرته علينا ، واذا كان كذلك فما كان من أحسن ضروراتهم فليكن من أحسن ضروراتنا ، وما كان من أقبحها عندهم فليكن من أقبحها عندنا ، وما بين ذلك بين ذلك »[2].

وسأله أيضاً عن إثبات النون في قول الشاعر :

أنْ تقرآن على أسماء ويحكما   مني السلام وألا تشعرا أحداً

---

(١) ٣٥٨/١ (٢) ٣٢٩/١

فقال : « أن مخففة من الثقيلة ، وأولاها الفعل بلا فصل للضرورة أيضاً ، فهذا شاذ عن القياس والاستعمال جميعاً ... لأن الغرض فيما ندونه من هذه الدواوين ونقننه من هذه القوانين إنما هو ليلحق من ليس من أهل اللغة بأهلها ، ويستوي من ليس بفصيح ومن هو فصيح ، فاذا ورد السماع بشيء لم يبق غرض مطلوب وعدل عن القياس الى السماع »[1].

وذهب أبعد من ذلك فكان يرى رسم الألف اللينة ألفاً دائماً سواء أكان أصلها واواً أم ياء ، وعلة ذلك عنده أن الأصل أن يطابق الرسم اللفظ[2] .

وبعد فسيمر بنا كثير من آراء الفارسي في مواضع شتى ، وسنعجب كل الاعجاب بهذا الذهن المنهجي الغواص وسنقرُّ أن ابن جني لم يكن إلى المبالغة حين قال فيه بعد أن نقل بعض تخريجاته :

« ولله هو ! وعليه رحمته ، فما كان اقوى قياسه . وأشد بهذا العلم اللطيف الشريف أنسه ! فكأنه إنما كان مخلوقاً له . وكيف لا يكون كذلك وقد اقام على هذه الطريقة مع جلة أصحابها وأعيان شيوخها سبعين سنة ، زائحةً علله ، ساقطة عنه كلفه ، وجعله همه وسَدمه ، لا يعتاقه عنه ولد ولا يعارضه فيه متحر ، ولا يسوم به مطلباً ولا يخدم

(١) الضرائر ٢٧٣ نقلا عن شرح تصريف المازني . قلت : ونريد اليوم عكس ما كان يريد في القرن الرابع ، نريد إهمال اللغيات وطرد القياس ولن يضيع بذلك شيء ذو بال .

(٢) المطالع النصرية ص ١٢٤ نقلا عن المسائل الحلبية للفارسي .

به رئيساً إلا بآخرة ، وقد حط من أثقاله وألقى عصا ترحاله »[1].

وانظر رويته وتقليبه الأمر على وجوهه المختلفة وعدم مبادرته الى القطع في مسائل العلم حين عرض لقضية نظرية من قضايا فقه اللغة: أيهما أسبق مرتبة في الوجود الاسم او الفعل ؟ قال ابن جني :

« اعلم ان ابا علي كان يذهب الى ان هـذه اللغة ، ما سبق منها ثم لحق به ما بعده ، انما وقع كل صدر منها في زمان . وان كان تقدم منها شيء على صاحبه فليس من الواجب ان يكون المتقدم على الفعل الاسم ولا ان يكون المتقدم على الحرف الفعل وان كانت رتبة الاسم مقدمة في النفس، ومن جهة القوة والضعف ان يكون الاسم والفعل قبل الحرف.

وإنما يعني القوم بقولهم (إن الاسم أسبق من الفعل) أنه أقوى في النفس وأسبق من الفعل في الاعتقاد لا في الزمان . وأما في الزمان فيجوز أن يكونوا قدموا عند التواضع الاسم قبل الفعل ، ويجوز أن يكونوا قدموا الفعل ، وكذلك الحرف ؛ وذلك أنهم وزنوا حينئذ أحوالهم وعرفوا مصاير أمورهم ، فعلموا أنهم محتاجون الى العبارات عن المعاني وأنها لا بد لها من الأسماء والأفعال والحروف ، فلا عليهم بأيها بدؤوا لأنهم أوجبوا على أنفسهم أن يأتوا بها جُمَع إذ المعاني لا تستغني عن واحد منهن »[2].

(١) الخصائص ١/٢٧٦ . السدم : الحرص واللهج بالشيء ، وفي الحديث (من كانت الدنيا همه وسدمه جعل الله فقره بين عينيه .) ـ تاج العروس.

(٢) الخصائص ١/٤٣٠

من قياس ابن جني :

اما اذا وصلنا الى ابن جني فقد تبوأنا ذروة القياس وفلسفته . لقد كان أعلى علماء العربية كعباً في جميع عصورها ، واغوصهم عامة على اسرار العربية ، وانجحهم في الاهتداء الى النظريات العامة فيها. وكتابه (الخصائص)لايزال محط اعجاب علماء العرب والغرب على السواء، وحسبك ان ابن جني هو مبتدع نظرية الاشتقاق الكبير ومؤسس علم فقه اللغة على ما يحسن ان يفهم عليه هذا العلم اليوم ، اما التصريف فهو امامه دون منازع ، وقلما تقرأ كتاباً فيه ولا يكون ابن جني مرجع كثير من مسائله . وكتابه (سر الصناعة) من خير ما حفظ الزمان من هذا التراث ، ومما يؤسف له انه لا يزال ينتظر إنهاء الطبع حتى اليوم .

ولد بالموصل من مملوك رومي لسليمان بن فهد الأزدي الموصلي وتوفي ببغداد سنة (٣٩٢ ﻫ) . صحب استاذه الفارسي اربعين سنة ، وعاش مدة طويلة ببلاط سيف الدولة بحلب حيث املى المسائل الحلبية، ونشأت هناك بينه وبين المتنبي صداقة اساسها إعجاب كل منهما بمواهب الآخر ، وكان من نتائج ذلك انه شرح ديوان المتنبي ودافع عنه هجمات النقاد ، وان المتنبي كان يقول فيه : « هذا رجل لا يعرف قدره كثير

من الناس » . ويقول « ابن جني أعرف بشعري مني ! »[1].

ونحن نتعرف الى منهجه في القياس من كتابه (الخصائص) الذي يدور على الغوص على اسرار اللغة الشاملة، ويطرد القياس ما استطاع الى ذلك سبيلاً ، وستجد اثر الفارسي في تلميذه بارزاً في هذا الكتاب، وان هذا التلميذ الذي لقن هذا المذهب عن استاذه قد مضى به بعيداً وتقدم الى الأمام مسافات شاسعة ، ولعل الحافز له على تأليفه سمو همته الى جعل اصول للنحو كأصول الدين ، فقد جاء في مطلع كتابه قوله « لم نر احداً من علماء البلدين تعرض لعمل اصول النحو على مذهب اصول الكلام والفقه »[2].

ابن جني كثير الأنس بالتجربة اللغوية يقلبها على وجوهها المختلفة ويكثر التفكير فيها ، ثم يقابل بين اللغات التي يعرفها ليكون حكمه الشامل في اللغة العربية حين يرده الى طبيعة الحس صحيحاً الى حد بعيد ، والظاهر انه يعرف الفارسية فقد عرض لها في حديثه عن اجتماع الساكنين ، قال :

« ومن طريف حديث اجتماع السواكن شيء وان كان في لغة العجم فان طريق الحس موضع تتلاقى عليه طبائع البشر ، ويتحاكم

(١) انظر ترجمته في ارشاد الاريب المعروف بمعجم الادباء لياقوت .
(٢) الخصائص ٢/١

اليه الأسود والأحمر ، وذلك قولهم (آرْد) للدقيق و (ماسْت) للبن ، فيجمعون بين ثلاثة سواكن . الا انني لم أر ذلك الا فيما كان ساكنه الأول الفاً وذلك ان الألف لما قاربت بضعفها وخفائها الحركة صارت (ماست) : كأنها (مست)»[1].

وعرض لأمر هام دقيق وهو ما يفيدنا اياه رؤية وجه العربي وجملة حاله حين يتكلم ، وان رواية كلامه مجرداً قد يفوّت علينا من مقصوده شيئاً ذا بال :

«فليت شعري اذا شاهد ابو عمرو وابن ابي اسحاق ويونس وعيسى ابن عمر والخليل وسيبويه وأبو الحسن وأبو زيد وخلف الأحمر والأصمعي ومن في الطبقة والوقت من علماء البلدين ، وجوه العرب فيما تتعاطاه من كلامها وتقصد له من أغراضها ، ألا تستفيد بتلك المشاهدة وذلك الحضور مالا تؤديه الحكايات ولا تضبطه الروايات»[2] ونحن نعرف بركة هذا الغوص في كثير من النصوص التي يختلف فيها العلماء لورودها مجردة من الاشارة إلى لهجة المتكلم أو حاله ٠ ترد الجملة عن العرب فيجعلها بعضهم تقريراً وبعضهم استفهاماً حذفت أداته ، وبعضهم استفهاماً أريد به الإنكار والتهكم .. الخ ولو ورد مع

(١) الخصائص ١/٩٠ وانظر بقية البحث حتى ص ٩٢ .
(٢) الخصائص ١/٢٤٨

النص حال المتكلم لا نقطع الخلاف[1].

والطريف أن ابن جني يورد بعد كلامه هذا أمثلة كثيرة وينتهي من هذا الباب إلى الإبراء على أن العرب أرادت من العلل والأغراض ما يذكره النحاة تماماً، يقول في آخر باب (أن العرب قد أرادت من العلل والأغراض ما نسبناه اليها وما حملناه عليها)[2].

«سألت الشجري يوماً فقلت: «يا أباعبد الله فكيف تقول: (ضربت أخاك؟) فقال: «كذاك» فقلت: أفتقول: ضربت أخوك؟ فقال: لا أقول (أخوك) أبداً. فقلت: فكيف تقول: (ضربني أخوك)؟ فقال: «كذاك» فقلت: ألست زعمت أنك لا تقول (أخوك) أبداً؟ فقال: «أيش هذا؟! اختلفت جهتا الكلام». فهل

(١) كما حصل في بيت عمر بن أبي ربيعة:

ثم قالوا: «تحبها» قلت: بهراً عدد الرمل والحصى والتراب

فذهب قوم إلى أن (تحبها) استفهام حذفت منه الأداة وقال آخرون: بل هي خبر، ولو سجلوا نبرة الشاعر حين الإنشاد لم يقع خلاف.

وأدق من ذلك في نظري بيت الكميت:

طربت وماشوقاً إلى البيض أطرب ولا لعباً مني وذو الشيب يلعب؟

فقد قرروا أن عجز البيت استفهام حذفت أداته والقصد من الاستفهام الإنكار، وأذهب إلى أنه خبر لا استفهام، وذلك أبلغ فإن كان ذو الشيب يلعب أحياناً، وهو أمر واقع، فإني في هذا المقام بعيد عن اللعب. ولو نقلوا لهجة الشاعر لحسم الأمر. ـ انظر مغني اللبيب: مادة الهمزة.

(٢) ص ١/٢٥٠

هذا في معناه إلا كقولنا نحن : صار المفعول فاعلاً . وإن لم يكن هذا اللفظ البتة فإنه هو لامحالة ».

ثم جعل ابن جني قول النبي لبني غَيّان (بل أنتم بنو رَشْدان) بمنزلة قول أهل الصناعة : إن الألف والنون زائدتان ، والنبي وإن لم يتفوه بهذا قد صدقه بفعله حين اشتق من الرشد : رشدان. «وكذلك قولهم : « إنما سميت هانئاً لتهنأ »[1] كقول النحاة : إن الألف زائدة للدلالة على من قام به الفعل »، فعل ابن جني هذا كله ليقول : إن العلل النحوية والقياس شيء أرادته العرب وفعلته وإن لم تنطق بمصطلحاته .

والذي يعجب حقاً في ابن جني مزية الشمول في نظراته ، فان غوصه على السر أداه إلى أن يجمع في حكم واحد ما لا يجمعه النحاة عادة لعدم انتباههم اليه ، فقد جمع نصب جمع المؤنث السالم والمثنى وجمع المذكر السالم في علة واحدة فقال :

« واعلم أن العرب تؤثر من التجانس والتشابه وحمل الفرع على الأصل ما إذا تأملته عرفت منه قوة عنايتها بهذا الشأن وأنه منها على أقوى بال ، ألا ترى أنهم لما أعربوا بالحروف في التثنية والجمع الذي على حده ، فأعطوا الرفع في التثنية الألف . والرفع في الجمع الواو ، والجر فيهما الياء ، وبقي النصب لا حرف له فيماز به ، جذبوه إلى

---

(١) ص ٢٥١/١ ، قلت : وينظر الى هذا أيضاً القول المشهور :
« من علّق تميمة فلا أتمّ الله له ، ومن علّق ودعة فلا ودع الله له » .

الجر فحملوه عليه دون الرفع .. ثم لما صاروا إلى جمع التأنيث حملوا النصب أيضاً على الجر فقالوا ضربت الهندات كما قالوا مررت بالهندات... فدل دخولهم تحت هذا ــ مع أن الحال لا تضطرهم اليه ــ على ايثارهم واستحبابهم حمل الفرع على الأصل وإن عري من ضرورة الأصل »، «ومن ذلك حملهم حروف المضارعة بعضها على حكم بعض في نحو حذفهم الهمزة في نكْرم وتُكرم ويُكرم لحذفهم إياها في أُكرم لما كان يكون هناك من الاشتقاق لاجتماع الهمزتين في نحو أؤكرم ..)[1] .

حذا ابن جني حذو استاذه الفارسي بل شآه في تعميم القياس وتوسيع طرق الاشتقاق وكان يقول : (مسألة واحدة من القياس أنبل وأنبه من كتاب لغة عند عيون الناس[2]).

ولما عرض للابدال وذكر لغات (فُسطاط ، فُستاط ، فُسّاط) وان الجمع فيها (فساطيط وفساسيط) فقط وذهابهم إلى أن (التاء) في (فستاط) بدل من الطاء أو السين ، رجح ابن جني كونها بدلاً من السين بقوله : (إذا حكمت بأنها بدل من سين (فساط) ففيه شيئان جيدان : أحدهما تغيير ثاني المثلين وهو اقيس من تغيير الأول من المثلين لأن الاستكراه في الثاني يكون لا في الأول . والآخر أن

---

(١) الخصائص ١/١١١ وانظر مزية الشمول عنده في باب (ترافع الاحكام) ٢/١٠٨ ففيه عجائب .

(٢) ٨٨ ، ٨٧ .

السينين في (فساط) متلقيتان والطاءين من (فسطاط) منفصلتان بألف بينهما ، واستثقال المثلين ملتقيين أحرى من استثقالهما متفرقين ، فعلى هذا الاعتبار ينبغي ان يلقى ما يرد من حديث الإبدال)[1] .

وقد اراد ان يشرح كتاب يعقوب بن السكيت في (القلب والإبدال) على هذا النمط المنهجي لأن معرفة (هذه الحال فيه أمثل من معرفة عشرة أمثال لغته[1] ، كما قال

لم يتخذ ابن جني القياس مذهباً لنفسه فحسب ، بل كان يغري به ويدعو اليه ويحض عليه ويبيح فيه الارتجال فيقول : (للانسان ان يرتجل من المذاهب ما يدعو اليه القياس ما لم يلو بنص او ينتهك حرمة شرع . »[2] حتى إذا أداك القياس إلى ما لم تنطق به العرب قط فليس لك ان ترمي به ، بل تعده «لشاعر مولداو لساجع اولضرورة، لأنه قياس على كلامهم[3] » .

والاساس عنده في القياس الاعتبار المعنوي فهو يرجح القياس المعنوي على القياس اللفظي ، بل يذهب إلى « ان القياس اللفظي إذا تأملته لم تجده عارياً من اشتمال المعنى عليه ، ألا ترى انك إذا سئلت عن (إنْ) من قوله :

ورجّ الفتى للخير ما إن رأيته   على السن خيراً لا يزال يزيد[4]

---

(١) الخصائص ٢/٨٨،٨٧   (٢) الخصائص ١/١٨٩   (٣) الخصائص ١/١٢٦

(٤) البيت للمعلوط القريعي

فإنك قائل : دخلت على (ما) وإن كانت (ما) ها هنا مصدرية لشبهها لفظاً بما النافية .. وشبه اللفظ بينهما يصيّر (ما) المصدرية إلى أنها كأنها (ما) التي معناها النفي . أفلا ترى أنك لو لم تجذب إحداهما إلى أنها كأنها بمعنى الأخرى لم يجز لك إلحاق (إن) بها . فالمعنى إذاً أشيع وأسير حكماً من اللفظ ، لأنك في اللفظي متصور لحال المعنوي، ولست في المعنوي بمحتاج الى تصور حكم اللفظي »[1] .

ومن أعود بحوثه على العربية بالخير والنماء لو أن هناك من يفيد منه المبحث الذي ابتدعه وهو (الاشتقاق الكبير) .البحث الذي قال فيه آدم متز: « إنه لايزال يؤتي ثمره الى اليوم، ولم يكن لعلماء اللغة من العرب انتاج أعظم منه»[2] وسنخصه بالذكر عندما نعرض للاشتقاق ، على أن له أيضاً بحوثاً كثيرة الفائدة في (الخصائص) منها بحث خلاف الألفاظ مع تقارب المعاني المشتقة[3]، وهو هام جداً يصح أن يعتبر اساساً ل (فقه اللغة)، فقد أوضح فيه مذهبه ودعمه بأمثلة كثيرة، ورسم له في آخره نهجاً شاملا لمن يريد التوسع على طريقته . ولو ترسم من أتي بعده خطاه لكان لنا اليوم في (فقه اللغة) تراث قيم جدا .

---

(١) الخصائص : باب مقاييس العربية ١/١١٠

(٢) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع ١/٣٣٠ لآدم متز .

(٣) انظر الخصائص ٢/١١٣

هذا ، واذا أنت صفحت كتاباً من كتب الطبقات في النحو ومرت بك مئات من تراجم النحويين، استطعت بعد امعان قليل أن تلم بما كان للقياس من خطر عند القوم حتى ليتفرد واحد في المئة فيعرف به فاذا ترجموا له نصوا على امتيازه هذا ، وتلك ملكة لم تتوفر كاملة إلا لأعلام قليلين جداً ، فما أقل ماتجد أمثال قولهم في ترجمة ابن أبي اسحاق الحضرمي .. « كان .. شديد التجريد للقياس » ويفاضلون بينه وبين أبي عمرو بن العلاء فيقول السيرافي : « ابن أبي اسحق أشد تجريداً للقياس وأبو عمرو أوسع علماً بكلام العرب ولغاتها »[1] ، وفي ترجمة يونس : « ليونس قياس في النحو ومذاهب يتفرد بها »[2] .

وفي الكلام على مؤرّج السدوسي يروون قوله : « قدمت من البادية ولا معرفة لي بالقياس وانما معرفتي قريحتي ، وأول ما تعلمته : في حلقة أبي زيد »[3] ، وفي ترجمة أبي طالب أحمد بن بكر العبدي : « .. وكان قيما بالقياس »[4] .

---

(١) بغية الوعاة ص ٢٨٢
(٢) » ص ٤٢٦
(٣) » ص ٤٠٠
(٤) » ص ١٢٩

(ب)

أثر العلوم الدينية في القياس اللغوي

لاشك في أن الباعث الأول لنشأة العلوم العربية هو الدين الجديد الذي أتاهم به محمد بن عبد الله ﷺ : فاهتمامهم بأحكامه حفز على تدوين الفقه والحديث ثم نشأة العلوم المتعلقة بهما ، وعنايتهم بالقرآن الكريم صرفتهم الى الاهتمام بقراءاته وتفاسيره وتاريخه ، وذلك حملهم على ضبط اللغة وإحكام قواعدها . ولم تنقض المئة الثانية حتى كان للفقه كتبه ومذاهبه وأصوله ، كما كان للدين أيضاً كتبه وجدله وأصوله ومتكلموه وفرقه . دوّن أولاً الفقه وأصوله والحديث. ثم جاء النحو يتقدم رويداً رويداً ، وبدأ يدوّن وتنسق أبوابه وفصوله ،ثم جاءت بعد الطبقة الأولى طبقات وتميزت المذاهب فيه بعضها من بعض،ثم كان له أصوله أيضاً .

يقر النحاة بأنهم احتذوا في أصولهم أصول الفقه عند الحنفية خاصة، فهذا ابن جني يصرح فيقول :

« ينتزع أصحابنا العلل (من كتب محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة) لأنهم يجدونها منثورة في أثناء كلامه ، فيجمع بعضها الى بعض

بالملاطفة والرفق »[1] بل إنه هو نفسه يعقد باباً في الخصائص يثبت فيه « أن علل جل النحويين وأعني بذلك حذاقهم المتقنين لا ألفافهم المستضعفين ، أقرب الى علل المتكلمين منها الى علل المتفقهين ، وذلك أنهم انما يحيلون على الحس ويحتجون فيه بثقل الحال او خفتها على النفس . . الخ »[2] .

هذا في المئة الرابعة،واستمر الحال بعده فهذا كمال الدين بن الأنباري من أهل المئة السادسة يضع كتابه (لمع الأدلة) ليكون للنحو بمثابة(علم الأصول) للفقه ، عقد فيه فصولاً عدة للقياس وأنواعه[3] كما كان فعل علماء الفقه وأصوله ، ثم جاء السيوطي في المئة العاشرة يؤلف كتاب (الاقتراح) ويذكر أنه : « بالنسبة الى النحو كأصول الفقه بالنسبة الى الفقه...ورتبته على نحو أصول الفقه في الابواب والفصول والتراجم[4] وقد ذكر ابن الأنباري أنه ألحق بعلوم الأدب « علمين وضعناهما : علم الجدل في النحو وعلم أصول النحو ، فيعرف به القياس وتركيبه

---

(١) الخصائص ١/١٦٣

(٢) ١/٤٨ وفيه يورد امثلة ومقايسات ، منها تعليله اختصاص الفاعل بالرفع دون النصب لان للفعل فاعلاً واحداً ومفعولات متعددة احياناً ، فخصوه بالرفع لقلته وخصوا المفعول بالنصب لأنه أخف على ألسنتهم « ليقل في كلامهم مايستثقلون » وانظر بعد ذلك كلامه على : ميزان ، موسى .

(٣) نشرناهذا الكتاب سنة ١٩٥٧ وطبع بمطبعة الجامعة . وكان المطلعون يظنون قبل نشره أن السيوطي هو مبتكر هذا الوضع اعتماداً على ماذكر في =

وأقسامه من قياس العلة وقياس الشبه وقياس الطرد الى غير ذلك على حد أصول الفقه،فان بينهما من المناسبة مالا خفاء به لأن النحو معقول من منقول كما ان الفقه معقول من منقول ... »[1] .

= مقدمة كتابه (الاقتراح) ثم ظهر الحق بعد المقابلة بين صنيعه وصنيع ابن الأنباري ، رحمها الله .

ويعرف العلماء أن جهوداً ضخمة لعلماء كثيرين ضاعت عليهم لتظهر في كتب السيوطي ، ولم يكن السخاوي متجنباً عليه حين قال في (في الضوء اللامع) :

« أخذ السيوطي من كتب (المحمودية) وغيرها كثيراً من التصانيف المتقدمة التي لا عهد لكثير من العصريين بها ، فغيّر فيها يسيراً وقدم وأخر ونسبها لنفسه ، وهول في مقدماتها بما يتوهم منه الجاهل شيئاً مما لا يوفي ببعضه »

قلت ومن هذا صنيعه حين نقل كتاب ابن الانباري (لمع الأدلة)إلى كتابه (الاقتراح) الذي زعم في مقدمته انه مبتكر هذا النمط من التأليف .

(١) انظر مقدمة الاقتراح . والظاهر أن الأمر لم يقتصر على الأصول فقد كانت فروع الفقه ماثلة لأعين النحاة حين تقرير جزئيات النحو ، ففي كلامهم على حذف الفاء الواقعة في خبر (أما) اضطراراً في مثل قول الشاعر :

فأما القتال لاقتال لديكم ولكنّ سيراً في عراض المواكب

يستطردون الى قول الله « فأما الذين اسودت وجوههم : أكفرتم بعد إيمانكم .. » يقولون :

« حذف القول استغناء عنه بالمقول فتبعته الفاء في الحرف ، ورب شيء يصح تبعاً ولا يصح استقلالا كالحاج عن غيره يصلي عنه ركعتي الطواف ، ولو صلى أحد عن غيره ابتداء لم يصح على الصحيح » . وهذا تأثر بالفقه سافر غير خفي .

ثم تقرأ في كتب النحو بعد ذلك فترى مصطلحات الثقافة الفقهية تطالعك بين الفينة والفينة فتجد مثلاً في كتاب (الإنصاف في مسائل الخلاف) لابن الانباري من رجال المئة السادسة تعليقاً على قول البصريين « الدليل على أن نعم وبئس فعلان ماضيان أنهما مبنيان على الفتح ، ولو كانا اسمين لما كان لبنائهما وجه ، اذ لا علة ها هنا توجب بناءهما» فيقول ابن الانباري : « هذا تمسك باستصحاب الحال وهو من أضعف الأدلة »[1] فهذا — كما ترى — تحكيم لمعايير الفقه في النحو .

واذا عرفت ان القياس أداته العقل وان أئمة القياس في النحو سيبويه والفراء وابو علي الفارسي والرماني وابن جني والزمخشري وأضرابهم كلهم كانوا معتزلة[2] ، بل ان الرماني (— ٣٧٤) منهم كان يفتن في الكلام على مذهب المعتزلة ، ومع ان له ستة كتب على كتاب سيبويه ان كتبه في الكلام اكثر من كتبه في اللغة والنحو بكثير[3] . والاعتزال كما نعلم منهج يستند الى « تحكيم العقل مع المحافظة على الدين وهو منهج في

(١) الانصاف ص ٧٣ . واستصحاب الحال هو اعتبار الواقع إذا لم يقم دليل يناهضه ، إذا الأصل فيما لم يرد فيه مانع ولا موجب أن يكون مباحاً .

(٢) النحاة المعتزلة كثيرون جداً ومن بينهم الغالي في اعتزاليته ، يعرف كثرتهم من سرد أحد كتب الطبقات . ويظهر أن القدماء عنوا بجمع تراجم المعتزلة من النحاة فهذا ياقوت ينقل في ترجمته لابي الحسن البوراني عن كتاب (نحاة المعتزلة) لمحمد بن اسحاق.

(٣) انظر ترجمته في انباه الرواة ٢/٢٩٤ .

البحث والتجربة والاستدلال العقلي والشك والقياس .. وقد كان للمعتزلة أثر كبير في القياس في اللغة ، كما يظهر ذلك من قولهم بأن اللغة اصطلاحية من وضع البشر ، لا توقيفية ، وكما يظهر في تحرر الجاحظ وامثاله من المعتزلة في تشقيقهم الكلام واستعمالهم للمولد من الألفاظ بل الاعجمي ، وكما يظهر ايضاً في ان زعيمي مدرسة القياس وهما ابو علي الفارسي وابن جني كانا من المعتزلة ، وكما يظهر في البحوث اللغوية الطريفة التي حققها الزمخشري في كتبه وتفريقه بين دلالة الالفاظ عن طريق الحقيقة ودلالتها عن طريق المجاز ، وهو معتزلي ايضاً ، فلما ذهبت دولة المعتزله غلبت دولة المحافظين في اللغة كما هو الشأن في كل علم »[1] ، اذا عرفت ذلك كله ادركت الأثر البعيد الذي للعلوم الدينية في نشأة العلوم اللسانية.

هذا في القياس خاصة ، وقد علمت ان علماء العربية احتذوا طريق المحدثين من حيث العناية بالسند ورجاله وتجريحهم وتعديلهم ، وطرق تحمل اللغة... فكانت لهم نصوصهم اللغوية كما كان لأولئك نصوصهم الحديثية ، ولهم طبقات الرواة كما لأولئك ، ثم احتذوا المتكلمين في تطعيم نحوهم بالفلسفة والتعليل ، ثم حاكوا الفقهاء اخيراً في وضعهم للنحو اصولا تشبه اصول الفقه ، وتكلموا في الاجتهاد فيه كما تكلم الفقهاء وكان لهم طرازهم في بناء القواعد على السماع والقياس والإجماع كما

---

(١) (مدرسة القياس في اللغة) محاضرة الاستاذ احمد امين في مجمع اللغة العربية في دورة ١٩٤٩ . ثم نشرت في مجلة اللغة العربية ج ٧

بنى الفقهاء استنباط احكامهم على السماع والقياس والاجماع، وذلك أثر واضح من آثار العلوم الدينية في علوم اللغة .

والطريف أنهم سجلوا للنحو شيئاً من رد الدّين ، فهذا الفراء يناظر محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة قائلا : « قلّ رجل أنعم النظر في باب من العلم فأراد غيره إلا سهل عليه » امتحنه محمد في مسألة فقهية أجابه عليها من فن النحو ، قال محمد : « ماتقول في رجل صلى فسها ، فسجد سجدتين للسهو فسها فيهما ؟ » ففكر الفراء ساعة ثم قال : « لاشيء عليه . » فقال له محمد : « ولم ؟ » قال : « لأن التصغير عندنا لاتصغير له ، وانما السجدتان تمام الصلاة ، فليس للتمام تمام . » فقال محمد : « ماظننت آدمياً يلد مثلك ! » [1] .

واشتهرت هذه الحادثة في زمانها وبعده ، وقامت دليلا على لطف نظر النحاة واشارة الى مابين الفقه والنحو من أخذ وعطاء استمر مع تقدم الفنين . ثم جاء الجرمي من أهل المئة الثالثة (- ٢٢٥ ﻫ) يقول : « أنا مذ ثلاثون سنة أفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه » .. وذلك ان الجرمي كان صاحب حديث ، فلما علم كتاب سيبويه تفقه في الحديث ، اذ كان كتاب سيبويه يتعلم منه النظر والتفتيش [2] ..

حتى إذا بلغنا المئة الرابعة للهجرة وجدنا فقيهاً شافعياً ، هو ابن الحداد المصري ، كانت له ليلة في كل جمعة يتكلم فيها عنده في مسائل الفقه على طريق النحو !! ، وكان أبو جعفر النحاس النحوي المصري المشهور المتوفى سنة « ٣٣٨ ﻫ » لايدع حضور هذا المجلس [3] .

---

(١) وفيات الأعيان ٥/٢٢٧ . وقد روى ابن خلكان هذا الحادث أيضاً بين الكسائي ومحمد بن الحسن بين يدي الرشيد في ٢/٤٥٧ ولعل الاول هو الواقع.

(٢) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص ٧٧

(٣) إنباه الرواة ١/١٠٢ وطبقات النحويين واللغويين ص ٢٤٠

بل نرى رد الدين صار على مقياس أوسع في المئة الثامنة . فهذا الشيخ جمال الدين الأسنوي « - ٧٧٢ هـ » له كتاب « الكواكب الدرية في تنزيل الفروع الفقهية على القواعد النحوية » يقول في مقدمته :

« ... استخرت الله تعالى في تأليف كتابين ممتزجين من الفنين المذكورين « يعني أصول الفقه وعلم العربية » ومن الفقه ، لم يتقدمني إليهما أحد من اصحابنا : أحدهما في كيفية تخريج الفقه على المسائل الأصولية ، والثاني في كيفية تخريجه على المسائل النحوية ؛ فأذكر أولا المسائل الأصولية أو النحوية مهذبة منقحة ، ثم أتبعها بذكر جملة ما يتفرع عليها ليكون ذلك تنبيهاً على مالم أذكره . ثم إن الذي اذكره على أقسام ، فمنه ما يكون جواب أصحابنا فيه (يعني الشافعية) موافقاً للقاعدة ، ومنه ما يكون مخالفاً لها ، ومنه مالم أقف فيه على نقل بالكلية فأذكر فيه ما تقتضيه القاعدة مع ملاحظة القاعدة المذهبية والنظائر الفرعية فيعرف الناظر في ذلك مأخذ ما نص عليه أصحابنا وفصلوه ، ويتنبه به على استخراج ما أهملوه . هذا مع أن الفروع المذكورة مهمة مقصودة في نفسها بالنظر ، وكثير منها قد ظفرت به في كتب غريبة كما ستراه مبيناً إن شاء الله تعالى ..

واعلم انني إذا أطلقت شيئاً من المسائل النحوية فهي في كتابيْ شيخنا ابي حيان الذي لم يصنف في هذا العلم أجمع منهما وهما (الارتشاف) و (شرح التسهيل) ، فان لم تكن المسألة فيهما صرحت بذلك ، وإذا أطلقت شيئاً من الاحكام الفقهية فهو من الشرح الكبير للرافعي أو من (الروضة للنووي) ... »[1] .

والكتاب مخطوط نادر تحتفظ به دار الكتب المصرية « رقمه ٥١٤٤ هـ نحو » وقد أطلعتك على خطته كما شرحها ؛ وهأنذا مطلعك على نمط من مسائله ليكون تصورك لما وصل إليه التفاعل بين علوم الشريعة والنحو في المئة الثامنة كاملاً كما يعرضه هذا الأثر النفيس ، ولا بد من الاشارة إلى أن أغلب مسائله تدور على جمل الطلاق ، والوصايا وما إلى ذلك :

---

(١) انظر الورقة ٢/٢ من المخطوط .

فصل في المضمرات

مسألة : الضمير اذا سبقه مضاف ومضاف إليه وأمكن عوده على كل منهما على انفراده كقولك(مررت بغلام زيد فأكرمته)فانه يعود على المضاف دون المضاف إليه، لأن المضاف هو المحدث عنه والمضاف اليه وقع ذكره بطريق التبع وهو تعريف المضاف أو تخصيصه ، كذا ذكره أبو حيان في تفسيره وكتبه النحوية وأبطل به استدلال ابن حزم ومن نحا نحوه كالماوردي في (الحاوي)على نجاسة الخنزير بقوله تعالى : « . أو لحمَ خنزير فانه رجس »[1] حيث زعموا أن الضمير في قوله تعالى (فانه) يعود إلى الخنزير ، وعللوه بأنه أقرب مذكور .

إذا علمت ذلك فمن فروع المسألة ما إذا قال : (له علي ألف درهم ونصفه) فالقياس أنه يلزمه ألف وخمسمائة لا ألف ونصف درهم .

هكذا القول في الوصايا والبياعات والوكالات والاجازات وغيرها من الأبواب .

مسألة ضمير الغائب قد يعود على غير ملفوظ به كالذي يفسره سياق الكلام .

فمن فروع المسألة ما إذا قال (له علي درهم ونصفه) فانه يلزمه درهم كامل ونصف والتقدير – كما قال ابن مالك – (ونصف درهم آخر) اذ لو كان العائد إلى المذكور لكان يلزمه درهم واحد ، ويكون قد أعاد النصف تأكيداً وعطفه لتغاير الالفاظ . » اهـ

ثم لا ننسى خدمة علوم اللغة الفقه نفسه بعد أن استفادت من أصوله وطرقه ؛ فهذا المطرزي (— ٦١٠) يضع معجمه (المغرب) في لغة الفقه خاصة ، وكذلك الفيومي (— ٧٧٠) صاحب (المصباح المنير) ألفه في غريب (الشرح الكبير للرافعي) وهو كتاب في فقه الشافعية ، والرازي (— ٧٦٠) اختار من الصحاح ما يخدم به ألفاظ القرآن والحديث والفقه فألف كتابه النافع المشهور (مختار الصحاح) وهكذا .

---

(١) سورة الأنعام ٦/١٤٥

(جـ)

من أحكام القياس[1]

للقياس أربعة أركان :

١ ــ أصل وهو المقيس عليه .

٢ ــ وفرع وهو المقيس .

٣ ــ وحكم

٤ ــ وعلة جامعة .

وقد عرفت أن ذلك مثل أن تركب قياساً في الدلالة على رفع مالم يسم فاعله فتقول: اسم أسند الفعل إليه مقدماً عليه فوجب أن يكون مرفوعاً قياساً على الفاعل

١ ــ فالأصل هو الفاعل، ٢ ــ والفرع هو مالم يسم فاعله، ٣ ــ والحكم هو الرفع ، ٤ ــ والعلة الجامعة هي الاسناد.

أ ــ في المقيس عليه :

١ ــ من شروطه ألا يكون شاذاً خارجاً عن سنن القياس ، فما كان كذلك لا يجوز القياس عليه كتصحيح مثل : استحوذ ، استصوب ، استنوق ، وكحذف نون التوكيد في قوله :

---

(١) مختصر بتصرف عن (الاقتراح) للسيوطي ص ٤٦ فما بعد .

« اصرفَ عنك الهموم طارقها »

أي (اصرفن) ووجه ضعفه في القياس أن التوكيد للتحقيق وإنما يليق به الاسهاب والاطناب لا الاختصار والحذف .

٢ ـــ كما لايقاس على الشاذ نطقاً لايقاس عليه تركاً كامتناعك من (وذر ، ودع) مع جوازهما قياساً لأن العرب تحامتهما[1] .

٣ — ليس من شرط المقيس عليه الكثرة فقد يقاس على القليل لموافقته للقياس ويمتنع على الكثير لمخالفته له :

مثال الأول : شنئي نسبة إلى شنوءة :

اكتفى سيبويه بهذا الوارد لأن السماع لم يرد بخلافه لا في هذا اللفظ ولا فيما كان من نوعه ، فقاس عليه وجعل وزن (فعَلِيّ) قياساً في (فَعولة) مع أنه لم يقع إليه من شواهده إلا هذه الكلمة المفردة ، فهو يقول في النسب إلى (ركوبة ، حلوبة : ركبي ، حلبي) .

أما الاخفش فجعله شاذاً لايقاس عليه ، ونسب إلى الكلمتين بقوله:

---

(١) عرفت من ص « ٣٢-٣٦ » أن العربية ماتحامتها ، فاعرف الآن أن ابن درستويه وهو الذي سلم خطأ بان العربية أهملتها قال : «واستعمال ما أهملوا من هذا جائز صواب وهو الأصل ، بل هو في القياس الوجه » — انظر المزهر ٤٦/٢ ، طبعة عيسى البابي الحلبي ، بعناية محمد احمد جاد المولى ورفيقيه .

(ركوبي وحلوبي) لكن القياس يؤيد سيبويه في قياسه على شنوءة شنئي بما يأتي :

فعولة = فعيلة، فكل منهما ثلاثي ثالثه حرف لين وانتهى بتاء التأنيث فجعلوا واو شنوءة كياء حنيفة وعاملوها مثلها في النسبة . (ولا يقول في ضرورة : (ضرري) لأنه لا يقال في جليلة : جللي) .

قال أبو الحسن : « فإن قلت : إنما جاء هذا في حرف واحد (يعني شنوءة) فالجواب : أنه جميع ماجاء » .

ومثال الثاني : قولهم في (ثقيف وقريش وسُليم) : ثقفي وقرشي وسلمي .. وإن كان أكثر من شنئي فإنه عند سيبويه ضعيف في القياس فليس لك أن تقول في سعيد : سعدي[1] .

٤ ــ للقياس أربعة أقسام :

١ ــ حمل فرع على أصل كإعلال الجمع لاعلال المفرد مثل (قيمة: قيم) أو تصحيحه لصحة المفرد مثل : (ثور : ثِوَرة) .

٢ ــ حمل أصل على فرع كاعلال المصدر لإعلال فعله (قام: قياماً)

---

(١) هذا « والكلمة أو الكلمتان لا تقومان في وجه القاعدة التي يجري عليها الفصحاء في عامة مخاطباتهم ولو نقلت عن فصيح عربي: اذ يجوز أن تكون قد صدرت منه على وجه الغلط أو القصد الى تحريف اللغة ، فان ألسنة الفصحاء قد تقع في زلة الخطأ وتطوع لهم متى قصدوا الى تغيير الكلمة عن وضعها المعروف لهزل ونحوه . » اهـ عن القياس في اللغة العربية ص ٤٣ .

أو تصحيحه لصحة فعله مثل :(قاومت : قِواماً).و كحذف الحروف في الجزم وهي أصول حملاً على حذف الحركات .

٣ ــ حمل نظير على نظير: منعوا (أفعل التفضيل) من رفع الظاهر لشبهه بـ (أفعل التعجب) ، وأجازوا تصغير أفعل التعجب حملاً على اسم التفضيل .

٤ ــ حمل ضد على ضد : من أمثلته النصب بـ (لم) حملاً على الجزم بـ (لن) ، أولهما لنفي الماضي والثاني لنفي المستقبل [1] .

ب ــ في المقيس :

وهل يوصف بأنه من كلام العرب أم لا (تقدم هذا ص ٨٠) وقد قال ابن جني : « اللغات على اختلافها كلها حجة ، والناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطىء » .

---

(١) قلت : شاهد الجزم بـ (لن) قول أعرابي يمدح الحسين بن علي :

لن يخب الآن من رجائك من حرك من دون بابك الحلقة

وشاهد النصب بـ (لم) قراءة بعضهم : « ألم نشرحَ لك صدرك » وقول الحارث بن منذر الجرمي :

في أي يومي من الموت أفر أيوم لم يقدرَ أم يوم قدر

انظر (لم) ، (لن) في مغني اللبيب

م ــ في الحكم وفيه مسألتان :

جواز القياس على حكم ثبت بالقياس[1] (إذ الأصل أن يثبت بالسماع) . وجواز القياس على أصل اختلف في حكمه كقولهم في (إلا) إنها نابت مناب فعل فهي تعمل عمله قياساً على (يا) ، فان إعمال (يا) مختلف فيه .

في العلل[2] :

(تقدم كون علل النحويين أقرب الى علل المتكلمين منها الى علل الفقهاء)

١ ــ « اعتلالات النحويين صنفان : علة تطرد على كلام العرب

---

(١) مثال ذلك أن اسم الفاعل محمول على الفعل في العمل ، ولذلك كان أضعف منه فاذا استطاع الفعل أن يحمل الضمير في مثل قولك (زيد أخواك زاروهما) لم يستطع اسم الفاعل السببي تحمل الضمير ولذلك وجب إظهاره فتقول زيدأخوالئزائرإياهماهو) ولا يجوز استتاره لقصور اسم الفاعل في العمل عن الفعل.
فهذا التركيب في جملة اسم الفاعل السببي مقيس غير مسموع ، فتأتي أنت وتقيس الصفة المشبهة على اسم الفاعل فتقول (زيد أخواك حسن في عينه هما) قياساً على جملة اسم الفاعل المتقدمة ، فهذا قياس على مقيس . ــ انظر الخصائص لابن جني ص ١/١٩٤ .

(٢) إذا رفعت مارفعته العرب ونصبت مانصبت فعملك نحو ، لأنك تنتحي به مذهب العرب في كلامها فهذا ما كانوا يقصدونه بالنحو او بالعربية قديماً ثم لما تقدموا قليلا صاروا يقولون في (ذهب زيد) رفعت (زيد) لأنها فاعل ، فجعلوا ذلك هو العلة ، ثم خطوا خطوة ثانية لما تساءلوا عن سبب رفع الفاعل وقالوا : (الضمة أشرف الحركات ولذلك خصوا بها الفاعل لشرفه) فجعلوا هذا الجواب علة العلة.

وتنساق الى قانون لغتهم ، وعلة تظهر حكمتهم وتكشف عن صحة أغراضهم ومقاصدهم في موضوعاتهم .

فالأولى : أكثر استعمالا وأشد تداولا وهي واسعة الشعب (عدها السيوطي ٢٤) منها :

علة سماع : يقال امرأة ثدياء (ولا يقال رجل أثدى) لعدم السماع .

علة تشبيه : كاعراب المضارع لمشابهته الاسم ، وبناء بعض الاسماء لمشابهتها الحروف .

علة استثقال : كاستثقالهم الواو في (يعد) بين ياء وكسرة .

علة فرق : فيما ذهبوا اليه من رفع الفاعل ونصب المفعول .

(قلت : تقدم لابن جني تعليل يرد هذا الى علة الاستثقال وهو جد وجيه)

علة نظير : مثل كسرهم أحد الساكنين اذا التقيا في الجزم حملا على الجر اذ هو نظيره .

علة حمل على المعنى : « فمن جاءه موعظة من ربه[1] » ذكّر الفعل (جاء) مراعاة لمعنى (الموعظة) .

علة مشاكلة : في قوله (سلاسلاً وأغلالاً)[2] في قراءة من نون سلاسل ... الخ العلل[3] .

---

(١) سورة البقرة ٢٧٥/٢ (٢) سورة الدهر ٤/٧٦

(٣) انظرها في الاقتراح ص ٥٦ وهذه أسماء بقية الانواع : علة استغناء ، علة توكيد ، علة تعويض ، علة نقيض ، علة معادلة ، علة قرب ومجاورة ، علة =

٢ ـــ يجوز التعليل بعلتين : كقولك (هؤلاء مسلميّ) فإن الأصل: مسلموي : قلبت الواو ياء لأمرين كل منهما موجب للقلب : اجتماع الواو والياء وسبق إحداهما بسكون ، والثانية أن ياء المتكلم توجب كسر ما قبلها فوجب قلب الواو ياء وإدغامها .

٣ ـــ يجوز التعليل بالامور العدمية كتعليل بعضهم بناء الضمير[1] باستغنائه عن الاعراب وباختلاف صيغه لحصول الامتياز بذلك .

أنت ترى أن بعض العلل النحوية حسية مقبولة ، وبعضها فرضية، لكن لهم قسماً ثالثاً من العلل وهو (العلل الخيالية) ومثلوا لها بـ (هل): « فإن الأصل فيها دخولها على الفعل ، وقد تخرج عن الاصل فتدخل على اسم خبره اسم ، ولا تدخل على اسم خبره فعل مثل (هل عمرو كتب) وعللوا ذلك بأن (هل) إذا لم تر الفعل في حيزها تسلت عنه ذاهلة، وإن رأته في حيزها حنت اليه لسابق الألفة فلم ترض حينئذ إلا بمعانقته »[2] .

ولا تظن أن تلك العلل سلمها الناس لهم ، إن الأمر على العكس ولا نزال نسمع حتى اليوم الكلمة السائرة : (أضعف من حجة نحوي)،

= وجوب ، علة جواز ، علة تغليب ، علة اختصار ، علة تخفيف ، علة دلالة حال، علة أصل ، علة تحليل ، علة إشعار ، علة تضاد ، علة أولى .

(١) قلت لهم تعليل أقرب ، هو شبهه بالحرف شبهاً وضعياً من حيث كونه حرفاً واحداً أو حرفين في أكثر الاحوال وهذه علة وجودية لا عدمية .

(٢) القياس في اللغة العربية لمحمد الخضر حسين ص ٧٦ .

وقد ذكر القفطي أن أبا العباس الناشيء المتكلم (ـــ٢٩٣) «نظر في علل النحو وهو متكلم، فتبين له بقوة الكلام نقض أصوله، فنقضها وصنف فيها – وكذلك العروض أدخل قواعده شبهاً،.. وأحسن والله في كل ذلك وأظهر قوة ..» إنباه الرواة ١٢٨/٢ .

وقد ضايقت تعليلاتهم وقياسهم وتعقبهم معاصريهم من الشعراء فقال عمار الكلبي وقد عابوه في بعض شعره :[1]

ماذا لقينا من المستعربين ومن　　قياس نحوهم هذا الذي ابتدعوا
إن قلت قافية بكراً يكون بها　　بيت خلاف الذي قاسوه أو ذرعوا
قالوا: «لحنت، وهذا ليس منتصباً،　　وذاك خفض، وهذا ليس يرتفع
وحرضوا بين عبد الله من حمق　　وبين زيد، فطال الضرب والوجع
كم بين قوم قد احتالوا لمنطقهم　　وبين قوم على إعرابهم طبعوا
وبين قوم رأوا شيئاً معاينة　　وبين قوم رأوا بعض الذي سمعوا[2]
ما كل قولي مشروحاً لكم فخذوا　　ما تعرفون، وما لم تعرفوا فدعوا

---

(١) إذ قال : بانت نعيمة والدنيا مفرقة　　وحال من دونها غيران مزعوج
فقيل له : «لا يقال مزعوج، إنما يقال : مُزْعَج» فكره ذلك وهجا النحويين بالأبيات المذكورة . إرشاد الأريب ١٠٣/١٢

قلت : بالرجوع إلى معاجم اللغة يتبين بطلان نقدهم ونقص اطلاعهم، إذ نصوا على أن (زعجه) مثل (أزعجه)، ومن حق هذا الشاعر السليقي أن يغضب لطبعه الصحيح على من حاول الطعن فيه بلا حق ولا علم .

(٢) الزيادة من إنباه الرواة ٤٢/٢ وفي ترتيب الابيات وبعض كلماتها خلاف=

لأن أرضي أرض لا تشب بها نار المجوس ولا تبنى بها البيع
ولا يطا القرد والخنزير ساحتها لكن بها العين والذيال والصدع[1]

ولست أشك أن القوم بالغوا في التزام القياس وتطويع اللغة له حتى خرج بعضهم على طبيعة الاشياء وكادوا ينسون أن القياس مستنبط من اللغة وأن اللغات لا تبنى على قياس مخترع. والاعتدال هو الصواب في كل الأمور، وتعجبني في ذلك كلمة محمد بن الجبان من أصحاب الفارسي:

« قياسات النحو تتوقف ولا تطرد، كقميص له جُرُبّانات، فصاحبه يخرج رأسه كل ساعة من جربان»[2].

. . .

هذا، ومن المنتظر أن يكون للعلل الشأن الذي قدمناه للقياس إذ كان مبنياً عليها فوُصف قوم بتميزهم بحسن النظر في علل النحو[3]، وانصرف قوم إلى الاختصاص بها والتأليف فيها خاصة ومما حفظت كتب الطبقات الأسماء الآتية:

١ ــ العلل في النحو لقطرب (ــ٢٠٦)

٢ ــ علل النحو للحسن بن عبد الاصفهاني الملقب بـ (لغده)[4].

= العين: بقر الوحش. الذيال: الثور الوحشي. الصدع: الفتي الشاب من الأوعال والظباء والحمير والإبل.

(٢) بغية الوعاة ص ٧٩. والجربان فتحة القميص.

(٣) كابن قادم المتوفى سنة ٢٥١ هـ. (٤) إنباه الرواة ٣/٤٣.

٣ ــ نقض علل النحو للحسن بن عبد الاصفهاني نفسه .

٤ ــ علل النحو لابن كيسان (ــ٣٢٠)

٥ ــ الايضاح في علل النحو للزجاجي (ــ٣٣٧)[1] .

٦ ــ النحو المجموع على العلل لمبرمان (ــ٣٤٥)

٧ ــ علل النحو لابن الوراق (ــ٣٨١)[2]

وهذا كاف في الدلالة على مبلغ العناية بهذا الباب .

(د)

المصريون والقياس

وبعد ، فليت الأمر وقف بالقياس عند المدى الذي وصل اليه

---

(١) طبع بعناية الدكتور مازن المبارك في القاهرة سنة ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م بهذا العنوان ، وان كان اسمه الصحيح (الايضاح في أسرار النحو) ، وليس العنوان المطبوع بعيداً عن محتواه .

(٢) راجع تراجم هؤلاء الأعلام في بغية الوعاة . هذا وللاستاذ إبراهيم مصطفى رأي لا يبعد من الواقع في اختلاط النحو بالعلل على بعضهم قال :

كانوا يريدون بالنحو انتحاء سمت العرب في القول ، ثم جعلوا لهذا النحو سبباً فقالوا في الكلمة ترفع لأنها فاعل وسموا ذلك علل النحو ، ثم تقدموا خطوة ثانية في التعليل فقالوا : ولم رفع الفاعل ؟ وأخذوا يتمحلون لذلك أسباباً من شرف الضمة وشرف الفاعل فكانت علة العلة . ثم اختصر المؤلفون فجعلوا النحو القاعدة بعدما كانت تسمى بالعلة وقصروا اسم العلة على ما تعلل به قاعدة النحو . ومن هذا اضطرب الأمر وخفي على رواة الأخبار وكتاب الطبقات . (ص ٧٤ مجلة كلية الآداب لجامعة القاهرة ٢/١٠)

الفارسي وابن جني ، إنه بدأ يتراجع القهقرى بعد المئة الرابعة، وغلب على اللغة وعلومهـا الجمود ، ثم آل هذا التراث إلى علماء لا سليقة لهم فغشوه بأغشية من مؤلفاتهم لا روح فيها ، فلما كانت مبشرات النهضة آخر المئة الماضية وأول هذه المئة وتدفق سيل حاجات الحيـاة من الحضارة الغربية،وجدالقوم أنفسهم إزاء مستحدثات لاقبل لهم بها إلا إذا جدوا متكاتفين، وهذا ما لم يكن ، لعوامل ليس هذا مكان ذكرها .

كثرت الصحف والمجلات والمؤلفات واحتاجوا الى فيض من المصطلحات يعبرون بها فكانوا ازاء حاجات العصر الحديث فريقين: فريقاً دعا إلى إدراج لغة السوق في الكتابة والمدارس على عاميتها وعجمتها ، وفريقاً جمد على ما ورد عن العرب الأولين ، وكان تجاذب بين الفريقين معهما أنصارهما ... إلى أن قيض الله فريقاً ثالثاً ترفع عن ابتذال الدهماء في الاسواق ، وحرص على التراث العربي الكريم ، فشمر عن ساعد الجد يتحرى لهذه المستحدثات مصطلحات عربية ، فإن لم يجد أحدثها عن طريق الاشتقاق أو المجاز ، أو التعريب أحياناً قليلة . ثم كانت في مصر محاولات لتأسيس مجـــامع لغوية تسهر على سلامة الفصحى وتمدها بما تستطيع معه استمرار الحياة بنشاط ، ولم تثبت للزمن تلك المحاولات بمصر ، وإنما قام بالعبء — على قدر استطاعته — المجمع العلمي العربي بدمشق الذي أنشىء على عهد المرحوم الملك فيصل الأول سنة (١٩١٨م) وكان نشيطاً كل

النشاط أول حياته ، فأمد الصحافة ودواوين الحكومة والمدارس والمعاهد بفيض صالح من الاسماء والمصطلحات ، كما انصرف إلى اصلاح لغة الدواوين والصحف والكتب المدرسية بحيث لم يكن يجوز طبع كتاب لم ينظر في لغته احد أعضاء المجمع غير الجاهلين[1].

ولم يطل بمجمع دمشق هذا النشاط أكثر من عشر سنين ، لكن الأمر استمر خارجه ، وسهرت المعاهد العليا والثانوية على استمرار النهضة.

ولا ينبغي أن ننسى هنا أثر التراجمة الأولين في مطلع النهضة بمصر ولا أثر المصححين في المطبعة الاميرية وفيها من شيوخ الأزهر وغيرهم[2]، فما ترجم قديماً من كتب علمية في الطب والهندسة والعلوم حافل بأوضاع عربية، وثمرات من ثمرات القياس تستحق التقدير . وقد ينفع المجامع اليوم إطالة النظر فيما تشتت في هذه الطبعات القديمة النادرة من مصطلحات ونحت واشتقاق ، فالمعروف أن مدرسة الألسن وأساتذتها وخريجيها اتسمت بكثير من العمل والجد وقليل جداً من الإعلان والتبجح، على عكس مؤسسات بعدها ينفق عليها كثير من الأموال وتحاط بكثير من الجعجعة ثم تشتغل بكل ما يبعدها عن الهدف الذي من أجله أنشئت، وأغدق عليها مما جمع من كدح الفلاحين ما أغدق .

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتابنا (حاضر اللغة العربية في الشام)

(٢) انظر بحثاً عن التراجمة من شيوخ الازهر نشر في العدد (٦٧٤) من مجلة (الثقافة) المصرية وما قبله .

قرارات المحدثين

تعددت المحاولات في مصر كما أسلفت، حتى صار الشعور بضرورة المجمع رغبة عامة للأمة، لباها الملك فؤاد الأول رحمه الله بأخرة، حين أسس (مجمع فؤاذ الأول للغة العربية[1]) وبدأ عمله سنة (١٩٣٤م) يضم حين التأسيس أعلاماً من خير علماء العربية، وكان في جملة ماعالج من موضوعات قضية القياس في اللغة، فأصدر فيها — بعد مذكرات حول المشروعات المقدمة — قرارات سديدة يصح ان نعدها بعثاً لحركة القياس بعد نوم امتد نحو تسعمائة سنة، من المئة الخامسة للهجرة حتى اليوم.

وبإثباتنا بعض هذه القرارات نختتم الكلام على القياس مادة وتأريخاً:

قرار التضمين[2]

التضمين أن يؤدي فعل أو ما في معناه مؤدى فعل آخر أو ما في معناه فيعطى حكمه في التعدية واللزوم.

ومجمع اللغة العربية يرى أنه قياسي لاسماعي بشروط ثلاثة:

١ — تحقق المناسبة بين الفعلين،

٢ — وجود قرينة تدل على ملاحظة الفعل الآخر ويؤمن معها اللبس.

---

(١) ليحافظ على سلامة اللغة العربية وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون في تقدمها ملائمة حاجات الحياة في العصر الحاضر. — انظر المادة الثانية من مرسوم انشائه ١/٦ من مجلته. هذا وقد أصبح اسم المجمع اليوم: مجمع اللغة العربية.

(٢) مجلة مجمع اللغة العربية ١/٣٣ وانظر الاحتجاج لهذه القرارات في ص ١٧٧ — ٢٦٣ من الجزء نفسه.

٣ ــ ملاءمة التضمين للذوق العربي.

ويوصي المجمع ألا يلجأ إلى التضمين إلا لغرض بلاغي .

أمثلة التضمين في القرآن الكريم :

«...وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم.»[1] ضمن (خلا) معنى (انتهى)

«الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون»[1]

ضمن (يمد) معنى (يزيد)

« .. والله يعلم المفسد من المصلح ..»[2] ضمن (يعلم) معنى (يميز)

«.. ولتكبروا الله على ما هداكم..»[3] ضمن (لتكبروا) معنى (لتحمدوا)

« .. فأماته الله مئة عام ثم بعثه ..»[4] ضمن (أمات) معنى (ألبث)

« .. لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ..»[5]

ضمن (يألونكم) معنى (يمنعونكم)

« .. وما يفعلوا من خير فلن يكفروه ..»[6]

ضمن (يكفروه) معني (يحرموه)

« .. ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ..»[7]

ضمن (تأكلوا) معنى (تضموا)

« .. ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب..»[8]

ضمن (ترى) معنى (تنتهي)

---

(١) سورة البقرة ٢/١٤، ١٥ (٢) سورة البقرة /٢٢٠

(٣) سورة البقرة /١٨٥ (٤) سورة البقرة /٢٩٥

(٥) سورة آل عمران ٣/١١٨ (٦) سورة آل عمران ٣/١١٥

(٧) سورة النساء ٤/٢ (٨) سورة آل عمران ٣/٢٣

« .. ولو جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به »[1]

ضمن (اذاعوا) معنى (تحدثوا)

« .. ومانحن بتاركي آلهتنا عن قولك .. »[2] ضمن (تارك) معنى (صادر)

« .. وعتوا عن أمر ربهم .. »[3] ضمن (عتوا) معنى (انحرفوا)

« أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها »[4]

ضمن (يهد) معنى (يتضح)

« حقيقٌ على ألا أقول على الله إلا الحق »[5]

ضمن (حقيق) معنى (حريص)

« يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض »[6] ضمن (اثاقلتم) معنى (أخلدتم)

« ما كان لأهل المدينة ومَن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه[7] » ضمن (يرغبوا) (معنى) يبخلوا

« وياقوم من ينصرني من الله إن طردتهم »[8] ضمن (ينصر) معنى (يجير)

« ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون[9] »

ضمن (تخاطب) معنى (تراجع)

---

(١) سورة النساء ٨٢/٤
(٢) سورة هود ٥٣/١١
(٣) سورة الاعراف ٧٦/٧
(٤) سورة الاعراف ٩٩/٧
(٥) سورة الاعراف ١٠٤/٧
(٦) سورة التوبة ٣٩/٩
(٧) سورة التوبة ١٢١/٩
(٨) سورة هود ٣٠/١١
(٩) سورة هود ٣٧/١١

قرار التعريب[1] :

يجيز المجمع ان يستعمل بعض الألفاظ الأعجمية ـ عند الضرورة ـ على طريقة العرب في تعريبهم .

قرار المولد[1]

المولد هو اللفظ الذي استعمله المولدون على غير استعمال العرب وهو قسمان:

١ ــ قسم جروا فيه على أقيسة كلام العرب من مجاز أو اشتقاق أو نحوهما ، كاصطلاحات العلوم والصناعات وغير ذلك ، وحكمه انه عربي سائغ .

٢ ــ وقسم خرجوا فيه عن اقيسة كلام العرب اما باستعمال لفظ اعجمي لم تعربه العرب (وقد اصدر المجمع في شأن هذا النوع قرار التعريب السابق) ، واما بتحريف في اللفظ او الدلالة لايمكن معه التخريج على وجه صحيح، واما بوضع اللفظ ارتجالا[2]

والمجمع لايجيز النوعين الأخيرين في فصيح الكلام.

في الصياغة والاشتقاق[3]

قرار (فعالة) للحرفة :

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ٣٣/١ وانظر الاحتجاج لذلك في ص ١٧٧ — ٢٦٣ من الجزء نفسه .

(٢) ترتجله السوقة وتروجه ، وربما سرى الى بعض الخاصة في كلامهم العادي كالجلعصة والشرشحة مثلا .

(٣) ٣٤/١ .

يصاغ للدلالة على الحرفة أو شبهها من أي باب من أبواب الثلاثي مصدر على وزن (فعالة) بالكسر .

قرار (فعلان) للتقلب والاضطراب [1] :

يقاس المصدر على وزن (فعَلان) لفعل اللازم مفتوح العين اذا دل على التقلب والاضطراب.

قرار فُعال للمرض [2] :

يقاس من (فعل) اللازم المفتوح العين مصدر على وزن (فُعال) للدلالة على المرض .

قرار (فُعال وفعيل)للصوت [2] :

اذا لم يردفي اللغةمصدر لفعل اللازم مفتوح العين الدال على صوت فيجوز ان يصاغ له قياساً مصدر على وزن(فُعال) او (فَعيل).

قرار المصدر الصناعي: [2] :

إذا أريد صنع مصدر من كلمة ، يزاد عليها ياء النسب والتاء .

قرار (فعّال) للنسبة الى الشيء [2]

يصاغ (فعّال) قياساً للدلالة على الاحتراف أوملازمة الشيء .

فاذا خيف لبس بين صانع شيء وملازمه ،كانت صيغة (فعّال) للصانع وكان النسب بالياء لغيره ، فيقال (زجّاج) لصانع الزجاج ، (وزُجاجي) لبائعه .

---

(١) ٣٤/١ (٢) ٣٥/١

قرار اسم الآلة[1]

يصاغ قياساً من الفعل الثلاثي على وزن (مِفْعَل ، ومِفْعال ، ومِفْعَلة) للدلالة على الآلة التي يعالج بها الشيء[2].

قرار الاشتقاق من أسماء الأعيان[3] :

اشتق العرب كثيراً من أسماء الأعيان[3]

والمجمع يجيز هذا الاشتقاق ـ للضرورة ـ في لغة العلوم[4].

قرار مطاوع (فعل) الثلاثي[1]

كل فعل ثلاثي متعدد دال على معالجة حسية فمطاوعه القياسي (انفعل) مالم تكن فاء الفعل واواً ، أولاماً ، اونوناً ، أو ميما ، أوراء ، ويجمعها قولك (ولنمر) فالقياس فيه (افتعل)

قرار مطاوع (فعّل) بتشديد العين[3] :

---

(١) ١/٣٥ .

(٢) قلت : أحكام هذه القرارات كانت موضع خلاف منذ القديم بين من يقصرها على ما لم يسمع له صيغة مخصوصة ، ومن يرى اطراد القياس فيها الى جانب ما سمع له صيغة اخرى ، والخطوة التي خطاها المجمع هي حسمه الخلاف بميله الى اطراد القواعد وخيراً صنع .

(٣) ١/٣٦

(٤) فنقول مثلا : منحّس (كما قالوا مفضض) ، مزنخ ، مبلر ، مقصدر ، مكهرب ممغنط ، منشّى ، (مُعضّى ، متعض) ، استماه البخار ، استماس الفحم ، استرب النشا (الرب الفليكوز = عسل الفاكهة) كما قالوا : حنّيته ـ بوبته ـ تربت يداه ، أترب ، جَوْربته فتجورب ... ـ أرض مذبة ، المذبة ـ المزفت ـ زتّ الطعام (وتجد في احتجاجات السكندري كثيراً جداً مما اشتق العرب من أسماء الاعيان) ص ٢٣٦ ـ ٢٦٨ من الجزء نفسه .

قياس المطاوعة لفعّل مضعف العين (تفعّل) ، والأغلب فيما ضعف للتعدية أن يكون مطاوعه ثلاثيه .

قرار مطاوع (فاعل)[1] :

(فاعل) الذي أريد به وصف مفعوله بأصل مصدره مثل (باعدته) يكون قياس مطاوعه (تفاعل) كتباعد .

قرار مطاوع (فعْلل) :

(فعلل) وما ألحق به قياس المطاوعة منه على (تفعلل) نحو دحرجته فتدحرج ، وجلببته فتجلبب .

قرار التعدية بالهمزة[2] :

يرى المجمع أن تعدية الفعل الثلاثي اللازم بالهمزة قياسية .

قرار صيغة (استفعل) للطلب والصيرورة[2] :

يرى المجمع ان صيغة (استفعل) قياسية لإفادة الطلب أو الصيرورة

ملحقات الاصول العامة[2] :

الأول ـــ يفضل اللفظ العربي على المعرب القديم إلا إذا اشتهر المعرب .

الثاني ـــ ينطق بالاسم المعرب على الصورة التي نطقت بها العرب .

الثالث ـــ تفضل الاصطلاحات العربية القديمة على الجديدة ، إلا اذا شاعت .

---

(١) ٣٦/١ (٢) ٣٧/١

الرابع ــ تفضل الكلمة الواحدة على الكلمتين فأكثر عند وضع اصطلاح جديد، إذا امكن ذلك، وإذا لم يمكن تفضل الترجمة الحرفية[1].

وأنت قد عرفت أن أكثر هذه القرارات كانت حول القضايا التي كان فريق من العلماء يقصرها على السماع وآخر يقيس عليها مالم يرد عنهم فيه سماع، اما المجمع الحديث فقد نهج منهجاً يستطيع ان يحقق به مقتضيات الزمن، وقد سبقه الى سد الثلمة — وان كان على نحو علمي أضيق - مجمع دمشق. أما الجامعة السورية فقد اضطر أساتيذها منذ انشائها ورجال الطب منهم خاصة الى مصطلحات علمية كثيرة، وضعوها على ماتقتضيه الأصول العربية تعريباً واشتقاقاً ووضعاً فأغنوا بعض الغناء[2].

---

(١) وفي ٢/٣٣ فما بعد قرار:

١ - تكملة مادة لغوية ورد بعضها في المعجمات ونحوها ولم ترد بقيتها.

٢ - قرار النسبة الى جمع التكسير (عند ضرورة التمييز ونحوها)

٣ - قرار قياس (مفعلة) للمكان يكثر فيه الشيء.

٤ - قرار قياس (فعّال) المبالغة في الثلاثي اللازم والمتعدي.

وفي ١٤/١٧٤ بحث ثم قرارات في قياسية جموع التكسير - فليرجع الى ذلك كله.

(٢) ثم استمروا في تقدمهم حتى صار لكل استاذ فن منهم معجم المصطلحات التي استعملها ووضعها في مؤلفاته واخذها عنه طلابه، بحيث تفكر كلية الطب اليوم بطبع معجم طبي في اللغة العربية لكثرة ما توفر لديها من مصطلحات. والذي قام به أساتيذ هذه الكلية في أكثر من ثلاثين عاماً عمل جليل يستحق شكر العربية والوطن فقد كانوا أكثر من أساتذة، كانوا أصحاب رسالة وايمان.

والذي نختم به هذا البحث أن الواجب لاينتهي برسم الخطة ، بل ان رسم الخطة شيء وتحقيقها شيء آخر ، فاذا شرع المجمع يحقق مارسم ويمد المعاهد والمؤسسات والمجتمع كله بما يحتاج اليه من اسماء وافعال لحاجاتنا اليومية والاجتماعية والعلمية والفنية والوجدانية ، والحضارية بصورة عامة : اذا فعل ذلك كان في طريق اداء الواجب عليه وتحقيق المصلحة التي من اجلها أنشأه منشئه رحمه الله .

ويبقى بعد ذلك للغة العربية فيض زاخر من المرانة ، على اهلها ان يفيدوا منه ولا يعطلوه . إذ قد ثبت على مر الزمن انها تسبق الباحثين والمستنبطين ولا يعجزونها ، وان كل عصر افاد منها على قدر استعداد اهله ومواهبهم وملكاتهم . وحسبك ان تقابل بين الاصمعي والخليل وقد كانا في زمن واحد ، وبين ابن خالويه وابن جني وقد أظلهما عصر واحد ايضاً ، لتميز مدى مايفيد ذو الملكة المبدعة الخلاقه من الدائرة الضيقة التي يدور فيها ذو الذهن المقيد ، واللغة بعدُ واحدة والفرص المتاحة ايضاً واحدة :

ولكن تأخذ الأذهان (منها) على قدر القرائح والفهوم

الاشتقاق

في اللغة العربية

الاشتقاق

١ ـ معناه ٢ ـ انواعه ـ ٣ مصدره ـ ٤ أحكامه ـ ٥ خاتمة

(١)

معنى الاشتقاق

أقدم استعمال لهذه الكلمة في معناها المعروف ماورد في الحديث الصحيح :

« يقول الله : أنا الرحمن خلقت الرُحْم وشققت لهامن اسمي . »[1]

ومعناها الاصطلاحي :

أخذ لفظ من آخر مع تناسب بينهما في المعنى وتغيير في اللفظ يضيف زيادة على المعنى الأصلي ، وهذه الزيادة هي سبب الاشتقاق .

(٢)

أنواعه

حصروه في انواع اربعة : صغير ، وكبير ، واكبر ، وكُبّار

١ ــ الاشتقاق الصغير او الاصغر :

وهو المراد حين يطلق لفظ الاشتقاق مثل كلمتي (عالم، ومعلوم) من

(١) المزهر للسيوطي ٣٤٦/١ والرحم والرحمة واحد ، وفي (الأدب المفرد) للبخاري : « أنا الرحمن وأنا خلقت الرحم واشتققت لها من اسمي ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها بتتّه » ص ٣٤ الحديث ٥٣ .

(العلم) . ويتفق هنا المشتق والمشتق منه في الأحرف الأصلية وفي ترتيبها. وأفراد هذا الاشتقاق عشرة: الفعل الماضي ، والفعل المضارع، وفعل الأمر ، واسم الفاعل ، واسم المفعول ، والصفة المشبهة باسم الفاعل واسم التفضيل ، واسم الزمان ، واسم المكان ، واسم الآلة .

وأمرها جميعاً من حيث قواعد الاشتقاق معروفة للجميع فلا نعرض لها هنا بشيء .

٢ ـ الاشتقاق الكبير :

أن يكون بين الكلمتين تناسب في المعنى واتفاق في الأحرف الأصلية دون ترتيبها مثل : حمد ومدح ، وجبذ وجذب ، وكلم ولكم.

وسنعرض له بشيء من البيان .

٣ - الاشتقاق الأكبر :

أن يكون بين الكلمتين تناسب في المعنى واتفاق في الأحرف الثابتة وتناسب في مخرج الأحرف المغيّرة، مثل، نهق ونعق، وعنوان وعلوان:

لكن تتبعات اللغويين هدت إلى عدم لزوم هـذا القيد (تناسب المخارج) كما يظهر لك من الزمر الآتية :

أ ـ صرير البكرة وصريفها — الخَرْق والخَرْب (كل ثقب مستدير والخرب ثقب الأذن) ـ هديل وهدير .

ب — الحرف المضعف مع آخر : كدّ وكدح ، رصّ ورصف، زحّ وزحل ، رجّ ورجف، ضمّ وضمد ، ردّ وردع .

ح ــ الناقص مع حرف آخر : رسا ورسب ، سما وسمق ، زجا وزجر ، هذى وهذر ، محا ومحق ، احتفى واحتفل ، دهدى ودهده أسى وأسف ، رخا ورخص ، الحجى والحجر ، هباء وهباب .

د ــ المضعف يحول ناقصاً : ربّ وربا، طمّ وطمى، تمطط وتمطى تقضض وتقضّى ، تظنّن وتظنى .

ه ــ المضعف يحول أجوف : ضرّ وضار ، كعّ وكاع[1] ..الخ.

ومن المحدثين من حذا حذو ابن جني الذي سيأتي بيانه بعدُ في الكلام على الاشتقاق الكبير ، فاستقرى بعض الكَلم التي تشترك في الحرفين الأولين فوجد فيها كلها معنى مشتركاً ، ولو تيسر له مواصلة استقرائه لطلع علينا ــ فيما أقدر ــ بنظرية تؤيد القائلين اليوم بأن الأصل في الكلمات العربية ثنائي لا ثلاثي ، قال :

« والذي يتقرى كلم اللغة العربية بإنعام نظر يجد ان لمعظم موادها أصلاً يرجع اليه كثير من كلماته إن لم نقل كلها ، خذ على ذلك مادة (فل) وما يثلثها تجد الجميع يدور حول معنى الشق والفتح مثل : فلح ، فلج ، فلع ، فلق ، فلذ ، فلى . ومثل ذلك مادة (قط) وما يثلثها تقول: قطّ ، قطع قطر ، قطف ، قطن . وكلها بمعنى الانفصال »[2] .

---

(1) كتاب الاشتقاق والتعريب .

(2) المرحوم الاستاذ طـه الراوي : مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ١٣ / ٢٢٠ .

واليك مثلا آخر لمحدث أيضاً :

الهمزة والباء مدلولهما النفور والبعد والانفصال بين الشيئين :

أبّ للسير : تهيأ له .	أبز الظبي : وثب وانطلق.
أبت اليوم : اشتدحره فقطع الناس وفصلهم عن أعمالهم.	أبق العبد : نفر عن مولاه.
	أبل: توحش وانفصل عن الناس.
أبد الوحش : نفر .	أبه عن الشيء : بعد عنه وتنزه.
أبر النخل : قطع شيئاً منه	أبى عن الضيم : فر عنه[1].

ولأمر ما جرى صاحب (المصباح المنير) في أبواب معجمه على أن يقول مثلاً (الهمزة والباء وما يثلثهما)... هكذا الى آخر الأبواب، فهل كان يشير[2] إلى أن وراء كل أصلين معنى مشتركاً يكمن في كل ما تفرع

---

(١) كنا عزونا ذلك في الطبعة السابقة ، الى مجلة مجمع اللغة العربية ٢/٢٤٥ ثم رأيناها مدرجة مع غيرها في كتاب المرحوم الرافعي «تاريخ آداب العرب ١/١٧٥» والكتاب طبع سنة ١٩١١ ثم اعيد طبعه سنة ١٩٤٠. فالحق أن نعزو الى السابق. وختم الرافعي أمثلته بقوله : «ولو استقريت تراكيب اللغة كلها لوجدت مواد كل تركيب ترجع الى أصل واحد ولو تأويلًا عن طريق المجاز .. وسلسلة الاشتقاق في كل لفظة إنما هي نسق تاريخي في تدوين نسبها اللغوي وفروع هذا النسب ... ان الرواة أهملوا كل مايتعلق بالجهات التاريخية في اللغة فلا جرم انثلمت سلاسل الاشتقاق وضاع كثير من تلك الانساب الا مادل عليه مشابهات الخلقة اللفظية وهو مايعرف بالاستقراء .

(٢) بل ان المفسر البيضاوي صرح في تفسير قوله تعالى « ومما رزقناهم =

منهما من كلم ؟ وكذلك صنع ابن فارس قبله وهو من اهل المئة الرابعة في معجمه « مقاييس اللغة » وهما وإن لم يصرحا بالثنائية قولاً ففي عملهما ما يدل أنهما حاما حول القول بها، وإذاً تكون نظرية (المعجمية الثنائية) التي يشيد بها بعض العصريين قد فطن اليها لغويو العرب ومروا بها غير متلبثين لقلة جدواها العملية . وهي نظرية قديمة ، جرأ على ادعائها في زماننا فقدان المطلعين على المصادر العربية القديمة بين قراء المدّعين .

٣ ـــ الاشتقاق الكُبّار :

زاده بعضهم[1] مطلقاً إياه على ما يسمى بالنحت ، فجعل منه : (عبشمي من : عبد شمس) و (حولق من : لا حول ولا قوة الى بالله). ومراعاة معنى الاشتقاق تنصر جعل النحت نوعاً منه ، وإن فضل المتمسكون بالاصطلاح الفني إفراده من الاشتقاق .

وهذا النحت ذو أنواع أربعة :

١ ـــ فعلي: ينحت من الجملة دلالة على النطق بها أو حدوث مضمونها فأمثلة الحالة الأولى : بأبأ = قال بأبي أنت ، جَعْفَل = قال : جعلت

= ينفقون » فقال : « أنفق الشيء وأنفده أخوان » ، ولو استقريت الألفاظ وجدت كل مافاؤه نون وعينه فاء دالاً على معنى الذهاب والخروج » وقال في تفسير « اولئك هم المفلحون » : « المفلح بالحاء والجيم : الفائز بالمطلوب » كأنه الذي انفتحت له وجوه الظفر ، وهذا التركيب وما يشاركه في الفاء والعين نحو : فلق وفلذ وفلى . يدل على الشق والفتح » اهـ .

(١) انظر مجلة مجمع اللغة العربية ١/٢٨٣ : بحث الاستاذ عبد الله امين .

فداك ، سبحل = قال : سبحان الله ، دمعز = قال : أدام الله عزك ، سمعل = قال السلام عليكم ، فذلك = قال : فذلك .. الخ .

ومثال الحالة الثانية : بعثر = بعث وأثار .

٢ ـــ وصفي : ينحت من كلمتين دلالة على صفة بمعناهما أو أشد منه: ضبطر : من الضبط والضبر (الاكتناز) ، صلدم (شديد الحافر) : من الصلد والصدم ، صهصلق : من الصهيل والصلق (وهو الصوت المرتفع) .. الخ .

٣ ـــ اسمي : ينحت من اسمين جامعاً بين معنييهما .

جلمود : جلد + جمد ، حبقر (بمعنى البرد = حب قر ، عقابيل (بقايا العلة في الجسد) = عقبى الحمى وعقبى العلة .. الخ ، وهي كلمة لا مفرد لها .

٤ ـــ نسبي : ينحت نسبة إلى علمين :

طبر خزي : نسبة الى طبرستان وخوارزم ، شفعنتي : نسبة الى الشافعي وأبي حنيفة [1] .

وسمع عن العرب : عبشمي : نسبة إلى عبد شمس ، عبدري : نسبة الى عبد الدار ، مرقسي: نسبة الى امرىء القيس، تيملي نسبة الى تيم اللات .. الخ .

* * *

(١) الاشتقاق والتعريب

هذا ويتعلق النوع الأول من الاشتقاق بعلم الصرف، أما الأنواع الثلاثة الباقية فتتعلق ببحوث اللغة .

وسنعرض بشيء من الافاضة إلى الاشتقاق الكبير خاصة لشأنه المرموق دون بقية الأنواع .

في الاشتقاق الكبير

إذا قلبت فعلاً ثلاثياً على أوجهه الستة، فأنت واجد بين معانيها قدراً تشترك فيه الكلمات المستعملة منها، فكأن هذا القدر هو المعنى الأساسي لها جميعاً ، ثم تنفرد كل منها بمعنى ليس في سائرها ، وهذه حال تشبه حال المشتقات مع المصدر في الاشتقاق الأصغر .

مؤسس هذه (النظرية) ومبدعها وواضع اصطلاحها الفيلسوف اللغوي ابن جني أحد الأئمة الأعلام في المئة الرابعة الهجرية ، فقد صرح في كتابه الخصائص في (باب الاشتقاق الأكبر[1]) بما يلي :

---

(١) ٢/١٣٣ . « وهو البحث الذي لايزال يؤتي ثمره الى اليوم ، والذي يختص بمادة الكلمة دون هيئتها ، ولم يكن لعلماء اللغة من العرب إنتاج أعظم من هذا » ــ آدم متز في كتابه (الحضارة الاسلامية في القرن الرابع ١/٣٣٠ الطبعة الثانية سنة ١٩٤٧ .

هذا ويريد ابن جنى بـ (الاشتقاق الأكبر) مااصطلحنا في تقسيمنا على تسميته بـ « الكبير » كما تقدم آنفاً فتنبه الى ذلك .

« هذا موضع لم يسمه أحد من أصحابنا ، غير أن أبا علي (الفارسى) رحمه الله كان يستعين به ويخلد اليه مع إعواز الاشتقاق الأصغر، لكنه مع هذا لم يسمه[1] وإنما كان يعتاده ويستروح إليه ويتعلل به، وإنما هذا التلقيب لنا نحن وستراه فتعلم أنه لقب مستحسن ، وذلك أن الاشتقاق عندي على ضربين : كبير وصغير، فالصغير ما في أيدي الناس وكتبهم: كأن تأخذ أصلاً من الأصول فتتقراه فتجمع بين معانيه وإن اختلفت صيغه ومبانيه، وذلك كتركيب (س ل م) فإنك تأخذ منه معنى السلامة في تصرفه نحو: سلم ويسلم وسالم وسلمان وسلمى والسلامة والسليم..

وأما الاشتقاق الأكبر فأن تأخذ أصلاً من الاصول الثلاثية فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحداً تجتمع التراكيب الستة وما يتصرف من كل واحد منها عليه، وإن تباعد شيء من ذلك (عنه) رد بلطف الصنعة والتأويل إليه، كما يفعل الاشتقاقيون ذلك في التركيب الواحد .» ثم مضى ابن جني يضرب الامثلة على قاعدته وإليك نمطاً منها :

---

(١) قلت في الفهرست لابن النديم ص ٩٥ (المطبعة الرحمانية بمصر) أن للرماني كتاب : « الاشتقاق الصغير » وكتاب « الاشتقاق الكبير » ، والرماني من أتراب الفارسي وأقرانه ، فلعل ابن جني لم يطلع على كتابيه هذين . هذا اذا كان قوله « الصغير ، والكبير » صفتين للاشتقاق لا للكتاب . توفي الرماني سنة (٣٨٤) وهو ممن كان يمزج النحو بالمنطق ، حتى كان الفارسي يقول : « ان كان النحو مايقوله الرماني فليس معنا منه شيء ، وإن كان ما نقوله نحن فليس معه منه شيء » .

مادة (قول) في جميع تراكيبها الستة تدل على الإسراع والحركة:

قول : وهو القول وذلك ان الفم واللسان يخفان له... وهو بضد السكوت الذي هو داعية الى السكون.

قلو : القلْو حمار الوحش وذلك لخفته وإسراعه ، ومنه (قلوت البسر والسويق) وذلك لأن الشيء إذا قلي جف وخف ، وكان أسرع الى الحركة وألطف.

وقل: الوَقْل للوعل وذلك لحركته ، توقّل في الجبل إذا صعد فيه وذلك لايكون الا مع الحركة والاعتمال.

ولَق : ولق يلق إذا أسرع.

لوق : في الحديث (لاآكل من الطعام إلا مالُوّقَ لي) اي ماخدم وأعملت اليد في تحريكه ، ومنه اللوقة : الزبدة وذلك لخفتها وإسراع حركتها وأنها ليست لها مسكة الجبن.

لقو : اللَقْوة للعُقاب ، قيل لها ذلك لخفتها وسرعة طيرانها[1].

وقد احتذى المتأخرون من عصريينا حذو ابن جني فقدموا لنا أمثلة كثيرة على منواله ، وبعضهم انحرف في تطبيقها فأتى بجديد كما رأيت في صنيع الاستاذ طه الراوي رحمه الله وغيره. وإليك مثالاً آخر :

انظر تقاليب مادة (ن ج د) تجدها كلها تفيد القوة فهي المعنى المشترك لها:

---

(١) الخصائص ١/٥ ـ ١١ وقد فعل مثل ذلك بمادة (ك ل م) ص ١٣ ـ ١٧ فانظرها ثمة بإنعام .

فـ النجد: الشجاع، وما ارتفع من الأرض، والنجدة القتال، والنجدة الفزع ؛ وفي كل ذلك قوة .

والجند : بهم تكون القوة .

والجَدَن : حسن الصوت وهو قوة ، وأجدن استغنى بعدفقر ؛ وفي الاستغناء قوة .

والدِناج : إحكام الأمر وهو قوة .

والدَجن : المطر الكثير وفيه قوة .

والدجنة : الظلمة والظلمة ترهب ففيها قوة[1] .

على أن هذه النظرة العميقة مكنت الاشتقاقيين «من ردالكلمات التي اشتركت في معنى واحد بعضها إلى بعض بالقلب والإبدال، وأطلعهم على سر تولد اللغة ونموها » .

ولم يعدم هذا المذهب مبالغين فيه حملتهم قلة بضاعتهم وسوء بصارتهم على أن يخرجوا الى غير الاعتدال ، فقد حكى السيوطي في (المزهر) [2] أن أحدهم سئل : « من أي شيء اشتق الجرجير ؟ » فقال : « لأن الريح تجرجره ... ومن هذا قيل للحبل الجرير لأنه يجر على الأرض » قال : « والجرة لم سميت جرة ؟»

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ٢/٢٠٠

(٢) الجزء ١/٣٥٤ والخبر مفصل في ارشاد الاريب عن ابرهيم الزجاج فانظره ثمة ١/١٤٤ إذ زعم « أن كل لفظتين اتفقتا ببعض الحروف وان نقص حروف احداهما عن حروف الاخرى فان احداهما مشتقة من الاخرى » وسرد امثلة عدة وقد روى ياقوت تنكيت المعترضين عليه

قال : « لأنها تجر على الأرض » فقال « لو جرت على الارض لانكسرت »، « فالمجرة لم سميت مجرة ؟ » قال : « لان الله جرها في السماء جرا » قال : « فالجرجور الذي هو اسم المئة من الابل لم سميت به ؟ » فقال : « لأنها تجر بالازمة وتقاد » .. الخ . وقال آخر : انما سمي الثور ثوراً لأنه يثير الأرض .
وركب هذا المتن بعض العصريين فأولع برد الكلمات الاعجمية الى العربية حتى ان بعضهم سئل عن[1] (البنجرة) وهي الشباك بالتركية ، قال انها من (فنجر الرجل) إذا فتح عينيه، والنافذة في الجدار فتحته[1]

(٣)

مصدر المشتقات

ليست هذه المسألة موضع اتفاق بين البصريين والكوفيين ، فالأولون يذهبون إلى أن المصدر أصل الفعل ، والكوفيون يرون أن المصدر مشتق من الفعل وفرع عليه، وللفريقين أدلة وردود سردها ابن الأنباري في كتابه (الإنصاف في مسائل الخلاف) في المسألة الثامنة والعشرين (١/١٤٤ — ١٥٢) وكان قد أفردها في تأليف مستقل .
فمن أدلة الكوفيين : أن المصدر لا يتصور معناه مالم يكن له فعل فاعل، فينبغي أن يكون الفعل الذي يعرف به المصدر أصلاً للمصدر. وأن المصدر يذكر توكيداً للفعل ورتبة التوكيد بعد رتبة المؤكَّد،

(١) مجلة المجمع العلمي العربي ١٣/٢٢٠ . ثم اتخذ بعض الظراف الدعابة مركباً في هذا الباب ، فذهب يرد كثيراً من الكلمات الاجنبية الى العربية تعريضاً بالمتقعرين فيقول مثلا أصل « الالكتريك » : آلة تريك ، واصل المادة الماضية « الكاربونات » « الكربنط » .. الخ .

وأنا نجد أفعالاً لا مصادر لها مثل : نعم ، بئس ، عسى ، ليس .. الخ

ومن أدلة البصريين: أن المصدر يدل على مطلق الحدث لا اختصاص له بزمان دون زمان ، فلما احتاجوا إلى الدلالة على زمن محدد اشتقوا منه الفعل ليدل على الحدوث والظرف معاً .

وأنه لو كان مشتقاً من الفعل لكان يجب أن يجري على سنن في القياس : كاشتقاق الأفعال وأسماء الفاعلين ..

وأنه لو كان مشتقاً من الفعل لوجب أن يدل على ما في الفعل من الحدث والزمان وعلى معنى ثالث هو سبب الاشتقاق، كما دل اسم الفاعل مثلاً على معنى الفعل (الحدث والزمن) وعلى الذات الفاعلة .. الخ .. الى أدلة كثيرة صناعية لكل من الفريقين ، يجد المدقق فيها كلها اجتهاداً في النظر ووجهاً من الحق .

ومن الباحثين المحدثين من دعم رأي الكوفيين وعممه على كل اللغات السامية . ذاهباً الى أن القائلين بأن المصدر أصل الاشتقاق متأثرون بعقليتهم الفارسية .

قال اسرائيل ولفنسون مدرس اللغات السامية بالجامعة المصرية سابقاً :

« وقد رأى بعض علماء اللغة العربية أن المصدر الاسمي هو الأصل الذي يشتق منه أصل كل الكلمات والصيغ ، ولكن هذا الرأي خطأ — في رأينا — لأنه يجعل أصل الاشتقاق مخالفاً لأصله في جميع أخواتها السامية .

وقد تسرب هذا الرأي الى هؤلاء العلماء من الفرس الذين بحثوا في اللغة العربية بعقليتهم الآرية ، والأصل في الاشتقاق عند الآريين أن يكون من مصدر اسمي ، أما في اللغات السامية فالفعل هو كل شيء ، فمنه تتكون الجملة ولم يخضع الفعل للاسم والضمير ، بل نجد الضمير مسنداً إلى الفعل ومرتبطاً به ارتباطاً وثيقاً »[1] .

ثم ذكر هذا المستشرق اليهودي أن هذه نظريته الخاصة اذ لم يشر اليها أحد من علماء الأفرنج . ومع رغبته في أن يعم بنظريته هذه اللغة العربية ولغته العبرية يجدر بالمتأمل الوقوف وعدم القطع بما لم يقم عليه البرهان الساطع ، فما أكثر الظواهر التي خالفت فيها العربية أخواتها الساميات .

وربما ذهب الى تأييد نظرة الكوفيين غيره من الباحثين المحدثين ، والمسألة بعدُ نظرية صرف لم يقم فيها دليل حاسم ، ولا لنا منها اليوم جدوى عملية .

❀ ❀

وأيٌّ كان فالذي نميل إليه الآن هو أنه إذا كان في المشتق زيادة معنى على المشتق منه ، وكان البسيط مقدماً على المركب — وذلك مسلم عند الفريقين — فأصل المشتقات كلها — صناعة — المصدر

---

(1) تاريخ اللغات السامية ص ١٤ (لجنة التأليف والترجمة والنشر — الطبعة الأولى ١٩٢٩) .

لاالفعل ، لأن المصدر يدل على حدث والفعل يدل على حدث وزمن، والأسماء المشتقة تدل على حدث وزمن مع زيادة ثالثة كالدلالة على الفاعل او المفعول أو التفضيل أو المكان . فهذه الكثرة من المشتقات التي جعلت للغة سعتها ومرانتها أخذت من المصادر التي هي جميعاً أسماء معان ، وقد مر بك (ص ٩٠) كلمة الفارسي في أن « رتبة المشتق أن يكون بعد » .

على أن العرب لم تحجم أحياناً عن الاشتقاق من غير المصادر ، فاشتقت من أسماء معان ومن ذوات حسية ومن أسماء الازمنة والامكنة ومن أسماء الاصوات ومن الحروف وإليك البيان[1]:

١ ــ عمدوا إلى الأعداد وهي أسماء معان جامدة فقالوا : وحُد وتوحّد ، بقي وحده ، وثنّيته تثنية جعلته اثنين ، وثلثتهم جعلتهم ثلاثة، وربعتهم وخمستهم .. إلى (عشرتهم) ، وفي المخصص : «كانوا تسعة وعشرين فثلثتهم : أي صرت لهم تمام ثلاثين ، وكذلك جميع العقود الى المئة ، فإذا بلغت المئة قلت : «كانوا تسعة وتسعين فأمأيتهم ، وكانوا تسعمائة وتسعين فآلفتهم » .

٢ ــ واشتقوا من أسماء الأزمنة وهي أيضاً أسماء معان جامدة ، اشتقاقاً صريحاً يكاد يكون مطرداً . في اللسان : أخرف القوم: دخلوا في الخريف ، وشتوت بموضع كذا وتشتيت : أقمت به في الشتاء ،

(١) عن مجلة مجمع اللغة العربية ١/٣٨٥ فما بعد، باختصار وتصرف.

وأربعوا دخلوا في الربيع ، وتربعوا الموضع : أقاموا فيه بالربيع ، وأصافوا : دخلوا في الصيف وصافوا بمكان كذا ، وأفجروا دخلوا في الفجر ، ومثلها أصبحوا ، وأشرقوا : دخلوا في وقت الشروق ، وأظهروا وأعصروا وآصلوا ، وفي الحديث : (كان في سفر فاعتشى في أول الليل أي سار وقت العشاء) واستحروا وابتكروا . وساوعه : استأجره الساعة أو عامله بها ، وأليلوا .. الخ .

٣ ـ واشتقوا من أسماء الذوات كأعضاء الانسان ، فقالوا أذنه ورآه وسره ، أي ضرب أذنه ورئته وسرته .. الخ وتأبط الشيء ،وضعه تحت إبطه .. ومن غير أعضاء الانسان قالوا : أبرته العقرب : لسعته بابرتها ، وأبَل الرجلُ : كثرت إبله ، وأزرته : ألبسته إزاراً ، واستأسد وأسد : صار كالأسد .. الخ .

وقالوا : أورق الشجرُ ،وعقرب الصدغَ ، وفلفل الطعامَ الخ ومن الشجر قالوا : شجرت فلاناً بالرمح تأويله : جعلته فيه كالغصن في الشجرة[1] .

٤ — واشتقوا من أسماء الأصوات، حتى لقد ذكر ابن جنى أنه « ذهب بعضهم الى أن أصل اللغات كلها انما هو من الأصوات المسموعات كدوي الريح وحنين الرعد وخرير المياه ، ونعيق الغراب وصهيل الفرس، ... ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد . وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل »[2] .

---

(١) المزهر ١/٣٥١ (٢) الخصائص ١/٤٦

وأصل حكاية الاصوات في اللغة العربية على حرفين مثل (طَقْ ، قَبْ) او ثلاثة أوسطتها لين مثل (غاق) ومنها اشتقت الأفعال. فكلمة (صَلْ) يحكى بها صوت شيء يابس اذا تحرك والفعل المشتق منه (صلّ) ، فان تكرر قالوا (صلْصل) ، قالوا : صلّ اللجام اذا صوت. فاذا تكرر قلت : صلصل ، وسمي الطين اليابس (صلصالاً) لذلك . وكلمة (جِيءْ جِيءْ) دعاء الإبل للشرب فاشتقوا منه فعلاً فقالوا : « جأجأ بالابل » اذا دعاها للشراب ، وقال الراجز :

وما كان على الهِيء ولا الجِيء امتداحيكا

أي على الطعام والشراب .

ودعاء المعز بكلمة (عا ، عا) فجعل الراجز لاسم الصوت هذا فعلاً ومصدراً فقال :

يا عنز هذا شجر وماءُ عاعيْتُ لو ينفعني العيعاء

وآخر الأمثلة التي نقدمها كلمة (صخْ) وهي حكاية صوت حادث من ضرب صخرة بصخرة ، فاشتق العرب منها فعل (صخّ) واستعملوا كلمة (الصاخّة) وهي الصيحة تصخ الأسماع ، واشتقوا : أصاخ بمعنى استمع للصوت ، وربما كان اسم (الصخر) نفسه مشتقاً من اسم صوته، اشتقوا منه فقالوا : مكان مصخر كثير الصخر. وربما كان منه (صرخ) و (صخب) و (صخْد) وهو صوت الصرد. وقريب منه الصماخ للأذن

لأنه جزء من أداة السمع : وجميل ما ذكره بعض المحدثين[1] من جعلهم بعض الحروف اساساً في كلمات عدة يلاحظ صوته في معانيها جميعاً : كالنون في الطن والرن والقاف في الطرق والشق والدق .

٥ ــ واشتقوا من حروف المعاني أفعالاً ومصادر فقالوا : أنعم الرجل قال نعم ، سوّف الحاجة : اذا ماطل وقال مرة بعد مرة : سوف أقضيها ، وقالوا : (سألتك حاجة فلو ليت لي: قلت لي لولا ،[2] وقالوا

(١) احمد امين بك في محاضرة له (القياس) بمجمع اللغة العربية في دورة ١٩٤٩ وقال عقب ذلك : « وعند تحري هذا الباب نراهم يحاكمون أولاً صوت المسموع بالأذن ، ثم ينقلونه الى المبصر بالعين ، ثم ينقلونه الى المحسوس بباقي الحواس الخارجيه ثم الى المعقول بالعقل ، فمثلالو نظرنا الى كلمة (حسّ) وتتبعناها وجدنا أن المصدر الاصلي لـ (حس) كان صوتاً سينياً تخيلوا انه يسمع عند الحس أي عند المس باليد ثم انتقلوا من الاحساس باليد الى الاحساس بغيرها فسموا كل مايشعر به محسوساً وسموا الآلات التي يحس بها حواس ، ثم أطلقوها على العلم الحادث من الحواس ، وعلى اليقين الحاصل من العلم بها ، واشتقوا أحس بالشيء إذا ادركه بحاسته ، ونقلوه الى أحسست بالشيء أي أيقنت به . ثم نوعوا هذا الصوت السيني فجعلوه مرة (حساً) ومرة (لمساً) ومرة (مساً) .. وتارة يلحظون ما بين الحرف والمعنى من مناسبة فيلحظون في الحاء آخر الكلمة دلالة على الاتساع والانتشار : (ساح ، باح ، صاح ، شرح ، مرح) ، والكلمة المبدوءة بالشين على التشتت والتفرق مثل (شن ، شطر ، شعث ، شع) .. والمبدوءة بالغين على الغموض (غمض ، غاب ، غبش ، غار ، غطس ، غم .. » ــ انظر مجلة مجمع اللغة العربية ج ٧ ص ٣٥٧

(٢) الخصائص ٢/٣٤

لالى الرجل : قال : لا ، وقالوا : لوّى الكاتب لاء جيدة ، وقالوا : موّى اذا كتب (ما) ، و كوّف كافاً حسنة ، ودلّى دالا جيدة وزوّى زاياً قوية[1].

٦ — بل كان الاشتقاق عندهم كالعصارة المِعدية تخالط كل غذاء فتهضمه و (تمثله) للجسم متحولاً الى جنس دمه ، فقد صبت هذه العصارة على الأعلام العربية فقالوا تنزّر و تقحطن بمعنى انتسب الى نزار وقحطان[2] بل صبوها حتى على الأسماء الأعجمية ومازالت بها حتى لينتها للعربية وطوعتها فاشتقت منها ، قال أبو علي الفارسي :

« إن العرب اشتقت من الأعجمي النكرة كما تشتق من أصول كلامها ، قال رؤبة :

هل ينجيني حِلفٌ سختيت   أو فضة أو ذهب كبريت[3]

« فسختيت من السَخت كزحليل من الزحل ،» وحكى أيضاً عن ابن الاعرابي ... « يقال درهمت الخُبازي أي صارت كالدراهم فاشتق من الدرهم وهو اسم أعجمي »[4].

(١) انظر الخصائص ١/٢٧٥

(٢) جاء في كتاب صفة جزيرة العرب للهمداني : « ويدخل من تنزر بهامع الابناء ، ويدخل أهل البلد ومن تقحطن بها مع بني شهاب ،الابناء ابناء الفرس» — انظر الاكليل الجزء العاشر ص ١٥ الحاشية « ٤ »

(٣) في اللسان : هل ينجيني كذب سختيت . والسختيت : الصلب الشديد، اصله فارسي ، والدقيق الحوارى ، والغبار الشديد الارتفاع — وانظر الديوان

(٤) الخصائص ١/٣٥٨ الزحليل : السريع

« ومما اشتقه العرب من كلام العجم ما أنشدناه من قول الراجز :

هل تعرف الدار لأم الخزرج   منها فظلْتُ اليوم كالمزرّج

أي الذي شرب الزرجون وهي الخمر، فاشتق المزرج من الزرجون[1]

أما (زنديق ، ودينار ، وديوان ، ولجام ، ومهرجان ... الخ). فأشهر من أن يجهلها أحد ، فقد عربتها العرب وأكثرت من استعمالها حتى ظُن أنها عربية صرف ، واشتقوا منها أفعالاً ومصادر وصفات فقالوا : زندقة ، تزندق ، ومدنّر ، ودوّن تدويناً و (مهرجونا كل يوم[2])و (مرزب بهرامسيس على مرو)[2]. وقالوا من (الجوْرب) : (جوْربتهُ فتجوْرب) بمعني (ألبسته الجورب فلبسه)[3] وقالوا من (المنجنيق) : (جنّق الحجاج الكعبة[4]..الخ.

(٤)

أحكام تتعلق بالاشتقاق

المحقق وغيره – المطرد وغيره – أركان الاشتقاق – تغييراته – ما يتمنع على الاشتقاق – كتبه .

---

(١) الخصائص ١/٣٥٩

(٢) قال الاولى علي بن ابي طالب لما قدموا اليه حلوى يوم المهرجان ، ولما قدمت اليه حلوى يوم النيروز قال : « نيروزنا كل يوم » – تاج العروس مادة « نرز » .

وجاءت الثانية في تاريخ الطبري بمعنى : صار مرزباناًعلى مرو –٢/١٢٩٨ طبع ليدن .

(٣) انظر هذه المادة في لسان العرب (٤) انظر محاضرات الراغب ٢/٣٦٧

الاشتقاق المحقق : أن تظهر الدلالة على المعنى المراد بالاشتقاق ، مثل اشتقاق (عالم) من (العلم) . وهو ثلاثة أنواع:

الأول ــ المفرد : وهو الاشتقاق الذي لايعارضه اشتقاق آخر كـ(ضارب) من (الضرب)

الثاني ــ الراجح : وهو الاشتقاق الذي يعارضه اشتقاق آخر ، ولكن الأول أرجح ؛ وذلك مثل كلمة (الموسى):

قيل : هي (مُفْعَل) من أوسى بمعنى حلق ، وقيل هي (فُعْلى) من ماس بمعنى تبختر (وقيل من رجل ماس أي خفيف طياش): إلا أن كونها من (أوسى) أرجح من (ماس) ، لأن (مُفْعل) في كلامهم أكثر من (فُعْلى) وهو أقيس لأن (مُفْعل) يشتق من كل (أفْعَل)، أما (فُعلى) فليس كذلك ، ولأن مُفْعل منصرف و(فُعلى) غير منصرف

الثالث – الواضح ، وهو الذي يعارضه اشتقاق آخر بلا ترجيح، مثاله كلمة (الأولق) قيل هي من أَلِق بمعنى (جُنّ) فهي (فَوْعل) وقيل هي (أفعل) من (الوَلْق) وهو السرعة ، ولا مرجح لأحدهما[1]

والاشتقاق غير المحقق أن تكون فيه شبهة اشتقاق فلا يكون اللفظ دالاً على المعنى المراد، فكلمة (هِجْرِع) للرجل الطويل قيل إنها من (الجرع) وهو الطويل .

(١) ابن جني يجعلها فوعلا على كل حال « أصلها وولق » ثم قلبت

المطرد وغيره :

الاشتقاقُ المطرد عشرة أنواع : الافعال الثلاثة والاسماء المشتقة السبعة (اسم الفاعل واسم المفعول. والصفة المشبهة أحياناً. واسم الزمان واسم المكان واسم التفضيل واسم الآلة). وبقية المشتقات غير مطردة كالتي مرت بك وك (القارورة) للزجاجة التي يقر فيها الماء.

اركانه : لا بد في الاشتقاق من أركان أربعة ١ ـ المشتق ٢ ـ المشتق منه ـ ٣ ـ تشاركهما في المعاني والحروف ٤ ـ ان يكون بينهما تغيير لفظاً مثل (طالب من الطلب) أو تقديراً مثل (طلب من طلب). ونعرف اشتقاق كلمة من أخرى بتقليبها على جميع الصيغ، حتى نرجع الى صيغة توجد في جميع تصاريفها ، فكلمة (عالم) ليست مشتقة من معلوم لنقص بعض الحروف منها .

تغييراته : رد السيوطي تغييرات الاشتقاق الى خمسة عشر :

١ ـ زيادة حركة : عِلم وعلِمْ .

٢ ـ زيادة مادة : طالب وطلَب .

٣ ـ زيادتهما : ضارِب وضرْب .

٤ ـ نقصان حركة : الفرْس والفرَس .

٥ ـ نقصان مادة : ثَبت وثبات .

٦ ـ نقصانهما : نزا ونزوان .

٧ ـ نقصان حركة وزيادة مادة كغضبى وغضَب .

٨ — نقصان مادة وزيادة حركة كحرم وحرْمان ٠
٩ ـــ زيادتهما مع نقصانهما كاستنوق والناقة ٠
١٠ ـــ تغاير الحركتين كبطِر وبطَراً ٠
١١ ـــ نقصان حركة وزيادة حركة وحرف كاضرب من الضرب.
١٢ ـــ نقصان مادة وزيادة أخرى كراضع من الرضاعة ٠
١٣ — نقصان مادة وزيادة أخرى وحركة فقط كخاف من الخوف.
١٤ ـــ نقصان حركة وحرف وزيادة حركة فقط ك(عِدْ) من (الوعد) : فيه نقصان الواو وحركتها، وزيادة كسر العين.
١٥ ـــ نقصان حركة وحرف وزيادة حرف ك(افخر) من(الفَخار) نقصت الف وفتحة وزادت الف [1].

الممنوع من الاشتقاق :

قالوا : لا يدخل الاشتقاق ستة اشياء :

١ ـــ الأسماء الاعجمية .
٢ — أسماء الاصوات ٠
٣ — الاسماء المتوغلة في الإبهام مثل (من ، ما، مهما) وما شابهها٠
٤ ـــ الالفاظ النادرة مثل : طوبى ٠

---

(١) المزهر ١/٣٤٨ هذا والذي في الاصل ك « فاخر » من الفخار نقصت ألف وزادت الف وفتحة ، ولم تظهر لنا صحته فرجحنا ما اثبتناه ، لانه هو المثل الذي يطابق الوصف المذكور .

٥ – الأسماء التي لها معان متقابلة كـ(الَجون) فهو الأبيض والأسود وكذا سائر أسماء الأضداد .

٦ – الحروف .

وما ورد من ذلك فهو نادر مقصور على السماع - ا هـ .

وقد عرفت مما تقدم لك أنهم لا يقتصرون على السماع ، فاشتقوا من الحروف والأسماء الأعجمية وإسماء الأصوات وغيرها .

كتب الاشتقاق :

قال السيوطي : « أفرد الاشتقاق بالتأليف جماعة من المتقدمين : منهم قطرب (ـ٢٠٦) والاصمعي (ـ٢١٥)، وابو الحسن الاخفش (ـ٢٢١)، وابو نصر الباهلي (ـ٢٣١)، والمفضل بن سلمة (ـ٢٥٠) والمبرد (ـ٢٨٥) والزجاج (ـ٣١١) وابن السراج (ـ٣١٦)، وابن دريد (ـ٣٢١)، وابو جعفر النحاس (ـ٣٣٨). وابن خالويه (ـ٣٧٠) ، والرماني (ـ٣٨٤) له الاشتقاق الكبير و(الاشتقاق المستخرج) ويوسف الزجاجي الجرجاني (ـ٤١٥)، وابو عبيد البكري (ـ٤٨٧). وجمال الدين الشريشي الاندلسي (ـ٦٨٥) وعلي الخوارزمي حجة الافاضل (ـ٦٨٦). ومن هؤلاء من قصر الكلام على ناحية خاصة هي اشتقاق الاسماء كالباهلي والمفضل ويوسف الزجاجي والبكري والخوارزمي، ومنهم من زاد في التخصيص كابن دريد فكسر كتابه على (اشتقاق اسماء القبائل) والكتاب مطبوع متداول[1] .

(١) المزهر ١/٣٥١ وانظر انباه الرواة ١/١٠٣ و ص ١٠٨، ١٠٩، ١٦٥=

وقلما نجد أحداً من أعلام العربية ممن يذكر في فهرست ابن النديم أو غيره من كتب الطبقات إلا عالج هذا الموضوع ، إن لم يكن في كتاب مستقل ففي ضمن بحث آخر . وعاد إلى طرقه في هذا العصر المشتغلون باللغة في مناسبات شتى في الصحف والمجلات العلمية. من هؤلاء الشيخ عبد القادر المغربي فقد أخرج كتابه (الاشتقاق والتعريب) قبل أكثر من خمسين سنة [1].

(٦)

خاتمة

إذا صح أن ولد إسماعيل لم يزالوا « على مر الزمان يشتقون الكلام بعضه من بعض، ويضعون للأشياء أسماء كثيرة بحسب حدوث الأشياء الموجودات وظهورها» [2] فالذي لا شك فيه أننا لم نجار هؤلاء العرب

= ٣٢٥. هذا وفي الفهرست لابن النديم أن لنفطويه (ـ ٣٢٣) كتاب الرد على من زعم أن العرب تشتق الكلام بعضه من بعض. انظر ترجمته فيه وفي كتاب «إنباه الرواة» للقفطي حيث نسب اليه كتاباً يبطل الاشتقاق «١/١٨٠ مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠ م » وجاء في هذا المصدر ص ١٧٨ أنه كان ينكر الاشتقاق ويحيله وله في ذلك مصنف وكل حجة فيه مدخولة وكان أبو بكر ابن السراج في طرف آخر في هذا النوع : يتهافت في الاشتقاق واثباته واستعماله تهافتاً يخرجه عن حد الحقيقة الماشية على أصول من تقدم ا . هـ .

(١) [طبع سنة ١٩٠٨ وأعيد طبعه سنة ١٩٤٧] .

(٢) ابن النديم ص ٧ .

الأولين في عملهم ، ولعل في تحجير علماء العربية الأقدمين عاملاً هاماً في صدأ هذه الآلة الخيِّرة : الاشتقاق .

كل من يتصفح معاجم اللغة يعرف بعد شيء من الممارسة، أن مواد اللغة فيها ناقصة ، فلسنا نجد في مادة ما كل الصيغ المجردة والمزيدة في الأفعال والأسماء . وقد أحببت أن أورد لك مثالاً على ذلك مادة (الاشتقاق) نفسها ، فرجعت الى هذه المادة في (لسان العرب) و (تاج العروس) وهما أكبر المعاجم المطبوعة على الإطلاق ، فوجدت فيهما من هذه المادة الصيغ الآتية وقد رتبتها لك مجردة فمزيدة :

الافعال	الاسماء
شَقّ	شقاً
أشقّ النخلُ : طلعت أكامه	شِقّ : نصف
شقّق الكلام	شق
شاقّ	المشق
شقشق الفحل : هدر	الشقق: الطول
انشقّ	الشُقّة: البعد
تشقّق	المشقة
اشتق	الشِقة : من العصا والثوب ما شق طويلا
تشاقّ الرجلان	الأشقّ : الطويل والانثى شقاء
استشق بالجوالق : حزمه على أحدشقيه الشقيق	

الأسماء	الأفعال
الشقيقة فرجة بين جبلين تنبت العشب	
الشقوقة: طائر	
الشُقاق: شق في الجلد من داء	
الشُقّاق: موضع	
الشقشقة: للبعير شيء يخرجه من فيه كالرئة	

فاذا عارضنا ماوجدنا من هذه الأفعال بالأوزان التي جمعها الصرفيون للفعل، وجدنا هذه المعاجم سكتت عن الصيغ الآتية:

من مزيد الثلاثي: اشْقَقّ، اشقاقّ، اشقوّق، اشقوقق.

من مزيد الرباعي: تشقشق، اشْقققّ، اشقنقق.

ولئن كان حسنا اللغوي يميل الى اهمال مثل (اشقوقق، اشققق) لثقلها في النطق والسمع، ان هذا الثقل اصاب هذه المادة خاصة لمكان القافات المتتالية، والقاف وحدها حرف فخم غير خفيف.

اما الأسماء فاذا نحن قابلناها مثلاً بما حشر لنا السيوطي في مزهره من اوزان الاسماء والمصادر التي ذهب هو وغيره الى قصرها على السماع، وجدنا اكثر من سبعين صيغة لم يرد عليها من مادة (شق) ولا كلمة من امثال (فَعْول، فَعْلال، فُعلى، أفعلان، أفَنْعل، فُعاعيل، فَعْلول، فعليل ...الخ)[1].

إن هذه الصيغ ضربت عليها الأسداد حتى ماتت، فلسنا نستعمل

(١) ارجع اليها مسرودة في المزهر ٢/٤٩ - ٦٩، ٢/١١٧ - ١٥٦

منها في لغتنا اليوم الا قدراً ضئيلا يستوي هو والعدم .

وما أكثر مانجد في دواوين اللغة وكتب القواعدمثل قولهم (ليس في العربية على وزن كذا الا كلمتان او كلمات) ، ولما قال بشار على هذا الوزن (الوجلي والغزلي) طعنوا عليه وقال الأخفش : «لم يسمع من الوجل والغزل : (فعلى) وانما قاسهما بشار ؛ وليس هذا مما يقاس انما يعمل فيه بالسماع»[1] .

فيحار المرء ويتساءل : من جمع لهم العربية كلها في طبق فأحصوا كلمها عداً ثم حكموا متثبتين: «ليس في العربية من كذا الا كذا ؟» ولو قال قائلهم: «لا اعرف من كذا إلا كذا »لكان اقرب الى النصفة واصدق قيلا . هذا وهم جميعاً موقنون انه ماوصل الى الرواة من اللغة الا اقلها ، ولم تدون المعاجم كل ماروت الرواة .

وأبعدفي الغرابةمماتقدمانهم نقلوا الحظر الى الاوزان المطردة في الافعال ، فذهبوا الى انه لايشترط في كل مجرد ان تكون له كل الاوزان المزيدة ، وغالى الرماني منهم فضرب في حظره الرقم القياسي - كما يقولون - حين منع ما أجمعوا على قياسه،وهو اشتقاق اسم المفعول من الثلاثي المتعدي،فقال: « لايقاس من (نفع) اسم مفعول!! »[2] .

وبعد ، فالاعتدال أن نشتق ما نحتاج اليه اليوم على أوزان العرب وأساليبها في تشقيق الصيغ دلالة على تنويع المعاني ، فإذا أردنا أن ندل

---

(١) القياس في اللغة العربية ص ٥١ (٢) القياس في اللغة العربية ص ٦٤

على الثبوت مثلاً في صفة ما من مادة لم يرد فيها عن العرب صفة مشبهة اشققنا منها (فعيلاً) اذ كانت (فعيل) أكثر الصيغ دوراناً في الصفات المسموعة ، وكذلك نفعل في مزيدات الأفعال وصيغ الأسماء .

وقد خطا مجمع اللغة العربية خطا مباركة في طرده القياس ، في المصادر والصفات ، ورأيت نمطاً من قراراته في الاشتقاق آخر بحث القياس فلا نعيد هنا منها شيئاً .

فإذا خطونا خطوة تالية فأبحنا للكتاب والشعراء اشتقاق المزيدات والصيغ كلها في الأفعال والأسماء من كل مادة ، بشرط الحاجة والتوفيق في الاشتقاق، ومراعاة المعنى الذي أرادته العرب من كل صيغة، اذا تم ذلك رجونا أن يكون على أيدي العبقريين من المطبوعين . استجابة اللغة العربية لكل المطالب الحضارية في حياتنا المادية والوجدانية .

لا بد اذن من اعادة النظر في باب الاشتقاق، والوقوف على استعداد اللغة العربية فيه ، والإفادة من مرانتها وطواعيتها وكنوزها المعطلة ، لتلبي حاجات عصرنا الحديث بل حاجات كل عصر ،فنطرد من قواعده ما كان غير مطّرد ، ونكمل المواد الناقصة في المعاجم ، ونشتق من من الأعيان وغيرها كل ما تدعو اليه حاجة ،فلا تزال لغتنا غنية بامكانياتها تنتظر اقدام المقدمين من الواقفين على مزاياها وأسرارها بعد أن طال بلاؤها من إحجام المحجمين أحقاباً طوالاً .

ومن ينعم النظر في هذه المشتقات التي أوردناها من أسماء المحسوسات

ومن اسماء الأصوات والحروف ... ويرد الفكر الى القواعد التي وضعوها بين ايدينا، يجد العرب والعربيه قد سبقا تلك القواعد اشواطاً بعيدة جداً ، فقد افادوا من لغتهم اضعاف مايتصور القاعديون .

للغتنا غنى وافر وطبيعة مسعفة [1] يحسدها عليهما كثير من اللغات فهي كنز يطلب من يكتشفه ويحسن استخدامه والافادة منه. وعلى أن مجمع اللغة العربية بمصر قد التفت قليلاً الى هذه الناحية ، لا تزال الشقة — كما قلت سابقاً — بعيدة بين همته وأن يحسن الانتفاع بمزايا العربية حق الانتفاع [1] .

---

(١) قرر الاستاذ ماسينيون في الدورة الثالثة عشرة لمجمع اللغة العربية في القاهرة أن « اشتقاق الاسماء في العربية واضح ، ولكنه في الفرنسية مبهم » مجلة مجمع اللغة العربية ٣٨/٧

«٢» ويتضح شرح ذلك في إهماله الاستفادة من الصيغ الآتية في جعلها تطرد في الدلالة على الآلة :

فِعال و فِعالة مثل ضِماد ، حِزام ، خِياط ، حمالة .. الخ

وفاعَل مثل : خاتَم ، قالَب ، طابَع

و فُعال و فُعالة مثل : خُطّاف ، نُشّاب ، دُرّاعة ، دُوّامة

وفاعول مثل : راقود ، راووق ، طاحون ، ناقور

كما يمكن إغناء الصيغ الدالة على اسم الفاعل بمثل :

فِعْل وفعيل وفعيل « اسماء فاعلين من فاعَل مفاعلة » مثل : قِرن وقرين ، شِبه وشبيه ، مِثل ومثيل ، قسيم شَبَّع « مالك بالشيوع »

وكجعل وزن « فُعلة » مطرداً في الدلالة على اسم المفعول مثل: ضُحكة طُعمة ، فرصة ، كُسوة ، لقمة ، نقطة .

الخلاف

بين نحاة البصرة والكوفة

الخلاف

لمحة تاريخية « مدرسة البصرة – مدرسة الكوفة » ٢ – نشأة الخلاف ٣ – الفروق بين المذهبين ٤ – أثر العصبية في الخلاف ٥ – كتب الخلاف ٦ – بعد المذهب البصري والمذهب الكوفي .

(١)

لمحة تاريخية (مدرسة البصرة – مدرسة الكوفة)

ما مضى لك بيانه من أحداث اللحن حمل القوم على الاجتهاد لحفظ العربية وتيسير تعلمها للأعاجم . فشرعوا يتكلمون في الاعراب وقواعده حتى تم لهم مع الزمن هذا الفن . والذي تجمع عليه المصادر أن النحو نشأ بالبصرة وبها نما واتسع وتكامل وتفلسف ، وأن رؤوسه بنزعتيه كلهم بصريون .

أول من أرسل في النحو كلاماً أبو الأسود الدؤلي (-٦٧) ، وقيل ان علياً هو الذي ألقى على أبي الأسود شيئاً من أصول النحو ثم قال له : (انح هذا النحو)، وقيل ان أول من تكلم فيه: نصر بن عاصم(-٨٩)، وقيل: عبد الرحمن بن هرمز (-١١٧)، وقيل لم يصل الينا شيء عن أحد قبل يحيى بن يعمر(-١٢٩) وابن أبي اسحاق الحضرمي(-١١٧).. الخ .

ومن يقرأ بإمعان ترجمة أبي الأسود في تاريخ دمشق لابن عساكر مثلاً ، ثم يفكر في توارد أكثر المصادر على جعله واضع الأساس في

بناء النحو لا يستبعد ذلك ، فالرجل ذو ذكاء نادر وجواب حاضر ، وبديهة نيّرة ، ثم هو بعدُ بليغ أريب مرن الذهن، وحسبك اختراعه (الشكل)[1] الذي عرف بنقط أبي الأسود للدلالة على الرفع والنصب والجر والتنوين، وهو ما أجمعوا عليه قديماً ولم يشكّ فيه حديثاً أحد. و (الشكل) أعود على حفظ النصوص من حدود النحو ؛ ولعله أعظم خدمة قدمت للعربية حتى الآن ، وكان الخطوة الأولى الى النحو كما ذهب اليه الأستاذ احمد امين[2] .

وينص ابو الطيب اللغوي على أن ابا الأسود وضع النحو ليتعلم بنو زياد[3] « واختلف الناس اليه يتعلمون العربية وفرّع لهم ماكان أصّله

---

(١) اختار ابو الاسود كاتباً وأمره أن يأخذ المصحف وصبغاً يخالف لون المداد وقال له : إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه فإن ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف ، وان كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف ، فإن أتبعت شيئاً من ذلك غنة فاجعل مكان النقطة نقطتين ،فهذا نقط أبي الاسود . — أخبار النحويين البصريين لأبي سعيد السيرافي « ص ١٦ » « المطبعة الكاثوليكية في بيروت » . وتهذيب تاريخ ابن عساكر ١٠٩/٧ . والفهرست لابن النديم ص ٦٠

وهذا سبب اطلاق الفتح والكسر والضم على الحركات المعروفة فيما أرى ، اذ كان أبو الاسود أول من استعملها . أما السكون في هذا المصحف فعلامته التجرد من العلامة .

(٢) ضحى الاسلام ٢٨٧/٢ وانظر مراتب النحويين ص ١٠

(٣) مراتب النحويين ٨ ، ١٠

فأخذ ذلك عنه جماعة » .

وليس يعنينا هنا تحرير هذه الأولية فذلك بتاريخ النحو أشبه[1] ،

---

(١) وما أقرب رواية أبي الفرج من الواقع والاعتدال حين سلسل لنا الخطوات في عبارة فيها كثير من الاقتصاد قال راوياً عن المدائني :

« أمر زياد أبا الاسود الدؤلي أن ينقط المصاحف فنقطها ، ورسم من النحو رسوماً ثم زاد فيها بعده عنبسة بن معدان ثم جاء عبد الله بن ابي اسحاق الحضرمي وابو عمرو بن العلاء فزادا فيه ، ثم جاء الخليل بن احمد الأزدي وكان صليبة فلحبه ، ونجم علي بن حمزة الكسائي مولى بني كاهل من أسد فرسم للكوفيين رسوماً فهم الآن يعملون عليها . » — الاغاني ١١/١٠١ ، وسيمر بك بعض تفصيل عن هؤلاء الاعلام ، ولا بأس في تنبيهك الى أن ابا الفرج نص في أول ترجمته لأبي الاسود ، على أنه « كان الاصل في بناء النحو وعقد أصوله .»

وابن سلام يقول : اول من استن العربية وفتح بابها وانهج سبيلها ووضع قياسها ابو الاسود » طبقات فحول الشعراء ص ١٢ طبعة دار المعارف .

والزبيدي الاندلسي المتوفى سنة ٣٧٩ هـ رواية مفيدة يسلسل فيها الخطوات الاولى في كتابه طبقات النحويين واللغويين ص ٢١٥ قال :

(ابن أبي سعد قال حدثنا علي بن محمد الهاشمي قال : سمعت أبي يذكر قال : كان بدء ما وضع ابو الاسود النحو أنه مر به سعد وكان رجلا فارسياً قدم البصرة مع أهله ، وكان يقود فرسه فقال : مالك يا سعد ؟ ألا تركب ؟ فقال « فرسي ضالع » فضحك به من حضره . قال ابو الاسود : « هؤلاء الموالي قد رغبوا في الاسلام ودخلوا فيه وصاروا لنا إخوة » فلو علمناهم الكلام ، فوضع باب الفاعل والمفعول لم يزد عليه . قال أبي : « فزاد في ذلك الكتاب رجل من بني ليث أبواباً ، ثم نظر فإذا في كلام العرب ما لا يدخل فيه فأقصر عنه ، فلما كان عيسى بن عمر قال : « أرى أن أضع الكتاب على الأكثر وأسمي الأخرى لغات . فهو أول من بلغ غايته في كتاب النحو » .

ولكننا لا نرى بدأ من أن نشير الى أن اتفاقهم على أنه واضع (الشكل) وأن شبه الاجماع على أنه أول من تكلم بالنحو وأنه كان يتصدر لإعراب القرآن»[1] ، وأن هؤلاء الذين تزعم لهم الأولية في بعض الأقوال : نصر بن عاصم ، ويحيى بن يعمر ، وعنبسة الفيل ، وميمون الأقرن ،. كلهم تلميذ ابي الأسود او تلميذ تلميذه ، عنه أخذوا العربية والقراءة بالبصرة ؛ كل اولئك مع ما عرف عن ابي الأسود من ذكاء وقاد ، وفكر متحرك ، وعقل وروية ، . يجعلنا نقطع بأنه وضع اساساً بنى عليه من بعده . ولكن ، ما هو هذا الأساس ؟

لسنا نجد لهذا السؤال جواباً يشفي الغليل ، فصحيفة ابي الأسود تعرف عند النحاة بـ (التعليقة) ، فإذا أردنا معرفة محتوياتها لم نحظ بما يطمأن اليه[2] ، بل فات معرفتها العلماء منذ المئة الرابعة مع شدة حرصهم

---

(١) في ترجمة حر بن عبد الرحمن القاري النحوي أنه : سمع أبا الاسود وعنه طلب إعراب القرآن أربعين سنة . — بغية الوعاة ص ٢١٥

(٢) أما ابن الانباري فقد اطمأن الى خبر ذكره في أول كتابه « نزهة الالباء في طبقات الأدباء ص ٥ » حين روى أن علي بن أبي طالب دفع الى ابي الاسود رقعة فيها : « الكلام كله اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما انبيء به ، والحرف ما أفاد معنى . واعلم ان الاسماء ثلاثة : ظاهر ومضمر ، واسم لا ظاهر ولا مضمر ، وانما يتفاضل الناس فيما ليس بظاهر ولا مضمر ... » ثم يذكر ابن الانباري ان ابا الاسود وضع ابواب « العطف ، والنعت ، والتعجب ، والاستفهام » الى ان وصل الى باب إن

عليها فيروي ابن النديم خبراً طريفاً عن رجل جمّاعة للكتب له خزانة

واخواتها ماخلا لكن ، فلما عرضها على علي امره بضم (لكن)اليها ، وكلماوضع باباً من أبواب النحو عرضه عليه » ا ه

ولست ادري هل ابقت امور الخلافة والحروب والفتن لعلي وقتاًيفرغ فيه للتأليف في العلوم وتنقيحها واختراعها ؟ ولعل الاستاذ أحمد أمين لم يكن بعيداً من الصواب حين روى هذا الخبر فعلق عليه بما يأتي :

« وكل هذا حديث خرافة فطبيعة زمن علي وابي الاسود تأبى هـذه التعاريف وهذه التقاسيم الفلسفية ، والعلم الذي ورد الينا من هذا العصر في كل فرع يتناسب مع الفطرة ليس فيه تعريف ولا تقسيم ، انما هو تفسير آية او جمع لاحاديث ليس فيها ترتيب ولا تبويب ، فأما تعريف واما تقسيم منطقي فليس في شيء مما صح نقله الينا عن عصر علي وابي الاسود واخشى ان يكون ذلك من وضع بعض الشيعة الذين أرادوا ان ينسبوا كل شيء الى علي واتباعه»
— ضحى الاسلام ٢/٢٨٥

وانا مع عدم استبعادي كثيراً صدور كلام مثل هـذا عن ابي الاسود بعـد موت علي بسنين حين اعتزل العمل الرسمي وفرغ لمثل هذه الشؤون ، لاأطمئن الى ماروى ابن الانباري

حتى ابن فارس الذي ذهب الى قدم النحو قبل زمن ابي الاسود بكثير لاينكر إمامته وتجديده فقد قال : « فإن قال قائل : لقد تواترت الروايات بان ابا الاسود اول من وضع العربية وأن الخليل اول من تكلم في العروض، قيل له : نحن لاننكر ذلك ، بل نقول : إن هذين العلمين قد كانا قديماً وأتت عليهما الايام وقلا في أيدي الناس ، ثم جددهما هذان الامامان . «الصاحبي في فقه اللغة ص ١٠ ونقله بنصه السيوطي في المزهر ٢/٣٤٥

لكني اقف عند قولة المبرد « قرأت اوراقاً من كتابي عيسى بن عمر فكان كالاشارة الى الاصول » واقول إذا كانت كتب الطبقة الثالثة هذه كالاشارة الى الاصول فما حال نحو ابي الاسود ؟ [توفي ابو الاسود سنة ٦٧ وعيسى بن عمر سنة ١٤٩ هـ] . — انظر نزهة الالباء .

لم يُرَ لأحد مثلها بما جمعت من خطوط العلماء الأولين ونوادر الكتب والرقاع فهي متحف كل ما فيه نادر ثمين ، قال الذي شاهدها :

«... ورأيت عنده أمانات وعهوداً بخط امير المؤمنين علي عليه السلام وبخط غيره من كتاب النبي ﷺ ، ومن خطوط العلماء في النحو واللغة مثل ابي عمرو ابن العلاء وابي عمرو الشيباني والأصمعي وابن الأعرابي وسيبويه والفراء والكسائي ومن خطوط أصحاب الحديث مثل سفيان بن عيينة وسفيان الثوري والأوزاعي وغيرهم ورأيت ما يدل على ان النحو عن ابي الاسود ماهذه حكايته : وهي اربع اوراق أحسبها من ورق الصين ترجمتها : هذه فيها كلام في الفاعل والمفعول عن ابي الاسود رحمة الله عليه بخط يحيى بن يعمر وتحت هذا الخط بخط عتيق : هذا خط علان النحوي ، وتحته : هذا خط النضر بن شميل .

ثم لما مات الرجل فقدنا القمطر وما كان فيه فما سمعنا له خبراً ... على كثرة بحثي عنه »[1] .

فليسعنا من الأسف والحسرة على تعليقة ابي الأسود ما وسع

---

(١) الفهرست ص ٦١

ثم تظهر فجأة بعد أكثر من مئة سنة عند ابراهيم بن عقيل القرشي -٤٧٤ هـ فيزعم لأصحابه من أهل الحديث أن عنده تعليقة أبي الأسود التي القاها عليه علي ابن أبي طالب ، ويعدهم بها ويستنجزونه ويرجيهم فلا يظفرون منه بطائل ، ثم يكتبها عنه - فيما رووا - ففيه مالكي اسمه ابو العباس أحمد بن منصور « وإذا به قد ركب عليها إسناداً لاحقيقة له ... وهذه التي سماها التعليقة هي في أول أمالي ابي القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي النحوي نحو عشرة اسطر فجعلها هذا الشيخ ابراهيم قريباً من عشر اوراق . » اهـ - انظر تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٣٣١/٢ مطبعة روضة الشام ١٣٣٠ هـ .

قلت : ليس في أمالي الزجاجي المطبوعة من هذه التعليقة أثر ما ، وابن عساكر على حق حين يتوقف في توثيق ابراهيم بن عقيل بعد هذا التدليس .

العلماء قبلنا بألف عـام اذ كان لا سبيل الى المعرفة الشافية .

اخذ عن ابي الأسود : يحيى بن يعمر ، وعنبسة الفيل ، وميمون الأقرن ونصر بن عاصم وعطاء بن ابي الأسود ، وابو نوفل بن ابي عقرب[1] ، وعن هؤلاء اخـذ علماء البصرة طبقة بعد طبقة ، ثم نشأ بعـد نحو مئة عام من تلاميذهم من ذهب الى الكوفة فعلّم بها ، فكان منه ومن تلاميذه ما يسمى بمدرسة الكوفة[2] .

وهذا جدول[3] يوضح لك تتابع هذه الطبقات الى المئة الثالثة للهجرة:

---

(١) إنباه الرواة ٣٨٢/٢

(٢) على أن هناك من ذهب الى وجود مدرسة ثالثة هي مدرسة المدينة ، وأن رأسها عبد الرحمن بن هرمز الذي مر بك (ص ١٦١) أنه أحد الذين نسبت اليهم أولية الكلام في النحو . وهذا شيء لم يشتهر ، لكن القفطي ذكر في هذا كلاماً أنا مثبته لفائدته فقد جاء في إنباه الرواة في ترجمته :

قال أهل العلم : انه أول من وضع علم العربية والسبب في هذا القول أنه أخذ عن أبي الاسود الدؤلي وأظهر هذا العلم بالمدينة ، وهو أول من أظهره وتكلم فيه بالمدينة ، وكان من أعلم الناس بالنحو وأنساب قريش ، وما أخذ أهل المدينة النحو إلا منه ، ولا نقلوه إلا عنه ، وإليه أشار ابن برهان النحوي في أول شرحه في (اللمع) بأن قال : « النحاة جنس تحته أنواع : مدنيون ، بصريون ، كوفيون ، ... ويروى أن مالك بن أنس إمام دار الهجرة ترد إليه لطلب النحو واللغة قبل إظهارهما .. مات سنة ١١٧ » ـ إنباه الرواة ١٧٢/٢ .

هذا واحد وأما الثاني فبشكست الذي مر بك خبره ص ١٣

(٣) عن ضحى الاسلام ٢٨٤/٢ . وتكرر الاسم معناه تعدد مشايخ صاحبه أما الاعلام المدرجة أسماؤهم بخط رقعي فهم كوفيون ، والباقون بصريون .

أبو الأسود الدؤلي (– ٦٧)

عنبسة الفيل | ميمون الأقرن | نصر بن عاصم (– ٨٩) | يحي بن يعمر (– ١٢٩)

أبوعمرو بنالعلاء (٧٠–١٥٤) | ابن أبي إسحاق الحضرمي(–١١٧)

عيسى بن عمر الثقفي(–١٤٩)

أبو زيد | يونس(٩٠–١٨٢) | أبوجعفر الرؤاسي | الأخفش (–١٧٧) | عيسى بن عمر الثقفي

سيبويه (–١٨٠) | أبو زيد(–٢١٥) | الكسائي(١٨٩) | يونس | سيبويه | أبو زيد | الخليل بن أحمد (١٠٠-١٧٥) | أبو جعفر الرؤاسي

الفراء | سيبويه | أبو زيد | الكسائي | سيبويه | الكسائي | الفراء(١٤٤ـ١٠٧) | الكسائي

سيبويه

الفراء

فأنت ترى أن أعلام الكوفة كلهم أخذوا عن أئمة البصريين بأخرة .

الطبقة الاولى من البصريين

فأما عنبسة فقد تعلم النحو وروى الشعر وظرف[1] حتى صار - على ما يروى عن الخليل - أبرع أصحاب أبي الأسود ». [2]

وأما ميمون فرأس الناس بعد عنبسة ويروون عن أبي عبيدة قوله : « أول من وضع العربية أبو الأسود ، ثم ميمون الأقرن ، ثم عنبسة الفيل ، ثم عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي ». [3]

وأما نصر بن عاصم الليثي فكان أحد القراء والفصحاء ، وأخذ عنه أبو عمرو ابن العلاء والناس ، قال عنه الزهري : « إنه ليفلق بالعربية تفليقاً » ، بل منهم من ذهب إلى أنه أول من وضع العربية ». [4]

وأما يحيى بن يعمر فقد عرفت علمه وفصاحته ، وعرفت شأنه مع الحجاج ، ووصفوه بالعلم والأمانة ، وقد روى عن ابن عمر وابن عباس وغيرهما [5]

والذي يجب التنبيه إليه قبل الانتقال إلى الطبقة الثانية أن تلميذي أبي الأسود : نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر خطوا الخطوة الكبرى التي تلت خطوة أبي الأسود في ضبط الكتابة العربية ، إذ ابتكرا نقط الحروف أفراداً وأزواجاً لتمييز الحروف المتشابهة كالباء والياء والنون ، فعلا ذلك باشارة الحجاج على

---

(١) اخبار النحويين البصريين ص ٢٤ (٢) المزهر ٢/٣٩٨

(٣) اخبار النحويين البصريين ص ٢٥ .

(٤) المصدر نفسه ص ٢١ ، ٢٠ والفهرست لابن النديم ص ٥٩ .

(٥) ص ٩ من هذا الكتاب وص ٥٢ من الفهرست وص ٢٢ من أخبار النحويين البصريين .

ماذكروا ، وبعد تردد منها في أن يزيدا شيئاً على رسم مصحف عثمان ، ثم بان لها صواب الاصلاح بعد روية ، فأقدما عليه .

بل إن ليحيى هذا أولية في التأليف فقد ذكروا أنه اتفق هو وعطاء بن أبي الأسود بعد موت أبيه « على بسط النحو وتعيين أبوابه وبعج مقاييسه .. ولما استوفيا جزءاً متوفراً من أبواب النحو نسب بعض الرواة اليها أنهما أول من وضع هذا النوع . »[1]

ولكن المشهور أن نصراً هو الذي ميز بين الحروف المتشابهة بالنقط المتداول حتى اليوم وغير ترتيب (الأبجدية) الى الترتيب المعروف ، ثم ألغى نقط أبي الاسود مستبدلا به (الشكل الحالي) الذي هو أبعاض الحروف (اوي) . فنقط أبي الاسود (إعراب) لإبانته عن حركة آخر الكلمة ونقط نصر (إعجام) لإزالته العجمة عن الحروف وكان يلتبس بعضها ببعض[2] .

الطبقة الثانية من البصريين

وفيها ابو عمرو بن العلاء وعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي .

فأما الاول فمن أشراف مازن وأحد الأعلام في القرآن واللغة والنحو ، وهو أحد القراء السبعة ، قال فيه أبو عبيدة : « أعلم الناس بالقراءات والعربية وأيام العرب والشعر ، وكانت دفاتره ملء بيته إلى السقف » كان مرجع الناس

---

(١) إنباه الرواة ٣٨٠/٢

(٢) جاءت امرأة الى الفرزدق تستنجد به قائلة : « إن ابني مع تميم بن زيد القيني بالسند ، وقد اشتقت إليه ، فإن رأيت أن تكتب إليه في أن يقفله إلي » فكتب إلى تميم :

تميم بن زيد لاتكونن حاجتي بظهر فلا يخفى على جوابها =

في عصره ، وخير مايعبر عن مكانته في عيون معاصريه حديث سفيان بن عيينة ، قال : « رأيت النبي ﷺ في النوم فقلت . يا رسول الله لقد اختلفت علي القراءات فبقراءة من تأمرني ؟ فقال : بقراءة أبي عمرو بن العلاء . »[1] وأخذ عن نصر بن عاصم المتقدم ذكره ، وعن يحيى بن يعمر ، وعن قارىء مكة عبد الله بن كثير . وأقام بين البدو أربعين سنة كما قرر اليزيدي [ص ١٧١ مجالس العلماء للزجاجي] .

« وأخذ عنه عيسى بن عمر ويونس بن حبيب وابو الخطاب الاخفش فكان هؤلاء الثلاثة أعلم الناس وأفصحهم »[2] وأما عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي فقد مر بك أمره مع الفرزدق ، وهو في زمن أبي عمرو والناس يفاضلون بينهما فيقدمون أبا عمرو في اللغة ويقدمون ابن ابي إسحاق في النحو وهو « أعلم أهل البصرة وأعقلهم ، فرع النحو وقاسه ، وتكلم في الهمز حتى عمل فيه كتاب مما أملاه »[3] ويذكرون أنه أول من علل النحو .

= أتتني فعاذت يا تميم بغالب وبالحفرة السافي عليه ترابها
فهب لي «خنيساً» واتخذ فيه منة أصبه لأم لا يسوغ شرابها

فلما ورد الشعر على تميم أشكل عليه الاسم لفقدان النقط على الحروف]

فقال : « أفقلوا كل من اسمه خُنَيس أو حبيش أو حُنيش ، أو حشيش ، أو خشيش » فعُدوا فكانوا ثمانين رجلا . ــ الأضداد لابن الأنباري ص ٢٥٦ [لاتكونن حاجتي بظهر = لا تطرحها]

(١) بغية الوعاة .

(٢) مراتب النحويين ص ٢٣

(٣) عن مراتب النحويين ص ٢٨ والمزهر ٢/٣٩٨ ، وشهادة يونس بن حبيب فيه :

أنه « لو كان في الناس اليوم من له ذهنه ونفاذه كان أعلم الناس » ــ طبقات

ويمكن أن يلحق بهذه الطبقة عيسى بن عمر الثقفي مولى خالد بن الوليد ، أخذ العلم عن أبي عمر بن العلاء وعبد الله بن أبي اسحاق الحضرمي ، وعد في القراء البصريين وهو امام في العربية والنحو ، ولعله أول من ألف فيهما كتاباً جامعاً، وقد اشتهر اسما كتابيه دون أن يصل الينا منهما خبر أو أثر، والغريب أن تلميذه الخليل بن احمد قرأهما ووعاهما ، وأعجباه حتى جعل مؤلفهما مجددهذا الفن والمعفي على آثار من سبقه قال :

ذهب النحو جميعاً كله غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك (إكمال) وهذا (جامع) فهما للناس شمس وقمر

ثم وفقد الناس هذين الكتابين منذ المدة الطويلة ولم يقعاالى أحدعلمناه، ولا خبر أحد أنه رآهما، وهذا السيرافي وليس بينه وبين زمن المؤلف إلا مئتان من السنين يقول : لم يقعا الينا ولا رأينا أحداً ذكر أنه رآهما[1] فان تكن نسبة البيتين الى الخليل صحيحة يكن اختفاء هذين الكتابين من أعجب الامور في تاريخ النحو.

* * *

فحول الشعراء ص ١٤ هذا وللزبيدي كلام يشير الى نصيب عيسى بن عمر في تدريج النحو يقول فيه « وضع أبو الاسود باب الفاعل والمفعول لم يزد عليه ... فزاد رجل من بني ليث أبواباً ثم نظر فاذا في كلام العرب مالا يدخل فيه فأقصر عنه ، فلما كان عيسى بن عمر قال : « أرى أن أضع الكتاب على الاكثر وأسمي الاخرى لغات، فهو أول من بلغ غايته في كتاب النحو ... وضع كتابين سمى أحدهما الجامع والآخر المكمل . » طبقات النحويين واللغويين ص ١٥ .

(١) انظر الفهرست لابن النديم ص ٦٢ وبغية الوعاة . اما ابن الانباري في نزهة الالباء فقد نقل عن المبرد انه قال : قرأت اوراقاً من احد كتابي عيسى بن

إذا نحن انتقلنا الى الطبقة التي تلي هذه كنا ازاء ما سموه بالمذهب الكوفي، فقد تتلمذ على عيسى بن عمر هذا: الخليل وسيبويه وأبو زيد الانصاري أئمة البصريين الأعلام، وأبو جعفر الرؤاسي الذي صار فيما بعد رأس الكوفيين وخلفه في ذلك تلميذاه الكسائي والفراء.

ولسنا نفيض في الكلام عليهم فكلهم مشهور، ولكننا نذكّر بالنواحي التي تعنينا منهم بكلمات:

فأما الخليل «فقد كان الغاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه، هو أول من استخرج العروض وحصر أشعار العرب بها، وعمل أول (كتاب العين) المعروف المشهور الذي به تهيأ ضبط اللغة»[1] الى نواح أخرى لمجيدة مشرفة ليس من غرضنا هنا الإشارة إليها. وقد مر بك نمط من آرائه في باب القياس. «وهو استاذ سيبويه، وعامة الحكاية في كتابه عنه. وكلما قال سيبويه: سألته، او قال «قال» من غير ان يذكر قائله فهو الخليل.»[2] ونفع الله به الناس وعاش من قناعته وعفته وترفعه في عزة دونها عزة الملوك، وصدق النضر بن شميل في قوله: اقام الخليل في خص بالبصرة لا يقدر على فلسين وتلامذته يكسبون بعلمه الاموال»[2].

واما ابو زيد الانصاري فقد كان ثقة صدوقاً راوية، وهو — وان قدم في

عمر، وكان كالاشارة الى الاصول». وبين هذه الكلمة الدالة على انه خطوة ابتدائية وتقريظ الخليل بون كما ترى. هذا ويذكرون أنه كان فصيحاً ويتقعر أحياناً، أمر والي العراق بحمله اليه ودعا بالحداد فأمر بتقييده، فقيل له لا بأس عليك، إنما أرادك الأمير لتؤدب ولده. «قال «فما بال القيد اذاً ?!» فذهبت بالبصرة مثلا. وله الجملة المأثورة في كتب البلاغة حين سقط عن حماره فاجتمع عليه الناس فقال «مالكم تكأكأتم علي كتكأكئكم على ذي جنة، افرنقعوا عني.» — انظر بغية الوعاة وأخبار النحويين البصريين ص ٣٢.

(١) أخبار النحويين البصريين ص ٣٨. (٢) بغية الوعاة.

النحو على الاصمعي وابي عبيدة –غلبت عليه اللغة والنوادر والغريب ، وحولها يدور اكثر مصنفاته[1] .

مدرسة الكوفة

وندع سيبويه – لشهرة امره وكتابه وشيوخه وتلاميذه– إلى أبي جعفر الرؤاسي رأس الكوفيين :

طلب العلم في البصرة على أئمتها ، قرأ على أبي عمرو بن العلاء ، وعلى عيسى بن عمر الثقفي ، لكنه لم يقارب أحداً من تلامذتهم فلم ينبه وعاش بالبصرة غير معروف[2] وكان اول كوفي ألّف في العربية ، وكتابه «الفيصل» عرضه – فيما ذكروا– على اصحاب النحو بالبصرة فلم يلتفتوا اليه ولا جسر على اظهاره لما سمع كلامهم ، اما هو فيزعم ان الخليل طلب الكتاب فأطلعه عليه ، «فكل ما في كتاب سيبويه « قال الكوفي: كذا » فانما عنى الرؤاسي هذا »[3] وزعم جماعة من البصريين ان الكوفي الذي يذكره الأخفش في آخر المسائل ويرد عليه هو الرؤاسي ».[1]

ويعد من قراء الكوفيين وسترى من اسماء كتبه الموضوعات التي عني بها:

كتاب التصغير ، الافراد والجمع ، الوقف والابتداء ، معاني القرآن .

ولما رجع الى الكوفة وجد فيها عمه معاذ بن مسلم الهراء « – ١٨٧ » مرجع الناس في العربية وعني بالصرف ومسائله خاصة ، وتبعه في هذه العناية من قرأ عليه

---

(١) المصدر السابق .

(٢) انظر معجم البلدان ١٢٣/١٨ . وأخذ عن زهير الفرقبي « – ١٥٥ » الذي تتلمذ على ميمون الأقرن أحد أصحاب أبي الأسود– انباه الرواة ٣/١٨، ١٩

(٣) بغية الوعاة . وذكره أبو الطيب اللغوي في عداد من أخذ عن أبي عمرو فقال : « عالم أهل الكوفة ، وليس بنظير لهؤلاء الذين ذكرنا ولا قريب منهم . . أخبرنا ابو حاتم قال : كان بالكوفة نحوي يقال له أبو جعفر الرؤاسي ، وهو مطروح العلم ليس بشيء . » – مراتب النحويين ص ٢٤ .

من الكوفيين ، حتى قيل إنهم فاقوا البصريين فيها ، ومن هنا عدهم بعض العلماء واضعي علم الصرف .

وتخرج بالرؤاسي تلميذاه المشهوران : الكسائي والفراء .

اما الكسائي فأنت تعرف أنه أعجمي الأصل وأحد القراء السبعة وإمام الكوفيين في العربية ، أخذ عن يونس أحد أئمة البصرة وجلس في حلقة الخليل ، ثم خرج إلى بوادي نجد والحجاز وتهامة يأخذ عن الأعراب « فأنفد خمس عشرة قنينة حبرا في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ . فقدم البصرة فوجد الخليل قد مات وفي موضعه يونس . فجرت بينهما مسائل أقر له فيها يونس وصدره في موضعه »[1] .

ثم انتقل إلى بغداد فعاش في قصر الرشيد مؤدباً للأمين والمأمون ، ونال الحظوة وأقبلت عليه الدنيا : يخدمه وليا العهد ، ويعنى به ويعوده الرشيد نفسه . ولما خرج الرشيد إلى الري اصطحب معه الكسائي ومحمد بن الحسن الشيباني فاتفق أن ماتا سنة ١٨٩ في يوم واحد فقال الرشيد : « دفنت الفقه والنحو في يوم واحد »[1] .

واما الفراء فقد قرأ بالبصرة على يونس بن حبيب ثم قرأ على الرؤاسي ، ثم لازم الكسائي في بغداد . والذي حثه على الخروج إلى بغداد شيخه الرؤاسي .

ولندع الفراء نفسه يحدثنا بأول أمره ببغداد قال :

قال لي الرؤاسي : « قد خرج الكسائي إلى بغداد وأنت أسن منه » فجئت إلى بغداد فرأيت الكسائي فسألته عن مسائل من مسائل الرؤاسي ، فأجابني بخلاف ما عندي ، فغمزت قوماً من علماء الكوفيين كانوا معي ، فقال : « مالك قد أنكرت ؟ لعلك من أهل الكوفة ؟ » فقلت : « نعم » فقال : « الرؤاسي يقول كذا وكذا . وليس صواباً وسمعت العرب تقول كذا وكذا .. » حتى اتى على مسائلي ، فلزمته » اه[1] .

والطريف تشاد البصريين والكوفيين في قراءة الفراء على يونس بن حبيب

---

(١) بغية الوعاة

البصري أستاذ سيبويه تشاداً على غير المنتظر ، فالكوفيون يزعمون أنه استكثر عنه والبصريون يدفعون ذلك . ثم كان الفراء « زائد العصبية على سيبويه و كتابه تحت رأسه ! » .

صنف « معاني القرآن » الذي قال فيه مادحه « لم يعمل أحد قبله مثله ولا أحسب أن أحداً يزيد عليه »[1] .

وكتبه التي تركها تدور حول مسائل من اللغة والنوادر والصرف والنحو والقرآن . اما كتابه الكبير في النحو المسمى بـ « الحدود » فقد ذكروا أنه يشتمل على ستة واربعين حداً في الاعراب . ويعنينا منه هنا قصته فهي تدل على بدع عجيب عرف به بعض النحاة وأثر في سير هذا العلم أثراً سيئاً ، ذلك هو الاغراب والتعقيد ، قالوا :

كان السبب في إملائه الحدود أن جماعة من أصحاب الكسائي صاروا إليه وسألوه ان يملي عليهم أبيات النحو ففعل ، فلما كان المجلس الثالث قال بعضهم لبعض : « إن دام هذا على هذا علم النحو الصبيان ! والوجه ان يُقعد عنه » فقعدوا ، فغضب وقال : « سألوني القعود فلما قعدت تأخروا ، والله لأملين النحو ما اجتمع اثنان » فأملى ذلك ست عشرة سنة[1] .

وانا حائر في التوفيق بين نزعة التسهل والتبسيط هذه التي في القصة وقولهم في ترجمته « كان يتفلسف في تأليفاته ومصنفاته ، يعني يسلك في ألفاظه كلام الفلاسفة »[2] .

وتكفينا هذه الالماعة عن رجال المدرستين[3] محاولين تتبع الخلاف ومعرفة طبيعته

---

(١) الفهرست ص ٩٦ . (٢) المصدر السابق ص ٩٩ .

(٣) نشر بعد صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب « مراتب النحويين » لأبي الطيب اللغوي المتوفى سنة ٣٥١ ، جاء فيه — بعد أن سرد تراجم أعيان البصريين ثم الكوفيين — قوله :

« والذين ذكرنا من الكوفيين فهم أئمتهم في وقتهم ، وقد بينا منزلتهم عند أهل البصرة ، فأما الذين ذكرنا من علماء البصرة فرؤساء علماء معظمون غير مدافعين في المصرين جميعاً ، ولم يكن بالكوفة ولا في مصر من الأمصار مثل

(٢)
نشأة الخلاف

اول ما يعرف من الخلاف بين البصريين والكوفيين ما اثبته سيبويه في (الكتاب) من حكاية اقوال (الكوفي) ابي جعفر الرؤاسي على ما علمت آنفاً . والظاهر ان مرافقة الرؤاسي للخليل في القراءة على عيسى بن عمر جعلت بينهما نوعاً من الأنس سمح للخليل ان يطلب من الرؤاسي كتابه ، فروى منه بعض اقوال لتلميذه سيبويه ، فأثبتها هذا في كتابه .

ولم يكن في هذا الخلاف ولا في غيره مما حدث بين البصريين انفسهم يومئذ ، اكثر من المذاكرة وحكاية الاقوال المخالفة والردعليها احياناً فأنت كثيراً ما تجد سيبويه يورد لشيخيه يونس والخليل اقوالاً يخالفها فيقول : (٠٠وزعم الخليل) ، (٠٠وزعم يونس) .

ولم تدخل الدنيا بين المشهورين من رجال هذه الطبقة ، فالخليل والرؤاسي مثلاً كلاهما صالح عفيف ، ومتى خلت المناقشات العلمية مما يؤرثها من حوافز المادة او الجاه بقيت هادئة جميلة صافية .

=اصغرهم في العلم بالعربية ، ولو كان لا فتخروا به ، وباهوا بمكانه أهل البلدان، وأفرطوا في إعظامه كما فعلوا بحمزة الزيات ... يتخذونه إماماً معظماً مقدماً وليس يحكى عنه شيء من العربية ولا النحو ، وإنما هو صاحب قراءة ، وأما عند البصريين فلا قدر له . » ص ٢٦ .

فلما قرّب العباسيون الكسائي وتلاميذه وخصهم بتربية اولادهم وبالإغداق عليهم اذكان اهل الكوفة بالجملة اخلص لهم واحسن سابقة معهم على عكس اهل البصرة ، اجتهد المقربون في التمسك بدنياهم التي نالوها ، ووقفوا بالمرصاد للبصريين الذين يفوقونهم علماً فحالوا بينهم وبين النجاح المادي او المعنوي بكل ما يستطيعون من قوة ؛ واذا كان لبصري كالاصمعي مثلاً حظوة عند خليفة ولم يقدروا على ابعاده مادياً، اجتهدوا في الغض من علمه .

وانا أعرض انماطاً من خلافهم في المجالس الرسمية تفصح عن العصبية والحدة وحب النيل من المنافس ، أعرض ذلك ليكون مدخلاً للكلام على المذهبين بعد ان عرفنا رجالها الاولين . ولا تستغربن ان تكون الحدة والعصبية أظهر على الكوفيين ، وحب الغلبة عندهم اشد ، فهم عن دنياهم وجاههم يدافعون ، اذ علموا علم اليقين ان علمهم ازاء علم البصريين قليل[1] ، ولذا كان الخطر من هؤلاء ماثلاً امام الكوفيين ،

---

(١) قال أبو حاتم : «ولم يكن لجميع الكوفيين عالم بالقرآن ولا كلام العرب ،- = ولولا أن الكسائي دنا من الخلفاء فرفعوا ذكره لم يكن شيئاً ، وعلمه مختلط بلا حجج ولا علل الا حكايات عن الأعراب مطروحة ، لأنه كان يلقنهم مايريد ، وهو على ذلك أعلم الكوفيين بالعربية والقرآن ، وهو قدوتهم وإليه يرجعون.» مراتب النحويين ص ٧٤ .

هذا وقد علمت آنفاً أن الرؤاسي شيخ الكسائي أقام بالبصرة فلم يرتفع له فيها ذكر ، ولا عد علمه شيئاً ازاء علم البصريين ومهما جعلت للمبالغة نصيباً في قول =

ولعين الكسائي منهم خاصة ، ولم يرو عن كوفي عنف مثل عنف الكسائي هذا ، ولا حرص على الإجهاز على الخصم المنافس كما روي عنه ، واليك الشواهد :

١ — بين الكسائي والاصمعي :

حدث احمد بن يحيى ثعلب احد ائمة الكوفيين قال :

كان الكسائي والاصمعي بحضرة الرشيد ، وكانا ملازمين له يقيمان باقامته ويظعنان بظعنه ، فأنشد الكسائي :

أنى جزوا عامراً سوءى بفعلهم   ام كيف يجزونني السوءى من الحسن
ام كيف ينفع ما تعطي العَلوقُ به   رئمانُ انف اذا ما ضن باللبن

فقال الاصمعي « انما هو رئمانَ انف ، بالنصب » فقال له الكسائي: « اسكت ما انت وذاك ؟ يجوز بالرفع والنصب والخفض : اما الرفع فعلى الرد على (ما) لانها في موضع رفع بـ (ينفع) فيصير التقدير (ام كيف ينفع رئمان انف) ، والنصب بـ (تعطي) ، والخفض على الرد على الهاء التي في (به) . » فسكت الاصمعي ولم يكن له علم بالعربية ، وكان صاحب لغة ، لم يكن صاحب اعراب[1] » .

=أبي حاتم فأنت مطمئن الى ستر الكوفيين قصورهم عن منافسيهم بالشغب والسلطان الذي كان لهم .

(١) إرشاد الاديب ١٣ /١٨٣ وامالي الزجاجي ص ٣٤ (المطبعة المحمودية التجارية بالازهر بمصر) . والبيتان لأفنون التغلبي (انظر المفضليات للضبي ٢/٦٣ طبعة دار المعارف بالقاهرة) .

عدوا الكسائي فائزاً في هذه المناظرة،ولعل المجلس تقوض على ذلك . ولكننا الآن لانعده كذلك . فالأصمعي راوية ثبت صدوق وهو في الرواية والاخبار أقوى من الكسائي ، والكسائي أورد وجوه الاعراب المحتملة ، اما الاصمعي فانما يرد صاحبه الى الرواية[1] ، وشتان مابين الأمرين .

وللأصمعي مجلس آخر مع الكسائي أمام الرشيد كال فيه الصاع صاعين وحكم له الرشيد حكماً لزم الكسائي عاره :

قال له الأصمعي وهما عند الرشيد . « ما معنى قول الراعي :

قتلوا ابن عفان الخليفة محرماً ودعا فلم أر مثله مخذولا ؟ »

العلوق : الناقة تفقد ولدها بنحر او موت ،فيسلخ جلده ويحشى تبناً ويقدم اليها لترأمه (اي تعطف عليه) ويدر لبنها فينتفعوا به ، فهي تشمه وينكره قلبها فتعطف عليهَ ولا ترسل اللبن ، فشبه ذلك بهذا .

والبيت مثل يضرب لمن يعدك بلسانه كل جميل ولم يفعل منه شيئاً لأن قلبه منطو على ضده، كأنه قيل له : كيف ينفعني قولك الجميل اذا كنت لاتفي به . — اه عن المصدر الأول بتصرف يسير .

هذا وقد علق ابن الشجري حين عرض هذه القضية بقوله :

« ولنحاة الكوفيين في اكثر كلامهم تهاويل فارغة من حقيقة » ١/٣٢ .

(١) بل ان المعنى لينصر رواية الاصمعي ويرفض رواية الرفع « وصوب ابن الشجري انكار الأصمعي فقال : لأن رئمانها للبو بأنفها هو عطيتها اياه لاعطيه لها غيره ، فإذا رفع لم يبق لها عطية في البيت ، لأن في رفعه إخلاء (تعطي) من مفعوله لفظاً وتقديراً، والجر أقرب إلى الصواب قليلاً، وإنما حق المعنى والإعراب لنصب . » انظر مغني اللبيب بحث (أم) .

وللكسائي مثل هذا التخبط مع عيسى بن عمر ألقى عليه عيسى مسألة فذهب بوجه احتمالاتها فقال عيسى : « عافاك الله ، إنما أريد كلام العرب ، وليس هذا الذي تأتي به بكلامها . » — انباه الرواة ٢/٣٧٧ .

قال الكسائي : « كان محرماً بالحج » قال الأصمعي : « فقوله :

قتلوا كسرى بليل محرما ... فتولى لم يمتع بكفن

هل كان محرما بالحج ؟!! » .

فقال هارون للكسائي : « يا علي اذا جاء الشعر فإياك والأصمعي . »[1]

٢ — بين الكسائي وسيبويه

قال الفراء : « قدم سيبويه على البرامكة فعزم يحيى بن خالد ان يجمع بينه وبين الكسائي وجعل لذلك يوما ، فلما حضر تقدمت وابن الاحمر[2]، فدخل فاذا بمثال في صدر المجلس فقعد عليه يحيى ، وقعد إلى جانب المثال جعفر والفضل ومن حضر بحضورهم ، وحضر سيبويه فأقبل عليه الاحمر فسأله عن مسألة فأجابه فيها سيبويه فقال له « أخطأت » ، ثم سأله عن ثانية وثالثة كلّ ذلك يقول له « أخطأت » فقال سيبويه : « هذا سوء أدب » .

فأقبلت عليه فقلت : « إن في هذا الرجل حدة وعجلة ، ولكن ما تقول فيمن قال : « هؤلاء أبون ، ومررت بأبين » كيف تقول على مثال ذلك من (وأيت) أو (أويت) فأجاب فأخطأ فقلت له : « أعد النظر ... ثلاث مرات تجيب ولا تصيب[3] . فلما كثر عليه ذلك قال : لست أكلمكما أو يحضر

---

(١) اخبار النحويين البصريين ص ٥٩ — محرم اي لم يحل من نفسه شيئا يوجب القتل ، وقوله (محرما) في كسرى يعني حرمة العهد الذي له في أعناق اصحابه . هذا وقد سجلوا للكسائي طلبه المدنة من الأصمعي ، قال الأصمعي: « أرسل إليّ الكسائي بأبي نصر وقال : « لست أعرض لك في الشعر والغريب والمعاني فدعني والنحو » فوجهت اليه : « ما كلمتك قط في النحو إلا بحجة أصحابي وقد تركت ذلك لك . » — إنباه الرواة ٢ /٢٧٢ .

(٢) هو علي بن الحسن الاحمر تلميذ الكسائي وخليفته على تعليم اولاد الرشيد كما سيأتي . وفي المغني وحاشية الدسوقي عليه (١/١٢٩) أنه خلف الاحمر وهذا سهو منهما رحمهما الله ، اذ ان خلفاً بصري ولا تعرف له تلمذة على الكسائي ، بل أين هذا من هذا .

(٣) قال ابن هشام الانصاري بعد شرحه هذه المسألة : وليس هذا مما يخفى =

صاحبكما حتى أناظره »

فحضر الكسائي فأقبل على سيبويه فقال : « اتسألني ام أسألك؟» فقال : « بل سلني انت . » فقال له الكسائي : « كيف تقول : قد كنت اظن العقرب اشد لسعة من الزنبور فاذا هو هي ، او (فاذاهو اياها)؟ » فقال سيبويه : (فاذا هو هي) ولايجوز النصب » . فقال له الكسائي : «لحنت».

ثم سأله عن مسائل من هذا النوع : (خرجت فاذاعبدالله القائمُ) أو (القائمَ) ؟ فقال سيبويه في ذلك كله بالرفع دون النصب ، فقال الكسائي : « ليس هذا من كلام العرب ، العرب ترفع في ذلك كله وتنصب » . فدفع سيبويه قوله ، فقال يحيى بن خالد : « قد اختلفتما وأنتما رئيسا بلديكما ، فمن ذا يحكم بينكما؟» فقال له الكسائي : « هذه العرب في بابك قد جمعتهم من كل أوب ، ووفدت عليك من كل صقع وهم فصحاء الناس ، وقد قنع بهم أهل المصرين وسمع أهل الكوفة وأهل البصرة منهم ، فيُحضرون ويُسألون» فقال يحيى وجعفر : «قد أنصفت» فأمر بإحضارهم فدخلوا فهم: أبو فقعس وابو دِثار وابو الجراح وابو ثروان فسئلوا عن المسائل التي جرت بين الكسائي وسيبويه فتابعوا

= على سيبويه ولا على أصاغر الطلبة ولكنه كما قال أبو عثمان المازني: « دخلت بغداد فألقيت علي مسائل فكنت أجيب فيها على مذهبي ويخطئونني على مذاهبهم » وهكذا اتفق لسيبويه رحمه الله . » مغني اللبيب (مادة إذا) .

الكسائي وقالوا بقوله ، فأقبل يحيى على سيبويه فقال : «قد تسمع أيها الرجل.» فاستكان سيبويه [1].

ولم يختلف البصريون حتى اليوم في أن القول ما قال سيبويه وأن الموضع ليس بموضع نصب، وأن هؤلاء الأعراب أعراب الحطمية الذين كان الكسائي يقوم بهم ويأخذ عنهم . ثم جاء ثعلب فاحتال وجهاً للنصب فقال : « وإنما أدخل الفاء في قوله (فإذا هو اياها) لأن (فإذا) : مفاجأة اي (فوجدته ورأيته، فـ (وجدت ورأيت) ينصب شيئين ويكون معه خبر فلذلك نصبت العرب.»[1]

قلت : وهو وجه غير صحيح ولو صح ان (فاذا = وجدت) لوجب ان يقال (فاذا اياه اياها) ، ولم يدّع ذلك حتى الكوفيون .

٣ — بين الكسائي واليزيدي

لقد سلط الله على الكسائي من يثأر منه للأصمعي وسيبويه، فأذاقه على يد يحيى ابن المبارك اليزيدي ما كان كفاء لعصبيته على البصريين . ويحيى هذا بصري

---

(١) إرشاد الاريب ١٣/١٨٥ — ١٨٨ ومغني اللبيب في بحث اذا . —وأقبل الكسائي على يحيى فقال : أصلح الله الوزير ، انه قد وفد عليك من بلده مؤملا فإن رأيت ألا ترده خائباً ، فأمر له بعشرة آلاف درهم ، فخرج وصيّر وجهه نحو فارس فأقام هناك حتى مات ولم يعد إلى البصرة . اهـ

فيقال إن هؤلاء الاعراب رشوا فوافقوا الكسائي ، وقيل لقوه إرضاء للوزير ، ولم ينطقوا بالنصب وإنما قالوا : القول قول الكسائي .

وقد ختم ابن الشجري هذا المجلس بأن الكسائي (انما قصد سؤاله عما علم أنه لا وجه له في العربية، واتفق هو والفراء على ذلك ، ليخالفه سيبويه فيكون الرجوع الى السماع، فيقطع المجلس عن النظر والقياس ، امالي ابن الشجري ١/٢٠٦

قرأ على ابي عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد ، واتصل بخال المهدي يزيد بن منصور الحيري فأدب أولاده، واليه نسب فقيل (اليزيدي) . ولم يستطع الكسائي أن يغلبه بجاهه فعاش حياته تنزل عليه منه الضربات في المناظرة والهجاء بالاشعار. ثم كان مؤدب المأمون كما كان الكسائي مؤدب الامين ، واليك مجلسين من مجالسهما ، اولهما قبل مناظرة سيبويه وثانيهما بعدها :

١ — قال اليزيدي :

«كنا في بلد مع المهدي في شهر رمضان قبل أن يستخلف بأربعة أشهر فتذاكروا عنده النحو والعربية ، وكنت متصلاً بخاله يزيد بن منصور والكسائي مع ولد الحسن الحاجب ، فبعث إلي وإلى الكسائي ، فصرت الى الدار فإذا الكسائي بالباب قد سبقني فقال لي : «أعوذ بالله من شرك يا أبا محمد» فقلت : «والله لا تؤتى من قبلي او أوتى من قبلك.»

فلما دخلنا على المهدي أقبل علي فقال : «كيف نسبوا الى البحرين فقالوا : (بحراني) والى الحصنين فقالوا : (حصني)؟ هلا قالوا حصناني كما قالوا بحراني؟ فقلت : «أيها الأمير ، لو قالوا في النسب الى البحرين (بحري)لالتبس فلم يدر : آلنسبة الى (البحرين) وقعت أم الى البحر؟ فزادوا ألفاً للفرق بينهما كما قالوا في النسب الى الروح : روحاني ، ولم يكن ل (حصنين) شيء يلتبس به فقالوا : (حصني) على القياس» .

فسمعت الكسائي يقول لعمرو بن بزيغ : «لو سألني الأمير عنهما لأجبته بأحسن من هذه العلة .» فقلت : «أصلح الله الأمير ، إن هذا يزعم أنك لو سألته أجاب بأحسن من جوابي» قال : «فقد سألته . »

قال : «كرهوا أن يقولوا (حصناني) فيجمعوا بين نونين ، ولم يكن في البحرين إلا نون واحدة فقالوا (بحراني) لذلك . »

قلت : « كيف تنسب الى رجل من (بني جنان) ؟ إن لزمت قياسك فقلت : (جني) جمعت بينه وبين المنسوب الى الجن ، وان قلت(جناني) رجعت عن قياسك وجمعت بين ثلاث نونات.»

ثم تفاوضنا الى أن قلت له : « كيف تقول : ان من خير القوم وافضلهم أو خيرهم بتة زيد ؟ فأطرق مفكراً وأطال الفكرة فقلت : « أصلح الله الأمير، لأن يجيب فيخطىء فيتعلم، أحسن من هذه الإطالة.» فقال: « ان من خير القوم وأفضلهم او خيرُهم بتة زيداً» فقلت: «أخطأ ايها الأمير ، » قال: « و كيف ؟ » قلت « لرفعه قبل ان يأتي باسم ان ، ونصبه بعد الرفع ، وهذا لا يجيزه أحد . »

فقال شيبة بن الوليد عم ذفافة متعصباً له : « أراد بـ (او) : بل » فقلت : «هذا لعمري معنى»، فلقنه الكسائى فقال : « ما اردت غيره.» فقلت : « اخطأتما جميعاً ! لأنه غير جائز ان يقال : ان من خير القوم وافضلهم ، بل خيرهم زيداً» فقال المهدي : « ياكساني، ما مر بك مثل اليوم.» قال: «فكيف الصواب عندك؟» فقلت : « ان من خير القوم وافضلهم او خيرَهم بتة زيد ، على معنى تكرير ان . » فقال المهدي : « قد اختلفتما وانتما عالمان ، فمن يفصل بينكما ؟ » قلت : «فصحاء العرب المطبوعون . » فبعث الى أبي المطوق ، فعملت ابياتاً الى أن يجيء ،

وكان المهدي يميل الى اخواله من اليمن (وابن منصور الحميري حاضر) فقلت :

يا ايها السائل لأخبره   عمن بصنعاء من ذوي الحسب

حمير ساداتها ، تقر لها   بالفضل طراً جحاجح العرب

فإن من خيرهم وأفضلهم   او خيرَهم بتة ابو كرب

فلما جاء ابو المطوق أنشدته الأبيات وسألته عن المسألة، فوافقني[1]

---

(١) أمالي الزجاجي ص ٤٠ ثم قال الزجاجي: المسألة مبنية على الفساد للمغالطة فاما جواب الكسائي فغير مرضي عند احد . وجواب اليزيدي غير جائز عندنا لانه أضمر (ان) وأعملها وليس من قوتها ان تضمر فتعمل.... والصواب عندنا في المسألة ان يقال : « إن من خير القوم وافضلهم أو خيرهم البتة زيد» فتضمر اسم ان فيها وتستأنف مابعدها . اه – قلت : يريد ان اسمها ضمير شأن محذوف .

هذا والقصة في الاغاني (٧٦/١٨) وفيها ثمة اختلاف يسير وبعض نقص واخلال، أما الزيادة فيها فطريفة لدلالتها على أن العصبية في النحو لم تقتصر على النحاة بل تناولت كبار رجال الدولة وأغرتهم بالتحيز ، ولم ينج شيبة بن الوليد هذا وهو أحد قواد المهدي من شرها ، واليك تتمة الخبر برواية الاغاني على لسان ابي محمد نفسه :

« فقال لي المهدي: كيف تنشده أنت؟ فقلت: « أو خيرَهم بتة أبو كرب» على اعادة (ان) كأنه قال: (أو إن خيرهم بتة أبو كرب) » فقال الكسائي : « هو والله قالها الساعة . » فتبسم المهدي وقال : « انك لتشهد له وما تدري » ثم طلع الاعرابي الذي بعث اليه فألقيت عليه المسائل فاجاب فيها كلها بقولي فاستفزني السرور حتى ضربت بقلنسيتي الارض وقلت : «أنا أبو محمد» فقال لي شيبة : « أتتكنى باسم الامير» فقال المهدي . « والله ماأراد بذلك مكروهاً ، ولكنه فعل مافعل للظفر ، وقد لعمري ظفر » فقلت : « إن الله عز وجل أنطقك ايها الامير بما انت اهله وانطق ==

٢ ــ في حضرة الرشيد :

سأل الرشيد اليزيدي والكسائي عن قصر (الشراء) ومده فقال الكسائي : « مقصور لا غير » وقال اليزيدي : « يقصر ويمد » فقال الكسائي : « من أين لك ؟ » فقال اليزيدي : «من المثل السائر : لا يغترّ بالحرة عام هدائها ولا بالأمة عام شرائها.» فقال الكسائي : «ما ظننت أن أحداً يجهل مثل هذا » فقال اليزيدي : « ما ظننت أن أحداً يفتري بين يدي امير المؤمنين مثل هذا.»[1]

٣ ــ في حضرة الرشيد أيضاً

سأل اليزيدي الكسائي بحضرة الرشيد قال : « انظر ، في هـذا الشعر عيب ؟ » وانشده :

ما رأينا خَرَباً نقَّر عنـــه البيض صقر[2]

= غيرك بما هو اهله » فلما خرجنا قال لي شيبة : « أتخطئني بين يدي الامير ؟ أما لتعلمن » قلت : « قد سمعتُ ما قلت وأرجو أن تجدعها . » ثم لم أصبح حتى كتبت رقاعاً عدة، فلم أدع ديواناً إلا دسست إليه رقعة فيها أبيات قلتها فيه ، فأصبح الناس يتناشدونها وهي :

عش بجد ولا يضرك نوك ... إنما عيش من ترى بالجدود

عش بجد وكن هبنقة القيسي ... نوكاً او شيبة بن الوليد ! الخ

(١) قوله (مثل هذا) ساقط (من المصباح المنير) وعنه روينا الخبر وهو موجود في التاج نقلاً عن المصباح فلعل الكلمة سقطت من مطبوعة المصباح الاميرية .

(٢) ارشاد الاريب ١٣/١٧٨ . ـ الخرب ذكر الحباري ، والمعنى لا يحاول الصقر استخراج صقر من بيضة الحبارى . و(يكون) الثانية التي في البيت الثاني توكيد لفظي للاولى . واراد الكسائي بـ (أقوى) التي بعد البيتين : لحن .

لا يكونُ العيْرُ مهراً   لا يكون ، المهر مهر

فقال الكسائي : «قد أقوى الشاعر.» فقال له اليزيدي: «انظر فيه.» قال: « اقوى ، لا بد ان ينصب المهر الثاني على انه خبر كان.»

فضرب اليزيدي بقلنسوته الأرض وقال : « انا ابو محمد ، الشعر صواب ، وانما ابتدأ فقال : المهر مهر » .

فقال له يحيى بن خالد : « أتكتني بحضرة امير المؤمنين وتكشف رأسك ؟ والله لخطأ الكسائي مع أدبه أحب الينا من صوابك مع سوء فعلك . »

فقال : « لذة الغلبة أنستني من هذا ما احسن. »[1]

٤ ـــ بين المازني ونحاة كوفيين :

حضر المازني ونحاة كوفيون مجلس الواثق يوماً فقال الواثق –وهذه رواية المازني نفسه – :

«يامازني هات مسألة.» قلت : « ماتقولون في قول الله تبارك وتعالى : « وما كانت أمك بَغيّاً» [سورة مريم الآية ٢٨] :لمَ لم يقل: (بغية) وهي صفة لمؤنث ؟

---

(١) المصدر السابق ، هذا ولليزيدي كلمة في المقابلة بين أبي عمرو بن العلاء والكسائي لايحسن إغفالها فقد جمع الفضل بن الربيع بينه وبين علي الأحمر الكوفي وسألها : « من كان أعلم بالنحو الكسائي او أبو عمرو بن العلاء ؟ » فكان مماقال اليزيدي وكان تلميذ أبي عمرو : « لم يكن أحـد بالنحو اعلم من أبي عمرو .. لأنه جاور البدو أربعين سنة ولم يقم الكسائي بالبدو أربعين يوماً !! » ـ مجالس العلماء للزجاجي ص ١٧١ طبعة حكومة الكويت .

فأجابوا بجوابات غير مرضية، فقال لي: «هات» قلت: «لو كان (بغي) على تقدير (فعيل) بمعنى (فاعلة) للحقتها الهاء مثل كريمة وظريفة، وانما تحذف الهاء اذا كانت في معنى مفعولة في نحو (امرأة قتيل، وكف خضيب)؛ و (بغيّ) هاهنا ليس بفعيل انما هو (فعول) لا تلحقه الهاء في وصف التأنيث نحو (امرأة شكور وبئر شطون اذا كانت بعيدة الرشاء)، وتقدير (بغيّ): (بغويْ) قلبت الواو ياء، ثم أدغمت الواو في الياء فصارت ياء ثقيلة نحو (سيد وميت) فاستحسن الجواب.»[1]

٥ — بين المازني وابن السكيت

قال المازني:

حضرت يوماً مجلس المتوكل وحضر يعقوب بن السّكّيت، فقال المتوكل: «تكلما في مسألة نحوية.» فقلت له: «اسأل» فقال: «اسأل انت» فقلت له:

— ما وزن (نكْتل) اللفظة الواردة في الآية المذكورة فيها قصة اخوة يوسف؟

فتسرع وقال: — وزنها (نفعل).

فقلت له: «اتئد وانظر.» فأفكر ثم قال:

— وزنها (نفتعل.)

فقلت: — (نكتل) اربعة احرف و (نفتعل) خمسة احرف، فكيف تقدر الرباعي بالخماسي؟ فبهت ولم يُحِر جواباً.

فقال المتوكل: فما تقول أنت يامازني؟

قلت: — وزنها في الأصل (نفتعل) لأنها (نكْتيِل) فلماتحرك

---

(١) طبقات النحويين واللغويين ص ٩٥

حرف العلة وهو الياء وانفتح ماقبلها قلبت الفاً فصارت (نكتال)، ولما دخل الجازم صارت (نكتلْ). [ووزنها نفتلْ]

فقال المتوكل: هذا هو الحق وانخزل ابن السكيت ووجم، وظهر ذلك عليه. فلما خرجنا قال ابن السكيت في الطريق: «بالغت اليوم في أذاي» فقلت له: «لم أقصدك بشيء مما جرى، وانما مسألة كانت قريبة من خاطري، فذكرتها.»[1]

٦ — بين المبرد وثعلب

هذا مجلس يرويه ثعلب نفسه وانا اشك فيه كل الشك، قال:

«دخلت يوماً الى محمد بن عبد الله بن طاهر وعنده ابو العباس محمد ابن يزيد (المبرد) وجماعة من أشباهه وكتابه، وكان محمد بن عيسى وصفه له فلما قعدت قال لي محمد بن عبد الله: «ما تقول في بيت امرىء القيس:

لها متنتان خظاتا كما أكب على ساعديه النمِرْ»؟

فقلت: «... خظا بظا اذا كان صلباً مكتنزاً، ووصف فرساً، وقوله (كما أكب على ساعديه النمر) أي في صلابة ساعدي النمر اذا اعتمد على يده. والمتن الطريقة الممتدة عن يمين الصلب وشماله؛ وما فيه من العربية أنه قال (خظاتا) فلما تحركت التاء أعاد الألف من أجل الحركة والفتحة.» ...

---

(١) انباه الرواة ١/٢٥٠ وطبقات النحويين واللغويين ص ٩٤

فقال محمد بن يزيد : « أعز الله الأمير ، أراد في (خطاتا) الاضافة أضاف (خطاتا) إلى (كا) » .

فقلت له : « ما قال هذا أحد . »

فقال محمد بن يزيد : « بل سيبويه يقوله . »

فقلت لمحمد بن عبد الله : «لا والله ما قال هذا سيبويه قط ، وهذا كتابه فيحضر.» ثم أقبلت على محمد بن عبد الله فقلت له : « وما حاجتنا الى كتاب سيبويه ؟ أيقال (مررت بالزيدين ظريفي عمرو) فيضاف نعت الشيء الى غيره ؟» فقال محمد بن عبد الله بصحة طبعه : «لا والله ، ما يقال هذا . »

ونظر الى محمد بن يزيد فأمسك ولم يقل شيئاً وقمت ونهض المجلس[1]

٧ — بين المبرد وثعلب ايضاً

« حكي ان بعض الأكابر من بني طاهر سأل ابا العباس ثعلباً ان يكتب له مصحفاً على مذهب اهل التحقيق ، فكتب (والضحى) بالياء ، ومذهب الكوفيين انه اذا كان كلمة من هذا النحو اولها ضمة او كسرة كتبت بالياء وان كانت من ذوات الواو ، والبصريون يكتبون بالألف. فنظر المبرد في ذلك المصحف فقال: «ينبغي ان يكتب (والضحا) بالألف لانه من ذوات الواو ، فجمع ابن طاهر بينهما :

فقال المبرد لثعلب : « لم كتبت (والضحى) بالياء؟» فقال: « لضمة أوله.» فقال له : «ولم اذا ضم أوله وهو من ذوات الواو تكتبه بالياء؟»

---

(١) طبقات النحويين اللغويين ص ١٦٠

فقال : لأن الضمة تشبه الواو ، وما أوله واو يكون آخره ياء ، فتوهموا أن أوله واو » فقال المبرد : « أفلا يزول هذا التوهم الى يوم القيامة ؟!!!» [1].

وفي كتاب « مجالس العلماء » للزجاجي عدد من المجالس بين المبرد وثعلب تظهر الفارق الكبير بين سداد المبرد وعلمه ذي الملكة وتخبط ثعلب في نقله وقياسه، ويفيد الاطلاع على هذا الكتاب جملة ، وبين ص ١١٩ و ١٢٦ شيء من هذه المجالس بينهما (طبعة حكومة الكويت سنة ١٩٦٢) .

٨ ــ بين ثعلب والزجاج

قال الزجاج :

---

(١) ارشاد الاريب ١١٨/١٩

هذا وقد تمثلت في الخصومة بينهما الخصومة بين البصريين والكوفيين عامة واشترك فيها الشعر على هوى قائليه : فمحب للوفاق يقول :

أيا طالب العلم لا تجهلن ... وعـذ بالمبرد أو ثعلب

وبصري يقول :

رأيت محمد بن يزيد يسمو ... الى الخيرات في جاه وقدر...

وكان الشعر قد أودى فأحيا ... ابو العباس داثر كل شعر

وقالوا ثعلب رجل عليم ... وابن النجم من شمس وبدر

وقالوا ثعلب يفتي ويملي ... وابن الثعلبان من الهزبر .الخ

والظاهر أن حيوية هذه الخصومة جلبت اليها الوقود الكافي من المتعصبين حتى= = ذهبت مثلا في الأدب فقال أحد المحبين يحن ويتشوق :

فأبداننا في بلدة والتقاؤنا ... عسير كأننا ثعلب والمبرد

ـ انظر بغية الوعاة ص ١١٦

دخلت على أبي العباس ثعلب في ايام المبرد وقد أملى شيئاً من (المقتضب) فسلمت عليه وعنده ابو موسى الحامض وكان يحسدني شديداً ويجاهرني بالعداوة وكنت ألين له وأحتمله لموضع الشيخوخة .

فقال لي ثعلب : « قد حمل الي بعض ما أملاه هذا الخلدي (يعني المبرد) فرأيته لا يطوع لسانه بعبارة فقلت له : « إنه لا يشك في حسن عبارته اثنان ، ولكن سوء رأيك فيه يعيبه عندك .» فقال : «ما رأيته إلا ألكن متغلقاً » .

فقال ابو موسى : « والله إن صاحبكم (يعني سيبويه) ألكن » فأحفظني ذلك ثم قال :

« بلغني عن الفراء أنه قال: « دخلت البصرة فلقيت يونس وأصحابه فسمعتهم يذكرون سيبويه بالحفظ والدراية وحسن الفطنة ، فأتيته فإذا هو أعجم لا يفصح ، سمعته يقول لجارية : « هات ذيك الماء من ذاك الجرة » فخرجت من عنده ولم أعد اليه ».

فقلت له : « هذا لا يصح عن الفراء ، وأنت غير مأمو في هذه الحكاية ، ولا يعرف أصحاب سيبويه من هذا شيئاً ، وكيف تقول هذا لمن يقول في اول كتابه : (هذا باب علم ما الكلمُ من العربية) ؟ وهذا يعجز عن إدراك فهمه كثير من الفصحاء فضلاً عن النطق به » فقال ثعلب : « قد وجدت في كتابه نحواً من هذا : يقول : (حاشا) حرف يخفض ما بعده كما تخفض (حتى) وفيها معنى الاستثناء . »

فقلت : هذا كذا في كتابه ، وهو صحيح : ذهب فى التذكير الى الحرف ، وفي التأنيث الى الكلمة.»

قال : « والأجود أن يحمل الكلام على وجه واحد» .

قلت : كلٌ جيد ، قال الله تعالى: « ومن يقنتْ منكن لله ورسوله ويعملْ صالحاً ....»[1].

وقرىء : « وتعملْ صالحاً » وقال عز وجل : ومنهم من يستمعون اليك. »[2] ذهب الى المعنى ، ثم قال « ومنهم من ينظر اليك .. »[3] ذهب الى اللفظ ، وليس لقائل أن يقول : لو حمل الكلام على وجه واحد في الاثنين كان أجود ، لأن كلاً جيد .

فأما نحن (يريد البصريين) فلا نذكر (حدود) الفراء لأن صوابه فيه أكثر من أن يعد ، ولكن هـذا أنت (يا ثعلب) عملت كتاب (الفصيح) للمبتدي المتعلم وهو عشرون ورقة أخطأت في عشرة مواضع منه ...الخ » .

وفصّل هذه المواضع مستشهداً بكلام العرب فانظرها في مظنتها[4]، ثم قال الزجاج : « فما قرىء عليه كتاب (الفصيح) بعد ذلك علمي، ثم بلغني أنه ستم ذلك ، فأنكر كتاب (الفصيح) أن يكون له[4]».

---

(١) سورة الاحزاب ٣٣ الآية ٣١

(٢) سورة يونس ١٠ الآية ٤٢ (٣) الآية التالية ١٠/٤٣

(٤) ارشاد الاريب ١/١٣٧ – ١٤٣ وانظر انباه الرواة ٣/١٤١

وهم يصفون ثعلباً بغزارة الحفظ لكنه • لم يكن مع ذلك موصوفاً بالبلاغة واذا كتب كتاباً الى بعض اصحاب السلطان ما خرج عن طبع العامة »[1].

* * *

في اكثر هذه الاخبار مجال لمن شك فيها او توقف ، فما فاز فيه الكسائي على خصمه عرفناه من رواية أنصاره الكوفيين ، فراوي خبر الأصمعي والكسائي: ثعلب وهو من أئمتهم ، وراوي خبر سيبويه والكسائي: الفراء تلميذ الكسائي ، وراوي خبر اليزيدي والكسائي: اليزيدي نفسه ولم نسمع رواية الطرف الآخر ممن شاهد الوقائع ؛ ومع هذا نستطيع اعتبارها واقعة كما رووها لنا ونمضي في بحثنا ، جاعلين عدم نقض البصريين لهذه الروايات ـ فيما علمنا ـ إقراراً منهم بمضمونها. ونلاحظ بعد ذلك الأمرين الآتيين :

١ ــ لا يحتاج القارىء الى كثير روية حتى يطمئن الى أن الحق في كل هذه المناظرات كان بجانب البصريين : الأصمعي ، وسيبويه ، واليزيدي والمبرد ، وأن حجج الكوفيين في هذه المسائل واهية .

٢ ــ لم تكن اكثر هذه المجالس عادلة ، فميل السلطان الى احد الخصمين وتقريبه له ومكانته عنده ، كل ذلك قوى نفسه فاستطال على خصمه بدالته ولسانه وجاهه في القصر وعند الشهود ، وتحدثت هذه

(١) طبقات النحويين واللغويين ص ١٥٧

المجالس بغلبته ، الى ان مضت الأيام وانقضت تلك الاعتبارات وحكم التاريخ فرد الحق الى اهله .

. . .

وبعد ، فقد بلغ هذا الخلاف اجله ، ودرج العلماء والمؤرخون على ان هناك مذهباً بصرياً وآخر كوفياً ، فما معالم كل من المذهبين وما اهم الميزات لهذا وذاك ؟

ابادر قبل بسط هذه المعالم الى تسجيل امرين لا بد منهما اذا اردنا الدقة في البحث والاحتياط في الأحكام :

١ ـــ نحن اليوم نملك من كتب البصريين عدداً صالحاً يساعدنا في إرسال الاحكام بشيء من الاطمئنان، فقد راجت في الاقطار منذ تأليفها حتى اليوم ، وشرح منها الشيء الكثير ، وتداولته الطلبة على مر السنين ثم كان الذين ألفوا في طبقات النحويين واخبارهم ممن طبعت كتبهم ينصر اكثرهم المذهب البصري ، وكان النحو في الشام ومصر والمغرب والأندلس .. بصري الطابع في اكثر مسائله اغلب الأزمان . وهذا كله قد خدم كتب البصريين ونحوهم خدمة لم يحظ ببعضها المذهب الآخر .

اما الكوفيون فلم يطبع من كتبهم النحوية حتى الآن شيء فيما اعلم[1]

(١) بل اني سردت تراجم النحاة في (بغية الوعاة) فلا أذكر أنه مر بي كتاب في النحو الكوفي بعد أئمته الاولين غير ما جاء في ترجمة ابي جعفر التنوخي (-٣١٨)=

وانما اطلعنا على اقوالهم في كتب المتأخرين منثورة على المسائل، اي ان آراءهم وردت في كتب خصومهم - مع شيء من التجوز[1] - للرد عليها ؛ فان نحن اعتمدنا على ذلك في اصدار الأحكام ؛ لم نكن الى العدل في شيء . والحق يقضى الا نرسل حكماً بين فريقين الا بعد الاستماع الى حجج كل من فيه، وهذا مع الأسف ليس ميسوراً الآن.

٢ ـ هذه الميزات والمعالم الآتية بعد ، ليست جامعة مانعة ؛ فليست هناك قاعدة أجمع عليها نحاة البصرة وتوارد على معارضتها نحاة الكوفة اوقال بها الآخرون جميعاً وعارضها الأولون جميعاً . بل كثيراً مانجد العالم الواحد من اهل الكوفة مثلا يذهب الى احكام يوافق فيها مذهب خصومه ويخالف اهل مصره . وطالما تجد هذه الظاهرة في كتاب (الانصاف في مسائل الخلاف لابن الانباري[2] وفي كتب النحو

= من ان له مؤلفاً في النحو على مذهب الكوفيين ، إلا ان يكون مر بشيء وغفلت عنه .

(١) وقفني قول الزجاجي - وهو ممن خلط المذهبين - في كتاب الإيضاح (ص٨٠) : « أكثر ما أذكر من احتجاجات الكوفيين إنما أعبر عنها بالفاظ البصريين » حتى إذا مضيت في مطالعة الكتاب وجدت علة ذلك ص (١٣١) في قوله : « إذ لو تكلفنا حكاية الفاظ الكوفيين بأعيانها لكان في نقل ذلك مشقة علينا من غير زيادة في الفائدة ، بل لعل أكثر ألفاظهم لايفهمها من لم ينظر في كتبهم ، وكثير منها قد هذبها من نحكي عنه مذهب الكوفيين مثل ابن كيسان وابن شقير وابن الخياط وابن الأنباري .. » اه . قلت وهذا فارق هام بين المدرستين حين لايتضح مراد الواحدة إلا باستعارة عبارات الاخرى .

(٢) انظر مثلًا المسألة الثالثة (١٩/١) في خلافهم حول الألف والواو =

الأخرى [1]. وما أكثر ماتقرأ فيها : « قال البصريون الافلاناًوفلاناً كذا ، وذهب الكوفيون الا فلاناً الى كذا [2] ».

ولم يطرد الصواب في احد المذهبين اطراداً ، بل تجده تارة مع هؤلاء وتارة مع اولئك ، وحيناً وسطاً بينهما.

(٣)

الفروق بين المذهبين البصري والكوفي

بعد الاحتياط المتقدم نحصر الكلام على المذهبين في ناحيتين اثنتين اليهما مرد الامر كله ، وهما السماع والقياس .

امر السماع

تقع البصرة على سيف البادية ، واكثر عربها من قيس وتميم ، وقد

= والياء في التثنية والجمع :هل هي إعراب كالفتحة والضمة والكسرة أو هي حروف اعراب ، فتجد الكوفيين قالوا بالأول ، والبصريين بالثاني ، ووافق قطرب (البصري) مذهب الكوفيين . وانشق المازني والمبرد والاخفش عن البصريين برأي ثالث .

(١) انظر مثلا مغنى اللبيب : مادة (كلا) فقد اختلف في معناها الكسائي والفراء وكلاهما كوفي : قال الاول هي بمعنى حقاً وقال الثاني : هي بمعنى (ألا) الاستفتاحية .

(٢) وأطرف مفارقة اطلعت عليها أمر نحوي اسمه علي بن الحسن الهنائي المعروف بكُراع النمل مات بعد سنة ٣٠٧ فقد كان بصرياً اخذ عن البصريين وكان نحوياًعلى مذهب الكوفيين ـ انظر الفهرست لابن النديم ص ١٢٤ .

عرفت شأنها في الاحتجاج ، وتحف بها قبائل عربية سليمة السليقة لم تفسد لغتها بمخالطة الاعاجم ، فكانت هذه القبائل ترد سوق البصرة المشهورة (المِربد) . وأنت تعلم أن المربد كانت عكاظ الاسلام، ففيها تناشد وتفاخر كما فيها تجارة وبيع [1] ، وذلك له أثره في فصاحة أهل البصرة وسلامة لغتهم . ثم كانت هناك رحلات متبادلة ، فعلماء البصرة دائمو الترحال الى البادية والجزيرة يتلقون عن أعرابها، والاعراب دائمو الورود الى البصرة لشؤون معايشهم ، فقد ضرب في بوادي الجزيرة الأصمعي وابو عبيدة ويونس وابو زيد والخليل وغيرهم ، ثم كانوا يتحرون في الاخذ : أما العربي فيتحرون فيه سلامة لغته وسليقته [2] واما الراوي فالصدق والضبط ، ثم كانوا لا يعتدون بالشاهد اذا لم يعرف قائله أو لم يروه عربي يوثق بلغته [3] ، ومن هنا عجت بلدهم بفصحاء الأعراب المعروفين في كتب الأدب، الذين كانوا من مفاخر البصرة التي يعتدها البصريون .

---

(١) انظر بسط ذلك في كتابنا (اسواق العرب في الجاهلية والاسلام).

(٢) استضعف ابو عمرو بن العلاء فصاحة ابي خيرة الاعرابي لما سأله : كيف تقول استأصل الله عرقاتهم ؟ ففتح ابو خيرة التاء ، فقال له ابو عمرو : «هيهات ابا خيرة ، لان جلدك .» – الخصائص ٢/١٣ .

(٣) في كتاب سيبويه (١٠٥٠) شاهداً ، خمسون منها لم يعرف قائلوها ، فاعتذروا بأن سيبويه وثق برواتها . ومع هذا كان بين هذه الخمسين ما وضع وضعاً . وهو نزر يسير لا يعتد به .

اما الكوفة فهي أدخل في العراق واقرب الى الاختلاط بالاعاجم ولغة أعرابها ليست لها سلامة لغة أعراب البصرة ، فأكثرهم يمن وبها قليل من قبائل أخرى ، واليمن - كما رأيت في بحث الاحتجاج - لا يحتج بلغتها لتغيرها بالاختلاط بالفرس والاحباش ، ثم بين الكوفة وجزيرة العرب صحراء السماوة الشاسعة فلذا لم تكن رحلات علمائها الى الجزيرة كرحلات علماء البصرة ، والكسائي الذي ارتحل لم يرتحل الا لما تتلمذ على الخليل وسأله فأرشده الى الرحلة، وقد مر بك « ان اباعمرو جاور البدو اربعين سنة ولم يقم الكسائي بالبدو غير اربعين يوما[1] »، بل نقلوا ان الكسائي « حمل الى الاخفش خمسين ديناراً وقرأ عليه كتاب سيبويه سراً »[2] . نعم كان للكوفة سوق ارادوا بها أن تحاكي مربد البصرة وهي (سوق كناسة)، لكن لم يكن لها ذلك الشأن ، وهي الى ان تكون داعية إفساد اللغة اقرب منها الى ان تكون عاملا في صيانتها لان الاعراب الذين يؤمونها غير سليمي السلائق[3] . كل هذه العوامل

---

(١) مجالس العلماء للزجاجي (ص١٧١) طبعة حكومة الكويت) .

(٢) انظر مثلا مراتب النحويين ص ٧٤ .

(٣) في تاريخ آداب العرب للمرحوم مصطفى صادق الرافعي فصل مفيد جمع فيه ماوصل اليه من اسماء الأعراب الذين كان يحتكم الى فصاحتهم علماء العربية ، عنوانه (المحاكمة الى الأعراب ١/٣٥١) وفيه نقل عن الجاحظ أن « عكيم ابن عكيم الحبشي كان أفصح من العجاج ، وكان علماء أهل الشام يأخذون عنه كما أخذ أهل العراق عن المنتجع بن نبهان ؛ وكان المنتجع سنديا وقع الى البادية=

صرفت الكوفيين الى رواية الشعر ، فذلك هو الميسور لهم ،وزعموا أن سبب علمهم بالشعر وسبقهم فيه اهلَ البصرة :ان المختار بن ابي عبيد لما خرج بالكوفة قيل له : « ان تحت القصر الابيض الذي كان للنعمان كنزاً » ، فاحتفر فوجد الطنوج التي كان النعمان امر ان ينسخ فيها اشعار العرب فأخرجها، قالوا: فمن ثم كان أهل الكوفة أعلم بالشعر، هذه رواية حماد الراوية الكوفي[1].

هذا حال من ينقلون عنه من حيث السليقة وسلامة اللغة ، وأما الجهة الثانية وهي صدق الراوي وضبطه فلم يعنوا بها ، ولذا كثر الموضوع المصنوع في أكثر رواياتهم ،قال ابو الطيب اللغوي :«الشعر بالكوفة اكثر واجمع منه بالبصرة،ولكن اكثره مصنوع ومنسوب الى من لم يقله ، وذلك بين في دواوينهم »[2] وابعد من ذلك في الدلالة قصة خلف بن الاحمر راويتهم الكبير فقد قال :

= وهو صبي فخرج أفصح من رؤبة » اه ـ واقبال العلماء على هؤلاء الأعراب جعل لهم سوقاً رائجة حتى صار ينتحل الأعرابية بعض المرتزقة فذكروا أن أبا خالد النميري من أهل البصرة خرج الى البادية فأقام أياماً يسيرة ثم رجع الى البصرة يتبادى ويتقعر ، فرأى الميازيب فأنكرها قائلاً وما هذه الخراطيم التي لا نعرفها في بلادنا .. !!» لكن هؤلاء المنتحلين لم يكونوا يخفون على العلماء .

(١) انظر الخصائص ١/٣٨٧ . الطنوج : الكراريس. والخبر كله اسطورة من الصعب تصديقها ولعله وضع كما توضع اشباهه من الاخبار النافخة في العصبية للبلدان .

(٢) عن مراتب النحويين ٧٤ .

« اتيت الكوفة لأكتب عنهم الشعر فبخلوا علي به فكنت اعطيهم المنحول وآخذ الصحيح ، ثم مرضت فقلت لهم : « ويلكم ، انا تائب الى الله تعالى ؛ هذا الشعر لي ». فلم يقبلوا مني وبقي منسوباً الى العرب لهذا السبب .[1]

اما راويتهم الاكبر «حماد» فهو الشمس شهرة في كذبه ووضعه ، و «قد سلط على الشعر من حماد الرواية ماافسده فلايصلح ابداً ... فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل من الاقدمين ويدخله في شعره ويحمل عنه ذلك في الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها الا عندعالم ناقد، وأين ذلك»[2] ولا تنس استشهاده باللحن أيضاً حتى امتنع الكميت الشاعر عن إملاء شعره عليه وقد طلب ذلك منه وقال له : « أنت لحان ولا أكتبك شعري »[3] .

وقد عجب يونس « كيف يأخذ الناس عن حماد وهو يلحن ويكسر الشعر ويكذب ويصحف ؟! »[4] ولا تنس أنه ديلمي من السبي .

---

(١) وفيات الاعيان ٣٩٣/١ .

(٢) كلمة المفضل الضبي – ارشاد الاريب ٢٦٥/١٠ . وعلى ان المفضل الضبي هذا « أعلم من ورد علينا من غير اهل « البصرة» بتعبير ابن سلام (انظر طبقات الشعراء ص ٢١) فقد وقع هو نفسه فيما خاف منه ، فذكر ابن سلام في كلامه على عدي بن زيد انه « حمل عليه شيء كثير ، وتخليصه شديد واضطرب فيه خلف وخلط فيه المفضل فأكثر !!» ص ١١٧ .

(٣) الموشح للمرزباني ص ١٩٥ . (٤) مراتب النحويين ص ٧٣ .

كان من الطبيعي اذاً أن يطرح الثقات روايات أهل الكوفة وقد ملأها حماد وخلف وغيرهما بالمصنوع ، وصار ذلك مما يميز مدرسة الكوفة [1] من مدرسة البصرة ، وعرف ذلك الخاص والعام، حتى أتى من ألف في طبقات النحويين فسجل الظاهرة الآتية :

«لا يعلم أحد من علماء البصريين بالنحو واللغة أخذ عن أهل الكوفة إلا أبا زيد الأنصاري البصري ، فقد روى عن المفضل الضبي الكوفي» [2] وحتى كانوا اذا بالغوا في الثناء على علم كوفي شبهوا روايته برواية أهل البصرة فقالوا في ترجمة ابن الاعرابي تلميذ المفضل الضبي : «ولم يكن أحد من الكوفيين أشبه روايةً برواية البصريين منه» [3].

---

(١) قال ابو عكرمة المبرد : «ما يساوي نحوك عند ابن قادم الكوفي شيئاً .. لان له لغة بخلاف هذه وشواهد من الشعر عجيبة» فجعل ينشدني ويحدثني ويضحك ، فكان من ذلك أن قال لي : «سمعته يقول : «أرز ورُنز» ثم أنشد:

قربا يا صاح رُنْزه ... واجعل الاصل اوزّه

واصفف القينات حقاً ... ليس في القينات عزه

فقلت له : «من يقول هذا ؟» فقال : «بعض العرب المتحضرة» فقلت : «بل بعض النبط المتقذرة» - تاريخ آداب العرب للرافعي ٣٧١/١ وابن قادم هذا من أعلام الكوفيين من أعيان أصحاب الفراء ومن تلاميذه ثعلب وقد مرت بك قصته في باب الاحتجاج .

(٢) نزهة الالباء لابن الانباري ص ١٧٥ .

(٣) بغية الوعاة ٤٢ . سأله ثعلب عن بضع عشرة مسألة من شعر الطرماح في مجلس واحد فقال في كلها : «لا ادري ولم اسمع» أفأحدث لك برأيي ؟» =

ومثل ذلك قيل في شيخه المفضل الضبي .

أما أهل الكوفة فيروون عن أهل البصرة اذ كانوا أساتذتهم ،حتى الكسائي الذي قرأ على الخليل ويونس وعيسى بن عمر ، ورأى تحريهم فيما ينقلون وفيمن يشافهون ، زايل التحري حين انتقل الى بغداد[1] وكان أمره كما قال أبو زيد الانصاري : « قدم علينا الكسائي البصرة فلقي عيسى والخليل وغيرهما ، وأخذ منهم نحواً كثيراً ، ثم صار الى بغداد فلقي أعراب الحُطمية فأخذ عنهم الفساد من الخطأ واللحن ، فأفسد بذلك ما كان أخذه بالبصرة كله »[2].

= هذا مع وصفهم له بالاتساع في العلم جداً وانه « لم يرَ احد في علم اللغة والشعر كان اغزر منه » انظر الصفحة نفسها وفي امالي اليزيدي (ص ٩٠ طبعة حيدر آباد ١٣٦٧ هـ) ان ابن الاعرابي قال :

أصير في كل شهر الى أبي الوليد محمد بن ابي أحمد بن ابي دؤاد أربعة مجالس وآخذ منه ألف درهم وأصرفها الى الاعراب الفصحاء لاستفيد منهم .» قال ثعلب : « ما رأيت أعطى للأعراب الفصحاء من ثلاثة : إسحاق الموصلي واحمد بن ابراهيم الكاتب ، وابن الاعرابي» .

قلت : وفي هذه الصفات كلها التي اسبغت على هذا العالم الكوفي ما فيها من الدلالة على شأن مدرسة البصرة في صحة الرواية .

(١) انظر ص ١٤٩ .

(٢) ارشاد الاريب ١٣/١٨٢ . الحطمية قرية على فرسخ من شرقي بغداد. وذكر الاصمعي « ان الكسائي يأخذ اللغة عن اعراب الحطمية ينزلون بقطر بل (قرية بين بغداد وعكبرا) وغيرها من قرى سواد بغداد ، فلما ناظر سيبويه استشهد بكلامهم واحتج بهم وبلغتهم على سيبويه » ١٣/١٨١ . وانظر فيما وقع=

كل ما تقدم مشهور متعارف عنـد أهل العلم قديماً ، حتى ان ابن سلام لما نقل قول المفضل الضبي : « للأسود بن يعفر ثلاثون ومئة قصيدة» ، عقب عليه بقوله : « ونحن لا نعرف له ذلك ولا قريباً منه ؛ وقد علمت أن أهل الكوفة يروون له أكثر مما نروي ويتجوزون في ذلك بأكثر من تجوزنا.»[1]

ولا تظنن هذا الطابع طبع مدرسة الكوفة في علوم العربية فحسب ، بل هو سمتهم في كل ما يعتمد السماع واليك حكم الخطيب البغدادي على مدرسة الكوفة ومدرسة البصرة في الحديث قال :

« ولأهل البصرة من السنن الثابتة بالأسانيد الواضحة ما ليس لغيرهم مع إكثارهم ، والكوفيون مثلهم في الكثرة غير أن رواياتهم كثيرة الدغل قليلة السلامة من العلل»[2].

هذا فرق ما بين المدرستين في أمر السماع وصحته والتحري فيه .

= له من لحن حتى في قراءة القرآن انباه الرواة ٢/٢٦٢، ٢٦٣ وهو – وإن كان سهواً – دليل على ضعف ملكته .

(١) طبقات الشعراء ص ١٢٣ . هذا وكان ابو حاتم السجستاني يقول مريداً البصريين : « فاذا فسرتُ حروف القرآن المختلف فيها ، او حكيت عن العرب شيئاً فانما أحكيه عن الثقات عنهم مثل ابي زيد والاصمعي وابي عبيدة ويونس وثقات من فصحاء الأعراب وحملة العلم ؛ ولا ألتفت الى رواية الكسائي والاحمري والاموي والفراء ونحوهم ، وأعوذ بالله من شرهم » . – مراتب النحويين ص ٩٠ . (٢) نقله المرحوم جمال الدين القاسمي في كتابه قواعد =

أمر القياس :

رسم البصريون خطتهم في النحو بعد أن جعلوا نصب أعينهم الهدف الذي اليه يرمون ، وهو عصمة اللسان من الخطأ وتيسير العربية على من يتعلمها من الأعاجم . ولذا تحروا ما نقلوا عن العرب ثم استقروا أحواله فوضعوا قواعدهم على الاعم الاغلب من هذه الاحوال ، فإن تناثر هنا وهناك نصوص قليلة لا تشملها قواعدهم سلكوا بها — بعد التحري من صحة نقلها عن العرب المحتج بكلامهم — احدى طريقتين: اما أن يتأولوها حتى تنطبق عليها القاعدة . واما أن يهملوا أمرها لقلتها فيحفظوها ولا يقيسوا عليها ، جاعليها من الصنف الذي سموه مطرداً في السماع شاذاً في القياس ، وقد مر بك هذا (ص ٦٢) . وذلك مثل (استحوذ واستصوب) والقياس فيها الإعلال مثل (استقال، استجاد، استطال .. الخ) فقالوا : تحفظ الكلمات النادرة التي وردت عن العرب في هذا الباب ولا يقاس عليها ، بل منهم من ذهب الى أن اتخاذ القياس فيها (استحاذ ، استصاب) غير خطأ .

وهم الذين أمعنوا في أحوال الكلام العربي ، واستنبطوا علله ، وحكّموا فيها المنطق والعقل حتى جاءت قواعدهم في القياس والنحو

= التحديث ص ٥٨ . وللحاكم كلمة قريبة من هذه قال : « وأكثر المحدثين تدليساً أهل الكوفة ونفر يسير من أهل البصرة » — انظر « معرفة علوم الحديث » ص ١١٢ .

الذي بني عليها متماسكة متناسقة في الجملة ، ولا بد في كل تنسيق من تشذيب يخرج بعض النتوء من الهيكل المشذب. ولم يكن الى الصواب من عاب عليهم من المحدثين أنهم بتعميم هذه القواعد قد أهدروا شيئاً من اللغة ، فهم حين يختارون بين اللغتين أشيعهما وأقربهما الى القياس، قد قاموا بخير ما يمكن أن يقوم به من يريد حفظ اللغة ، ومع أن الكوفيين جمعوا ماهب ودب ولم يفرطوا في شيء مما وصل اليهم ،لم يدعوا ولم يدّع لهم أحد أنهم لموا اللغة من أطرافها وأحصوها،وأنا نجد عندهم كل لغات العرب بلهجات قبائلها ؛ بل نحن أحرى أن نجد عند البصريين المنظمين المنسقين مالا نجده عند غيرهم ، فالنظام يحفظ في نسق ما لا يستطيع غيره ان يحفظه .

أما الكوفيون فلم تكن لهم أصول يبنون عليها غير ما أخذوه عن أساتذتهم البصريين ولم يحسنوه ، ثم جعلوا من عدم المنهج في سماعهم منهجاً خاصاً لهم ، فسمعوا الشاذ واللحن والخطأ،وأخذوا عمن فسدت لغته من الأعراب وأهل الحضر ؛ فلما اقتضتهم المنافسة ان يكون لهم قياس كما لأولئك بنوه على ماعندهم مما يتنزه عن روايته البصري،ثم جعلوا كل شاذ ونادر قاعدة لنفسه، فانتشرت عليهم قواعدهم ولم يعدْ لها مايمسكها من نظام او منطق،وضاعت الغاية من وضع النحو فلم يعد ـ في ايديهم ـ أداة تيسير لتعلم العربية، بعد أن اصبحت له قواعد بعدد ما جمعوا من شواهد ، وهذا شيخهم وكبيرهم الكسائي : « كان يسمع الشاذ

الذي لايجوز من الخطأ واللحن وشعر غير أهل الفصاحة، والضرورات، فيجعل ذلك أصلا ويقيس عليه حتى أفسد النحو »[1] وحتى ضاق به وبقياسه وبسماعه اليزيدي فقال :

كنا نقيس النحو فيما مضى على لسان العرب الأول
فجاءنا قوم يقيسونه على لغى اشياخ قطربل
فكلهم يعمل في نقض ما به يصاب الحق لايأتلي
ان الكسائي وأشياعه يرقون بالنحو الى اسفل[2]

وغلب هذا الانحراف على الكوفيين حتى قال الاندلسي شارح المفصل : «الكوفيون لوسمعوا بيتا واحدا فيه جواز شيء مخالف للاصول جعلوه اصلا وبوبوا عليه..»[3]

اما قياسهم نفسه ومقدار جودته فقد مر بك في المناظرات نمط منه وعرفت وهيه حين يعللون بالتوهم مرة في رسم (والضحى)، وبتسليط فعل مقدر على احد المتعاطفين دون الثاني في قضية (فاذا هو اياها).

* * *

اتجه بعض الباحثين المحدثين الى عد المذهب الكوفي مذهب سماع

(١) ارشاد الاريب ١٣/١٨٣ . ويقول ابن درستويه . « كان الكسائي يسمع الشاذ الذي لا يجوز الا في الضرورة فيجعله أصلا ويقيس عليه فأفسد النحو بذلك - بغية الوعاة ص ٢٣٦ .

(٢) أخبار النحويين البصريين ص ٤٤ وبغية الوعاة ص ٣٣٦ وإرشاد الاريب ٢٠/٣١ .

(٣) الاقتراح ١٠٠ .

على حين عدوا المذهب البصري مذهب قياس ، فذهب الاستاذ احمد امين الى أن الكوفيين «يحترمون كل ما جاء عن العرب ويجيزون للناس ان يستعملوا استعمالهم»[1]، وبالغ المرحوم الاستاذ طه الراوي فقال : «أما مذهب الكوفيين فلواؤه بيد السماع ، لا يخفر له ذمة ولا ينقض له عهداً . ويهون على الكوفي نقض أصل من أصوله أو نسف قاعدة من قواعده ، ولا يهون عليه اطراح المسموع على الاكثر .»[2]

وأود هنا — بعد ما مر بك — أن أحرر هذا الأمر فأفرق بين القياس ذي الأصول المقررة ، والقياس المشوش الذي لا ضابط له. فالصحيح أن الفريقين كانا يقيسان ، وربما كان الكوفيون أكثر قياساً إذا راعينا (الكم) فهم يقيسون على القليل والكثير والنادر والشاذ ، ولم نعلم لهم مناهج محررة في القياس . أما البصريون فهم أقيس إذا راعينا (الكيف) — والحق مراعاته — فهم لا يقيسون إلا على الأعم الأغلب، ولهم في القياس اصول عامة يراعونها . والزمن حكم لعلمهم بالبقاء إذ كان الأنسب والأضبط، فكان نحو الناس حتى هذا اليوم بصرياً في أغلبه.

تصرفت الحياة في هذا الأمر بما لا يشعر به البصريون ولا الكوفيون ، إذ أن لها اختيارها الخاص الملائم : تقبل ما يروقها

(١) ضحى الاسلام ٢/٢٩٥ .

(٢) نظرة في النحو : مجلة المجمع العلمي العربي ١٤/٣١٩ .

وتحييه غير آبهة لما يقول هؤلاء ولا ما يقول اولئك ، وإنما السليقة اللغوية الخفية في نفوس المتكلمين هي التي احتفظت بماكان أقرب لروح العربية الأولى : فمات بل لم يولد ما جانف هذه السليقة ، فما احد قال ولا يقول اليوم (الرجال قام) وإن قال المذهب الكوفي بتقديم الفاعل على الفعل .

اما السماع فهل كان الكوفيون (يحترمونه) حقاً كما قال الأستاذ احمد امين ؟ ، (وهل كان لواؤه بيدهم لا يخفرون له ذمة) كما قال المرحوم الاستاذ طه الراوي ؟ لعلك بعد ما سبق لك موقن معي ان السماعيين هم البصريون لا الكوفيون ؛ فمن احترام السماع صيانته وحفظه من كل موضوع ، ومن احترامه تحري حال المسموع منه ، فلا فلا يُدس فيه كلام الذين فسدت لغتهم من أعراب الحطمية وأشياخ قطربّل ، ومن احترامه ألا نساوي فيه بين القليل النادر والاكثر الشائع فنغمط حق هذا الاخير . وإنْ حشرنا فيه الضعيف والشاذ واللحن والخطأ مما يقع فيه أعراب السواد ، والشعر المصنوع مما دسه حماد وخلف الكوفيان ؛ خفر لذمته ونقض لعهده[1] .

الحق أن البصريين عنوا بالسماع فحرروه وضبطوه (واحترموه)،

---

(١) كان يونس بن حبيب يقول : إن لم يكن بُزرج النحوي (الكوفي) أروى الناس فهو اكذب الناس .» كان كذاباً ، كثيراً ما يحدث بالشيء عن رجل ثم عن غيره . — انظر ترجمته في الفهرست وفي إنباه الرواة .

على حين زيفه الكوفيون وبلبلوه ، والامر في القياس على هذه الوتيرة، نظمه وحرر قواعده وأحسن تطبيقه البصريون ، على حين هو في يد الكوفيين مشوش غير واضح المعالم ولا منسجم في أجزائه ، ولا مطرد . بل تجد فيه ظاهرة غريبة جداً ، وهي إطلاقهم - وهم المتقيدون بالسماع - الاشتقاق فيما لم يسمع عن العرب ، فقد ذهبوا الى قياس (مَفْعل وفُعال على نحو مثنى وثلاث) من خمسة الى تسعة على حين لم يسمع عن العرب ذلك إلا من واحد الى اربعة ، والبصريون أنفسهم - وهم القياسيون - منعوه (إلا المبرد منهم) لعدم السماع ، ولأن يكون ذلك من البصريين أحرى اذ هو بمذهبهم أشبه وعن مذهب الكوفيين أبعد . وهذا يؤكد لك ما ذهبت اليه من أنه مذهب غير منسجم الأجزاء .

أميل اذاً الى أن المذهب الكوفي لا هو مذهب سماع صحيح ولا مذهب قياس منظم . لكن التاريخ يؤيد وجود المذهبين مذهب السماع ومذهب القياس وهما حقاً وجدا ولكن في البصرة لا في الكوفة . أما القياس فليست بصريته موضع خلاف ، وأما السماع الصحيح فإني أوثر أن أنقل فيه كلام الاستاذ احمد امين نفسه في أن هذه المدرسة مدرسة بصرية ، قال :

«كانت هاتان النزعتان في البصرة في أيامها الاولى ، فهم يقولون : إن ابن أبي اسحاق الحضرمي وتلميذه عيسى بن عمر كانا أشد ميلاً للقياس

وكانا لا يأبهان بالشواذ ولا يتحرجان من تخطئة العرب ؛ وكان أبو عمرو بن العلاء وتلميذه يونس بن حبيب البصريان أيضاً على عكسهما: يعظمان قول العرب ويتحرجان من تخطئتهم ، فغلبت النزعة الأولى على من أتى بعد من البصريين ، وغلبت النزعة الثانية على من أتى بعد من الكوفيين ولا سيما الكسائي الكوفي .»

وهذا حق مع استدراك واحد ، هو أن أبا عمرو ويونس يعظمان قول العرب بعد التحري والتثبت من أنه كلام العرب المحتج بهم ، أما الكوفيون فلا يتحرون ، ولو قال الأستاذ (فغلبت النزعة الثانية مشوهة الخ..) لطبّق المفصل ، وجميل ما حكم به بعد ذلك بين المذهبين:

« ونرى في هاتين النزعتين أن البصريين كانوا أكثر حرية وأقوى عقلاً ، وأن طريقتهم أكثر تنظيماً وأقوى سلطاناً على اللغة ، وأن الكوفيين أقل حرية وأشد احتراماً لما ورد عن العرب ولو موضوعاً (كذا) ، فالبصريون يريدون أن ينشئوا لغة يسودها النظام والمنطق، ويميتوا كل أسباب الفوضى من رواية ضعيفة أو موضوعة او قول لا يتمشى مع المنطق والكوفيون يريدون أن يضعوا قواعد للموجود حتى الشاذ ، من غير أن يهملوا شيئاً حتى الموضوع »[1]

---

(١) ضحى الاسلام ٢/٢٩٦ .

هذا وللقاضي الجرجاني في كتابه (الوساطة) الذي ألفه الدفاع عن المتنبي الكوفي والحكم بينه وبين خصومه ، حكم يسرني إثباته له لما فيه من توضيح =

وبهذا لا يكون من الدقة ـ في رأيي ـ إطلاق النزعة السماعية على المذهب الكوفي والنزعة القياسية على المذهب البصري . والدقة التي يؤيدها التاريخ والإمعان فيه وفي أقوال الكوفيين والبصريين ألا يكون مذهب بصري يقابله مذهب كوفي بل نزعة سماعية يقابلها نزعة قياسية يختلف حظ كل منهما صحة وحالاً ومقداراً بين البلدين ، بل بين نحاة كل بلد على حدة . على ذلك الأساس يصح أن نعيد النظر في النحو وتاريخه ورجاله بهذا التصنيف الجديد ، بعد أن علمنا أن النزعتين تتمثلان على حقهما بالبصرة لا بالكوفة .

. . .

وبعد فهذه أحكام تقريبية لا مطردة ، إذ أن في المذهب الكوفي مسائل جيدات تختار على مثيلاتها في المذهب البصري ، كإعمالهم مثلاً اسم المصدر عمل المصدر ، فحكمهم في ذلك صحيح واضح تؤيده روح القواعد والمنطق ، وشاهداهم عليه صحيحان قويان[1] وما اتجهوا اليه

=الأمر هنا على رغم سوقه مساق الدفاع عن الكوفيين قال :

ولأهل الكوفة رخص لا تكاد توجد لغيرهم من النحويين .... غير انهم لا يبلغون بها مرتبة « الاهمال » للقواعد العامة . انظر الوساطة ص ٤٦٦ .

(١) قول القطامي يمدح زفر بن الحارث الكلابي :

أكفراً بعد رد الموت عني وبعد عطائك المئة الرتاعا

والحديث الشريف : « من قبلة الرجل امرأته الوضوء » =

في اعراب مخصوص (نعم وبئس)[1] أيسر وأقرب الى الفطرة اللغوية من مذهب اخوانهم البصريين، وكذهاب بعضهم في قضية (أشياء) وانها جمع لشيء منعت من الصرف لشبه ألفها بألف التأنيث[2]، ولهم أشباه هذه المسائل.

وبذلك تدرك صواب الظاهرة التي قدمت بها هذا الكلام من ان الحق يصيبه هؤلاء تارة وهؤلاء تارة .

ونختتم هـذه الفقرة بمثل صغير من الخلاف بين المدرستين ننتزعه من كتاب (الإنصاف في مسائل الخلاف لابن الأنباري) نموذجاً لقضايا جاوزت المئة في هـذا الكتاب ، يبسط في كل منها رأي الكوفيين وحججهم ثم رأي البصريين وحججهم مع ردودهم على حجج الكوفيين غالباً .

= ففزع البصريون في رد القاعدة الى أن الحديث مروي بالمعنى ، والى ان البيت فيه ضرورة .

لكن الزمن حكم للكوفيين فصحت قاعدتهم وسار عليها الناس وقبلها النحاة حتى يومنا هذا . ونحو من هذا : القاعدة التي وضعها البصريون في وجوب إعادة الجار قبل المعطوف على المجرور وقد عرفت أمرها ص ٣٩ .

(١) انظرها في كتاب (الانصاف في مسائل الخلاف) ص ٦٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٨٢ فقد ركب البصريون في هذه المسألة متن عمياء واضطروا الى الاستغاثة بأوهى العلل حتى بانحراف اللسان وكان من حججهم قول بعض العرب (ما أيطبه) بدل (ما أطيبه) !

٩٢ — مسألة سوف

ذهب الكوفيون الى ان السين التي تدخل على الفعل المستقبل نحو (سأفعل) أصلها (سوف) ، وذهب البصريون الى انها أصل بنفسها .

أما الكوفيون فاحتجوا بأن قالوا : إنما قلنا ذلك لأن سوف كثر استعمالها في كلامهم وجريها على ألسنتهم ، وهم أبداً يحذفون لكثرة الاستعمال كقولهم : « لا أدر ، ولم أبل ، ولم يك ، وخذ ، وكل » وأشباه ذلك ، والاصل :

« لا ادري ، ولم أبال ، ولم يكن ، والأخذ ، والأكل » فحذفوا في هذه المواضع وما أشبهها لكثرة الاستعمال فكذلك ها هنا : لما كثر استعمال (سوف) في كلامهم حذفوا منها الواو والفاء تخفيفاً .

والذي يدل على ذلك انه قد صح عن العرب انهم قالوا في (سوف أفعل): (سو أفعل) فحذفوا الفاء ، ومنهم من قال (سف افعل) فحذف الواو واذا جاز ان يحذف الواو تارة والفاء اخرى لكثرة الاستعمال جاز ان يجمع بينهما في الحذف مع تطرق الحذف اليهما في اللغتين لكثرة الاستعمال . والذي يدل على ذلك أن السين تدل على ماتدل عليه سوف من الاستقبال ، فلما شابهتها في اللفظ والمعنى دل على انها مأخوذة منها وفرع عليها .

وأما البصريون فاحتجوا بأن قالوا : إنما قلنا ذلك لأن الاصل في كل حرف يدل على معنى ألا يدخله الحذف وان يكون اصلا في نفسه ، والسين حرف يدل على معنى ؛ فينبغي ان يكون اصلا في نفسه لا مأخوذاً من غيره .

وأما الجواب عن كلمات الكوفيين : اما قولهم « ان (سوف) لما كثر استعمالها في كلامهم حذفوا الواو والفاء لكثرة الاستعمال » قلنا هذا فاسد ؛ فان الحذف لكثرة الاستعمال ليس بقياس ليجعل اصلا لمحل الخلاف ، على ان الحذف ولو وجد كثيراً في غير الحرف من الاسم والفعل فقلما يوجد في الحرف ، وان وجد الحذف في الحرف في بعض المواضع فهو على خلاف القياس فلا يجعل اصلاً يقاس عليه .

وأمّا ما رووه عن العرب من قولهم في: (سف أفعل)، (سوف أفعل) و (سف أفعل) فالجواب عنه من ثلاثة اوجه :

الوجه الاول: ان هذه رواية تفرد بها بعض الكوفيين؛ فلا يكون فيها حجة

والوجه الثاني ان صحت الرواية عن العرب فهو من الشاذ الذي لا يعبأ به لقلته.

والثالث : ان حذف الفاء والواو على خلاف القياس ؛ فلا ينبغي ان يجمع بينهما في الحذف لأن ذلك يؤدي الى مالا نظير له في كلامهم ؛ فانه ليس في كلامهم حرف حذف جميع حروفه طلباً للخفة على خلاف القياس حتى لم يبق منه الا حرف واحد ، والمصير الى مالا نظير له في كلامهم مردود .

وأما قولهم « إن السين تدل على الاستقبال كما ان (سوف) تدل على الاستقبال » قلنا : هذا باطل ؛ لانه لو كان الامر كما زعمتم لكان ينبغي أن يستويا في الدلالة على الاستقبال على حد واحد ، ولا شك أن (سوف) أشد تراخياً في الاستقبال من السين ، فلما اختلفا في الدلالة دل على أن كل واحد منهما حرف مستقل بنفسه غير مأخوذ من صاحبه والله اعلم . »[1]

(٤)

أثر العصبية في الخلاف

جرى بعض الباحثين قديماً وحديثاً على رد الخلاف النحوي بين هذين المصرين العربيين الى السياسة ، وهو رأي سطحي لا يثبت عند التدقيق : فأهل النظر في كل فن تتباين أنظارهم كثيراً دون ان يكون للسياسة او غيرها في ذلك أثر ، وانما هو الاجتهاد المحض ؛ وهؤلاء أئمة البصريين يختلفون — فيما بينهم — اتجاهاً واجتهاداً في مسائل

(١) الانصاف في مسائل الخلاف لابن الانباري ص ٣٧٩ (مطبعة الاستقامة في القاهرة) .

كثيرة من مسائلهم . نعم ربما كان للسياسة أثر ما في ميل الأمراء العباسيين الى الكوفيين ، لكن هذا شيء وتوجيه الفن الى اتجاه خاص شيء آخر .

اما هذه الاحداث التي كانت تكون بين كوفي وبصري في قصور الحكام فنوع من الدفاع عن القوت اولاً وميل الى العصبية البلدية[1] آخراً. ولا تظن ان ما مر بك من مشاحنات بينهم كان يصرف بعضهم عن الانتفاع بعلم بعض ، وحسبك ان تعلم أن الفراء مات « وتحت رأسه كتاب سيبويه » وأن الكسائي وهب للأخفش خمسين ديناراً لقراءته كتاب سيبويه عليه وانه « سلخ كتابه في معاني القرآن من كتاب الأخفش »[2] ، وأن الجاحظ لما عدد مفاخر البصرة على الكوفة قال : « وهؤلاء يأتونكم بفلان وفلان وبسيبويه الذي اعتمدتم على كتبه وجحدتم فضله » ولما اشترى الجاحظ كتاب سيبويه من ميراث

---

(١) لما نعى الاحمر الى الفراء وكلاهما كوفي (وكانت بينهما وحشة) ، ذكره بخير واثنى عليه ، فقال اهل زمانه : « لم يذكره لمحبة له ، وإنما ذكره ليكاثر اهل البصرة بأهل الكوفة — إنباه الرواة ٢/٣١٧ .

(٢) بغية الوعاة ص ٣٥٨ وانظر إنباه الرواة ٢/٣٧ حيث قول الاخفش: سألني الكسائي ان اؤلف له كتاباً في معاني القرآن ، فألفت كتابي في المعاني فجعله اماماً ، وعمل عليه كتاباً في المعاني ، وعمل الفراء كتابه في المعاني عليهما، هذا وذكروا ان (معاني الكسائي)لو قرىء عشر مرات لاحتاج من يقرؤه أن يقرأه— إنباه الرواة ٢/٢٦٥ .

الفراء رآه أثمن ما يهدى الى محمد بن عبد الملك الزيات ، فلما دخل عليه وقد افتصد سأله : « ما أهديت لي يا ابا عثمان ؟ » قال « أطرف شيء : كتاب سيبويه بخط الكسائي وعرض الفراء !! » .. الى غير ذلك من الأخبار التي ان صدقتها فدلالتها على العصبية البلدية ظاهرة ، وان ذهبت الى وضعها أو التزيد فيها فالدلالة أظهر .

لم يختلف نحاة المصرين تبعاً لاختلاف سياسة بلديهما، فليس للسياسة تأثير مباشر في ذلك ، وانما كان التكتل استجابة للعصبية ليس غير :

أنشئت البصرة والكوفة على عهد عمر بن الخطاب، وانقضت سنون من عهد عثمان والمصران كالبلد الواحد ولبعض القبائل جماعات في كل منهما ، فلما كان الشغب أيام عثمان أسهم العراقيون فيه ؛ وآلت الأمور الى قتل الخليفة والفتن المتلاحقة بعد . وكان أن انضم البصريون في وقعة الجمل الى عائشة وطلحة والزبير ، وانضم الكوفيون الى علي ، وكانت الملحمة بينهما، واستحر القتل ، وكان لكل فريق مجزرة هائلة في الفريق الآخر .

فمن ثم العداوة والتخاصم والتنافس بين البلدين . فلما انقضى عهد القلاقل خلف في أذهان الفريقين قصصاً وأدباً وشعراً ووقائع تذكر بالفخر تارة وبالوجيعة تارة اخرى[1]

---

(١) انظر اخبارها في معجم البلدان لياقوت ، وفي كتاب البلدان للهمداني ففيها طرائف ، وانظر على سبيل التمثيل ابيات اعشى همدان ينتصر =

فهذا ماولدت العصبية والتنافس بين وفود الفريقين ورجالاتهم في الأسمار ومجالس الأمراء.

ولئن كانت احداث سياسية خاصة هي المفرقة قديماً ، انها تطورت مع الزمن وتحول اتجاهها ، حتى تبلورت في عصبية للبلد[1] وثبتت عليه كما نجد انماطاً من ذلك في مثل كتاب البلدان للهمداني ، بل ان بعضهم كان يؤلف في مفاخر بلده كما فعل الهيثم بن عدي الكوفي (ـــ ٢٠٩) فألف كتابه (فخر أهل الكوفة على أهل البصرة)[2] .

= للكوفة على البصرة :

اكسع البصري إن لاقيته	إنما يكسع من قل وذل
واجعل الكوفي في الخيل ولا	تجعل البصري إلا في النفل
وإذا فاخرتمونا فاذكروا	ماصنعنا بكمُ يوم الجمل
بين شيخ خاضب عثنونه	وفتى أبيض وضاح رفل
جاءنا يخطر في سابغة	فذبحناه ضحى ذبح الجمل
وعفونا فنسيتم عفونا	وكفرتم نعمة الله الاجل

كسعه : ضربه بصدر قدمه على مؤخره ــ الرفل : المتبختر ، الكثير اللحم ــ السابغة : الدرع الطويلة . وانظر في ذلك كتابنا(عائشة والسياسة).

(١) قال الجاحظ في كتاب (البلدان) وقد ذكر فضل البصرةورجالها : وفينا اليوم ثلاثة رجال لغويون ليس في الارض مثلهم ، ولا يدرك مثلهم ــ يعني في الاعتلال والاحتجاج والتقريب ــ ابو عثمان المازني والثاني العباس بن الفرج الرياشي ، والثالث ابو اسحاق ابراهيم بن عبد الرحمن الزيادي . وهؤلاء لايصاب مثلهم في شيء من الأمصار » .! وكتب كتابه هذا في شهر ربيع الاول سنة ٢٤٨ هـ ـ من انباه الرواة ١/٢٤٨ .

(٢) إرشاد الاريب ١٩/٣١٠ .

المدافعة عن اسباب العيش أولا وقبل كل شيء ثم العصبية للبلد لا للسياسة (عاملا ثانوياً) هما اللذان لوّنا الخلاف النحوي ولم يوجداه، لوّناه بشيء من العنف رأيت أنماطاً منه في المناظرات التي مرت بك ؛ وفي مثل قول اليزيدي يمدح نحويي البصرة ويهجو الكسائي واصحابه :

ياطالب النحو ألا فابكه	بعد ابي عمرو وحماد
وابن ابي إسحاق في علمه	والزين في المشهد والنادي
عيسى وأشباه لعيسى ، وهل	يأتي لهم دهر بأنداد
هيهات ، إلا قائلا عنهم	أرسوا له الاصل بأوتاد
فهو لمنهاجهم سالك	لفضلهم ليس بجحاد
ويونس النحوي لاتنسه	ولا (خليلًا) حية الوادي
وقل لمن يطلب علماً : ألا	ناد بأعلى شرف ناد :
وا ضيعة النحو به مغرب	عنقاء أودت ذات إصعاد
افسده قوم وأزروا به	من بين أغتام واوغاد
ذوي مراء وذوي لكنة	لئام آباء واجداد
لهم قياس احدثوه همُ	قياس سوء غير منقاد
فهم من النحو ـ ولو عمّروا	اعمار عاد ـ في (أبي جاد)
اما الكسائي فذاك امرؤ	في النحو حارٍ غير مرتاد
وهو لمن يأتيه جهلًا به	مثل سراب البيد للصادي[1]

(١) أخبار النحويين البصريين ص٤٤ ـ رجل أغتم من قوم أغتام : لا يفصح. الحار : الحائر . (أبي جاد: أبجد ، هوز الخ) يريد أنهم لا يتجاوزون أول العلم لضعف استعدادهم كما أن الصبي في الكتّاب أول ما يتعلمه حروف (أبجد هوز).

وهجا المبرد البصري ثعلباً الكوفي بقوله :

أقسم بالمبتَسم العذب ومشتكى الصب الى الصب
لو أخذ النحو عن الرب ما زاده إلا عمى القلب

فتمثل ثعلب :

يشتمني عبد بني مسمع فصنت عنه النفس والعرضا
ولم أجبه لاحتقاري له من ذا يعض الكلب إن عضا[1]

وأراد ثعلب هذا أن يقرأ على المبرد البصري،فأنكر عليه أصحابه الكوفيون وقالوا : « مثلك لا يصلح أن يمضي الى بصري فيقال غداً : إنه تلميذه[2] » ، فاستجاب لهم عصبية وحرم نفسه الخير .

لكن ختنه (زوج ابنته) أحمد بن جعفر الدينوري لم يبال ذلك ، فكان يخرج من منزل ثعلب وهو جالس على باب داره ، فيتخطاه ويتخطى اصحابه ، ويتوجه الى المبرد ومعه محبرته ودفتره ليقرأ عليه كتاب (سيبويه) ، وكان ثعلب يعاتبه في ذلك ويقول : « اذا رآك الناس تمضي الى هذا الرجل وتقرأ عليه ، يقولون ماذا ؟ » فلم يكن يلتفت الى قوله[3] .

---

(١) ترجمة ثعلب في بغية الوعاة ص ١٧٣ .

(٢) إرشاد الاريب ٥/١١٥، ثم ذكر ياقوت أن ابن الانباري أورد هذه القصة ليرفع من ثعلب والكوفيين عصبية ، فوضع منهم .

(٣) انظر ترجمته في إنباه الرواة للقفطي (١/٣٣) وبغية الوعاة للسيوطي.

وما بلغت العصبية والنضال عن أسباب الرزق بين الفريقين مدى سافراً هذا السفور الذي تراه في الخبر الآتي :

« لما أصاب الكسائي الوضح (البرص) كره الرشيد ملازمته أولاده فأمره أن يختار لهم من ينوب عنه ممن يرضاه ، وقال : « إنك كبرت، ولسنا نقطع راتبك» فدافعهم خوفاً أن يأتيهم برجل يغلب على موضعه، إلى أن ضيق الأمر عليه وشدد ، وقيل له : « إن لم تأت برجل من أصحابك اخترنا لهم من يصلح » ، وكان بلغه أن سيبويه يريد الشخوص الى بغداد والأخفش ، فقلق لذلك ، وعزم على أن يدخل عليهم من لا يخشى غائلته ، فقال لعلي الأحمر : « هل فيك خير ؟ » قال : « نعم » قال « قد عزمت على أن أستخلفك على أولاد الرشيد » فقال الأحمر : « لعلي لا أفي بما يحتاجون اليه !» فقال الكسائي : « إنما يحتاجون كل يوم الى مسألتين في النحو ، وثنتين من معاني الشعر وأحرف من اللغة، وأنا ألقنك (ذاك) كل يوم قبل أن تأتيهم فتحفظه وتعلمهم » وكذلك كان [1] .

هذا ومن الخير ألا نغفل هنا خبراً يرد الأمور الى نصابها فيما عرف

---

(١) بغية الوعاة ص ٣٣٤ عن إرشاد الاريب . وقد اعترض اصحاب الرشيد وقالوا (انما اخترت رجلاً من اهل النوبة (الجند) وليس متقدماً في العلم) ، فدافعهم وشهد له . ولم يزل الاحمر يتعلم من الكسائي ويعلم ابناء الرشيد حتى صار مع طول الايام نحوياً وقد اتحفنا هذا الخبر بنموذج من برامج التعليم الخاص يومئذ .

عن بعض الكوفيين من أعمال علمية ، فقد قال سعيد بن مسعدة الأخفش « سألني الكسائي أن أؤلف له كتاباً في (معاني القرآن) فألفت كتابي في المعاني ، فجعله إماماً لنفسه ، وعمل عليه كتاباً في المعاني ، وعمل الفراء كتابه في المعاني عليهما ! »[1] وقد مر بك الخبر آنفاً . وتحفظ كتب الأخبار حادثاً صريحاً في استغلال نفوذ الحكم لنصرة الكوفة على البصرة يرويه ابو حاتم ، قال :

« قدم علينا (بالبصرة) محمد بن مسلم الكوفي عاملاً على الخراج والصدقات، فصرت اليه مسلماً فقال لي : « من علماؤكم بالبصرة ؟» فقلت :

« المازني من أعلمهم بالنحو ، والرياشي من أعلمهم باللغة ، وهلال الرأي من أفقههم ، وابن الشاذكوني من اعلمهم بالحديث ، وابن الكلبي من أعلمهم بالشروط، وأنا أنسب الى علم القرآن.» فقال لكاتبه : « اجمعهم في غد » .

فلما اجتمعنا قال : (ايكم المازني ؟) فقال ابو عثمان : (هأنذاك اصلحك الله) فقال : (ما تقول في كفارة الظهار : ايجوز فيه عتق غلام اعور ؟) فقال له : (اصلحك الله ، وما علمي بهذا ؟ [هـذا] يحسنه هلال الرأي .) فالتفت الى هلال الرأي فقال : (أرأيت قول الله عز وجل : (يا ايها الذين آمنوا عليكم أنفسكم[2]) بم انتصب هذا الحرف ؟) فقال : (اعزك الله ، أنا لا أحسن هذا ، إنما يحسنه الرياشي) .

فقال : (يا رياشي كم حديثاً روى ابن عون عن الحسن ؟) فقال : (اصلحك الله ، هذا يحسنه ابن الشاذكوني) .

فالتفت الى ابن الشاذكوني فقال : (كيف تكتب كتاباً بين رجل وامرأة

---

(١) طبقات النحويين واللغويين ص ٧١ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ١٠٥ .

أرادت مخالعته على إبرائه من صداقها ؟) فقال : (اعزك الله ، هذا يحسنه ابن الكلبي) .

فقال لابن الكلبي : (من قرأ « ألا انهم تثنَوني صدورُهم[1] »؟فقال : (اعزك الله هذا يحسنه ابو حاتم) .

فقال لأبي حاتم : « كيف تكتب كتاباً الى امير المؤمنين تصف فيه خصاصة اهل البصرة وما جرى عليهم العامَ في ثمارهم ؟ » فقلت له : « اعزك الله، لست صاحب بلاغة وكتب ، إنما أنسب الى علم القرآن » .

فقال : « انظر اليهم قد افنى كل واحد منهم ستين سنة في فن واحد من العلم حتى لو سئل عن غيره لساوى فيه الجهال ؛ لكن عالمنا بالكوفة لو سئل عن هذا كله اصاب » يعني الكسائي » اه ـ المصون للعسكري ص ١٣٢ .

أثرت العصبية ما رأيت فيما كان بينهم ، اما النحو نفسه فلم يتأثر بشيء من ذلك ، وانما حمل طابع العلماء انفسهم في التفكير والتنسيق سعةً وضيقاً ونظاماً وبلبلة .

ولما تقدم الزمن ، واستوى عند الحكام نحويو البصرة ونحويو الكوفة ، غاب السبب الأول ، وبقيت العصبية للبلد تخالط بعض النفوس حتى صرت ترى العالم الذي ينبغي أن يتنزه عن العصبية في العلم ـ ولو بعد ذهاب أسبابها المادية على الأقل ـ تداعبه هذه النزعة ،

---

(١) سورة هود الآية ٥ . وهذه هي قراءة ابن عباس وعلي بن الحسين وولديه زيد ومحمد ، ومجاهد وابن يعمر ، ونصر بن عاصم ، والجحدري ، وابن ابي اسحاق وغيرهم . والكلمة مضارع اثنونى على وزن (افعوعل) ، وقراءة الامصار اليوم : (يَثنون) .

١ ــ ليست السياسة عاملاً في تكوين النحو الكوفي على ما كان عليه .

٢ ــ إن الصورة التي في نفوس الناس قديماً وحديثاً عن حدة التجاذب والتدافع بين النحو الكوفي والنحو البصري مبالغ فيها .

٥ ــ كتب الخلاف

عرفت أن النحاة ـ والبصريين منهم خاصة ـ قد انتزعوا علل النحو من كتب محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة بالملاطفة والرفق (ص١٠٠) . فاعلم الآن أن منهم من ألف في الخلاف بين النحاة ، على نمط ما صنع الفقهاء في كتبهم التي الفوها في الخلاف بين الحنفية والشافعية ، وهذا ابن الأنباري يقول في مقدمة كتابه (الإنصاف في مسائل الخلاف) بصراحة :

« ... سألوني ان ألخص لهم كتاباً لطيفاً يشتمل على مشاهير المسائل الخلافية بين نحويي البصرة والكوفة ، على ترتيب المسائل الخلافية بين الشافعي وابي حنيفة ، ليكون اول كتاب صنف في علم العربية على هذا الترتيب ، وألف على هذا الأسلوب ، لأنه ترتيب لم يصنف عليه احد من السلف ، ولا ألف عليه احد من الخلف ... واعتمدت في النصرة على ما أذهب اليه من مذهب اهل الكوفة او البصرة، على سبيل الإنصاف لا التعصب والإسراف ... »

وهكذا تجد تأثير العلوم الدينية واضحاً بارزاً في علوم اللغة كلها مادتها ومنهجها . واذا رجعت الى كتاب الاقتراح للسيوطي وجدتهم يصرحون تصريحاً سافراً ايضاً بأنهم وضعوا للخلاف في النحو ولمناقشات مسائله أصولاً كأصول الخلاف بين الشافعية والحنفية .

أقدم من ألف في الخلاف ، فيما علمت ، احمد بن يحيى ثعلب الكوفي (ـ ٢٩١ هـ) ، ولم نعرف هل أداره على أصول الخلاف الفقهي أو لا ، وأي كان فإليك ما عثرت عليه من أسماء الكتب التي ألفت في الخلاف ، مرتبة على وفيات أصحابها :

١ ـ اختلاف النحويين ـ لثعلب (ـ٢٩١) .

٢ ـ المسائل على مذهب النحويين مما اختلف فيه البصريون والكوفيون[1] ـ لابن كيسان (ـ٣٢٠) وقد ردّ فيه على ثعلب .

٣ ـ المقنع في اختلاف البصريين والكوفيين ـ لأبي جعفر النحاس (ـ٣٣٨)[2] . وقد ردّ فيه على ثعلب .

٤ ـ الرد على ثعلب في (اختلاف النحويين) لابن درستويه (ـ ٣٤٧) .

---

(١) في بغية الوعاة : (ما اختلف فيه البصريون والكوفيون) فأثبتنا الاسم كاملاً من الفهرست لابن النديم .

(٢) بغية الوعاة وإرشاد الاريب ٢٢٨/٤ ، وفي بغية الوعاة : (المبتهج في اختلاف البصريين والكوفيين) .

٥ ــ كتاب الاختلاف لعبيد الله الأزدي (ـ٣٤٨).

٦،٧ ــ الخلاف بين النحويين للرماني (ـ٣٨٤). وله كتاب آخر أخص هو (الخلاف بين سيبويه والمبرد).

٨ ــ كفاية المتعلمين في اختلاف النحويين لابن فارس (ـ٣٩٥)[1].

٩،١٠ ــ الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين لأبي البركات الأنباري (ـ٥٧٧) وقد طبع. وله كتاب آخر في الخلاف، اسمه: (الواسط)، ذكره ابن الشجري في أماليه ونقل منه. (انظر ٢/١٢٠، ١٤٨، ١٥٤) من الأمالي لابن الشجري.

وقد استدرك ابن إياز على ابن الأنباري مسائل خلافية كثيرة فاتته في كتابه (الإسعاف) الآتي ذكره قريباً.

١١ ــ التبيين في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين[2] لأبي البقاء العكبري (ـ٦١٦).

---

(١) ارشاد الاريب ٤/٨٤ وذكر في بغية الوعاة باسم (اختلاف النحاة).

(٢) في بغية الوعاة (التعليق في الخلاف). وقد رأيت هذا الكتاب مخطوطاً في دار الكتب المصرية وهو رسالة صغيرة في ١٨ ورقة ضمن مجموع رقمه (نحو ش ٢٨) أوله: هذا كتاب مسائل خلافية في النحو تكلم فيها باختصار على ١٤ مسألة.

١٢ ـ الإسعاف في مسائل الخلاف ـ لابن إياز (ـ ٦٨١)[1]

والظاهر أن هناك كتباً كثيرة في الخلاف ، وأنه كانت له ضجة في المجالس والبيئات العلمية ، وكان التعصب على احد الفريقين بادياً في بعض هذه الكتب ، ولذا استدرك صاحب (الإنصاف) الذي قدمت لك فقرة من مقدمته محترساً بقوله (على سبيل الإنصاف لا التعصب والإسراف) .

٦ ـ بعد المذهب البصري والمذهب الكوفي

كانت بغداد حاضرة الخلافة العباسية هي السوق التي كان يروج فيها العلم والأدب ، فكان يرتحل اليها العلماء من الأقطار كافة ، كلٌ يحمل اليها طابع بلده الخاص ، او بتعبير آخر مدرسة بلده في الفن المختص به ، فالتقت لكل علم وفن ألوان وطوابع مختلفات ، احتكت وتمازجت وكان منها ألوان جديدة مطبوعة بالسمة البغدادية العامة . وذلك ما كان في النحو ، فقد نشر الكوفيون فيها نحوهم وقصدها نحاة بصريون أيضاً ، ونشأت طبقة جديدة في بغداد اختارت من المذهبين وكونت ما عرف بالمذهب البغدادي الذي أرخه ووصفه أبو الطيب اللغوي بهذه الكلمات الموجزات :

(١) وممن تكلم على الخلاف ولم يخصص له كتاباً مستقلاً أحمد بن جعفر الدينوري (ـ ٢٨٩ هـ) ختن ثعلب وقد مر ذكره ص ٢٢٠ فذكروا أنه ألف كتاباً في النحو سماه « المهذب » ، وذكر في صدره اختلاف الكوفيين والبصريين وعزا كل مسألة الى صاحبها ، ولم يعتل لواحد منهم ولا احتج لمقالته ، فلما أمعن في الكتاب ترك الاختلاف ونقل مذهب البصريين ـ إنباه الرواة ١/٣٤ وبذلك يكون أول الخائضين في هذا الموضوع وفاة ممن ذكرناهم .

« فلم يزل أهل المصرين على هذا حتى انتقل العلم الى بغداد قريباً ، وغلب أهل الكوفة على بغداد ، وحدثوا الملوك ، فقدموهم ، ورغب الناس في الروايات الشاذة ، وتفاخروا بالنوادر ، وتباهوا بالترخيصات ، وتركوا الأصول ، واعتمدوا على الفروع ، فاختلط العلم . »[1]

وما أصدق ما قال هذا اللغوي الحلبي في تصوير الحال . ولما عرض أبو الطيب لأشهر أعلام المذهب البغدادي ، وهو ابن قتيبة ، نقده بما لا يخرج عما تقدم فذكر الذين أخذ عنهم ، ثم قال : « إلا أنه خلّط بحكايات عن الكوفيين لم يكن أخذها عن ثقات . وكان يتسرع في أشياء لا يقوم بها نحو تعرضه لتأليف كتابه في النحو ، وكتابه في تعبير الرؤيا ، وكتابه في معجزات النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله و(عيون الاخبار) و (المعارف) و (الشعر والشعراء) ونحو ذلك مما أزرى به عند العلماء ، وإن كان نفق بها عند العامة ومن لا بصيرة له . »[2]

وقد عقد ابن النديم لهذه الطبقة باباً عنوانه (من خلط بين المذهبين) عد منهم ابن قتيبة (ـ ٢٧٠) وأبا حنيفة الدينوري (ـ ٢٩٠) وابن كيسان (ـ ٣٢٠) ومحمد بن احمد بن منصور الوراق (ـ ٣٢٠) ونفطويه

---

(١) مراتب النحويين ص ٩٠ وانظر فيه أيضاً ص ١٠١ حيث يقول : « بغداد مدينة ملك وليست بمدينة علم . وما فيها من العلم فمنقول اليها .. الخ » .
(٢) المصدر السابق ص ٨٥ .

(-٢٢٣)[1] . وتستطيع ان تزيد على هؤلاء : سليمان الحامض (-٣٠٥) وأبا علي الأصفهاني الملقب بـ (لغدة) ، وابن السراج (- ٣١٦) ، وأبا بكر بن الخياط (-٣٢٠) وأبا عبد الله الكرماني (-٣٢٩) وكلاب ابن حمزة العقيلي وغيرهم. وللكشي كتاب (تخليط المذهبين) . والطابع البصري أغلب على المذهب البغدادي في الجملة كما هو الشأن في بقية الأمصار . ولا عجب في ذلك فإن الأصالة التي فيه فرضت نفسها كما يقولون ، وكان ما أخذ من المذهب الكوفي مسائل اتجهوا فيها اتجاهاً أصح وأيسر .

وكان للنحو في الأندلس نشاط ملحوظ مرّ بشبه الخطوات التي سارها في المشرق ، بدأ علماء العربية يدرسون النصوص الأدبية شعراً ونثراً دراسة فيها لغة وأدب ونحو وحديث وقرآن ، ثم بدأت الفنون تتميز مع الزمن ، وكان أول كتاب دخل الأندلس من كتب

---

(١) الفهرست ص ١١٥ وقال ابن النديم « كان ابن قتيبة يغلو في البصريين الا أنه خلط بين المذهبين ، وحكى في كتبه عن الكوفيين وكان صادقاً فيما يرويه عالماً باللغة والنحو وغريب القرآن ومعانيه ، والشعر والفقه ، كثير التصنيف والتأليف وكتبه في الجبل مرغوب فيها . » اهـ .

وما أصدق ما قال مقدم كتابه (المعاني الكبير) : ابن قتيبة اول من جمع بين مذهبي الكوفيين والبصريين ، ولا يقوم لذلك الا من أتقن المذهبين وعرف الاصول التي تبنى عليها العلل والمقاييس عند الفريقين . » — (هـ) مقدمة الكتاب (طبعة حيدر آباد . وانظر في فهرست ابن النديم ترجمة نفطويه أيضاً .

النحو كتاب الكسائي[1]، ثم كتاب سيبويه ، فلما دخل كتاب سيبويه عكف عليه الأندلسيون دراسة وحفظاً ، واشتهر بحفظه عدد منهم ثم تولوه تدريساً وشرحاً وتعليقاً . فطبع نحو الأندلس بالطابع البصري في أغلب مسائله ثم بدأ الأندلسيون محاولاتهم في التأليف وعرف من أعلامهم أبو علي القالي مؤلف (الأمالي) و (البارع) و (فعلت وأفعلت) و (المقصور والممدود) ، ثم ابن القوطية صاحب كتاب (الأفعال) ، « وكانت أذيع كتب النحو على أيام ابن حزم في المئة الخامسة تفسير الحوفي لكتاب الكسائي » وتتابع علماء الاندلس من شرح كتب المشرق المشهورة وشرح شواهدها ، واشتهر من نحاتهم في المئة السابعة ابن خروف (-٦٠٢) وابن عصفور الإشبيلي (-٦٦٢) والشلوبيني ، بعد البطليوسي (-٥٢١) وابن الطراوة والسهيلي (-٥٨٣) من أعلام المئة السادسة .

وكان خاتمة علماء الأندلس اثنان رزقا الشهرة ورحلا الى المشرق فبثا علمهما فيه وكثرت تواليفهما وكتب لها الذيوع حتى عصرنا هذا ، عنيت الإمام ابن مالك الجياني صاحب الالفية والإمام ابا حيان الغرناطي صاحب التفسير الكبير (البحر) و(الارتشاف) في النحو .

---

(١) انظر تاريخ الفكر الاندلسي ص ١٨٥ وما بعدها. أدخله جودي بن عثمان العبسي المورري الطليطلي الأصل، رحل الى المشرق وأخذ عن الكوفيين الرؤاسي والفراء والكسائي ، مات سنة ١٩٨ هـ - بغية الوعاة ص ٢١٤ .

عكف علماء الاندلس إذاً وطلابه على كتب البصريين والكوفيين فدرسوهما واختاروا منهما ، وتكوّن لهم مذهب خاص[1] كانوا فيه الى مذهب البصريين أميل ، وكذلك كان أكثر العلماء الوافدين عليهم من المشرق[2] او النازحين اليه منهم لطلب العلم . وهكذا كان رأس العلوم عندهم النحو والشعر . ويتحدث عن نزعتهم هذه ابن سعيد فيقول « النحو عندهم في نهاية من علو الطبقة »[3].

فلما نزح متأخروهم بعد النكبة ، بعضهم الى المغرب وبعضهم الى الشام ومصر ، نشروا علمهم في هذه الأقطار ، وكان مذهبهم كذلك بصرياً في أكثره .. الى أن جاء ابن مالك ثم ابن هشام الانصاري فجددا في النحو بعض التجديد ، وكانا يميلان الى التوسعة ، فرجحا في بعض المسائل أقوال الكوفيين حين رأيا الرواية الصحيحة تؤيدهم . ولم يتعبدا بأقوال البصريين[4]، واستشهدا بالحديث، فكانا مجتهدين الى حدّ ما،

(١) انظر تراجم اعلامهم ، مثلاً ابن الوزان القيرواني (- ٣٤٦) ذكروا أنه اعلم من المبرد وثعلب وانه بصري المذهب مع علمه بمذهب الكوفة ، وأن له أوضاعاً في النحو واللغة . — انظر ترجمته في (إنباه الرواة للقفطي) ١٧٢/١ — ١٧٥ .

(٢) في ترجمة ابي علي القالي الوافد على الاندلس والذي أملى في جامع الزهراء بقرطبة كتابه العظيم « الامالي » أنه أظهر فضل البصريين على الكوفيين ونصر مذهب سيبويه على من خالفه من البصريين . انظر إنباه الرواة ١/٢٠٥ .

(٣) تاريخ آداب العرب للرافعي ٣/ ٣٣٠ .

(٤) كلمة ابي حيان — الاقتراح ص ١٠٠ .

ذويْ أثر بالغ في الدراسات النحوية ، وما زالت كتبهما تدرس حتى الآن في معاهد العلم ، وخدمت بشروح وحواش وتقريرات كثيرة .

وكانت تضم البلدة الواحدة نحاةً من منازع مختلفة ، يطغى عليها أحياناً مذهب أهل البصرة ، وأحياناً مذهب الكوفة ، تبعاً لنزعة العالم ذي الأثر فيها ، فهذه حلب ضمت عالمين في زمن واحد : ابن جني رأس مدرسة القياس الذي كان لمدرسة البصرة إمامها الاعظم ، وابن خالويه الكوفي المنزع صاحب كتاب (ليس في كلام العرب) ، الذي اتبع فيه السماع نافياً من اللغة ما جوّزه (فلسفةَ) نحاة البصرة ، وبعدهما كان في الشام المعري الذي كان واسع الرواية سماعياً الى أبعد حدود السماع ، يضيق بنحو البصرة الذي كان في أيامه ممتلئاً بالجدل والقياس والتعليل[1] وهذه النزعة ظاهرة في كتبه كل الظهور ، وحسبك أن تلم برسالة الغفران لترى نقمته على البصريين خاصة[2] .

هذه سطور موجزة ألممت فيها بحركة الخلاف بعد البصريين والكوفيين ، لا مجال فيها لتفصيل ما ، لأن ذلك من تاريخ النحو لا من أصوله .

---

(١) انظر في ذلك بحثاً قيماً للاستاذ ابراهيم مصطفى نشره في «المهرجان الالفي لابي العلاء المعري من مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق » ص٦٣٢-٣٧٤ .

(٢) الظاهر أن مذهب الكوفة انتعش في الشام حيناً من الدهر ، وعلة ذلك عندي اعتماده على كثرة الرواية والسماع . والشاميون « أثريون » الى حد بعيد يحترمون السماع عن العرب كثيراً ، فيهم أخصب علم القراءات وهو =

. . . .

=سماع محض ، ولا تنس أن أكثر أئمة البصرة والكوفة هم قراء أيضاً ، وعندهم أخصب فن الحديث وهو أيضاً سماع محض وبقي حياً نشيطاً الى زمن قريب ، عنوا عناية بالغة به وبسماعاته وطبقات رجاله وإحصاء طرقه ، ونبغ فيهم كبار الأئمة فيه ، ولا تزال دار كتبهم الظاهرية بدمشق أغنى مكتبات الدنيا اليوم في فن الحديث ، وكثير من مخطوطاتها بخطوط مؤلفيها المحدثين أنفسهم لايدانيها في ذلك مكتبة في العالم . وفيها عدة دور « مدارس » للحديث ولقراءات القرآن . نزعة عرفوا بها ، واستأنس اذا شئت بهذه الجملة قرأتها أخيراً في كتاب (تاريخ العرب قبل الاسلام) للباحث الفاضل جواد علي :

« يغلب على التلمود الفلسطيني طابع التمسك بالرواية والحديث ، وأما التلمود البابلي فيظهر عليه الطابع العراقي الحر وفيه عمق التفكير وتوسع في المحاكمة وغنى في المادة، وهذه الصفات غير موجودة في التلمود الفلسطيني» ١/٢٤. ومهما تظن من أثر لحب البلد في هذا الكلام فما ذلك بمانعك الاستئناس به الى حد ما ، ولولا عزوفي عن التعميم وإطلاق الاحكام لشددت به ما أذهب اليه من أثرية الشاميين بعد التثبت من صحة الحكم .

الخاتمة

في صدور المشتغلين بالعربية وعلومها اليوم يقين بأن في قواعدها شيئاً من البلبلة والتداخل والتطويل، وفي آرائهم إجماع على وجوب الاصلاح والتنسيق، وفي قلوبهم إيمان بإمكانه بل بيسره وسهولته.

ويحق لقارىء هذا الكتاب بعد أن ألم بطرف من صنيع الاقدمين أن يتساءل: ما صنعنا نحن لأنفسنا وللغتنا بعد أن مهدوا لنا الطريق؟ ،هل تقدمنا بها الى الامام ولدينا من مواتاة الاحوال مالم يكن لديهم ؟ ،

مكتبات عامة وخاصة تزخر بالكتب مخطوطة ومطبوعة ، ووسائل للنشر والتعميم واسعة مختلفة ، ولجان في كل بلد ، فنية رسمية ذات فروع في كل ميدان من ميادين الاختصاص ، ومجامع تسمى علمية ، وجامعات ونواد وجمعيات ، وحكومات تمد جميع هذا بالمال والسلطان ... ثم لاشيء

ذا بال وراء ذلك كله ، حتى الرسم الاملائي وهو اصطلاح محض ما استطعنا الاتفاق فيه على وجه من الوجوه المتعددة الجائزة ، لنتخذه قاعدة في مدارسنا الابتدائية على الاقل [1] .

---

(١) كنا عشرين عضوا في لجنة امتحان الشهادة الابتدائية سنة ١٩٣٠ ، وكان النظام يقضي بحسم علامتين من عشر على كل حرف يرسم خطأ ، فاذا أخطأ طالب في خمس كلمات نال صفراً وحرم الشهادة عامه ذلك ، ومع ان هذا النظام أثمر أطيب الثمرات في حمل الطلاب ومعلميهم على العناية بقواعد الاملاء ، كان عيبه الفادح أن القواعد نفسها عند المعلمين غير حاسمة على وجه واحد ، وأن روح التنظيم كانت تلقى من كثير منهم عداء مراً : فاذا رسم طالب (مصطفا) هكذا بالألف واراد مصحح حسم العلامتين انبرى له زملاء يحتجون له بمذهب الفارسي ، واذا رسم همزة (يقرأون هكذا على ألف اعتذروا له بأن المطابع المصرية ترسمها كذلك ، وإذا أسقط ألف (ابن) في غير موضع الاسقاط نبشوا قولاً يسوغ فعلته ، الخ فكان المرء الفطن الطارىء عليهم يحار بينهم في أمر الرسم : ما الصواب فيه وما الخطأ ؟ ولا يجد القوم على بصيرة من أمرهم فيه . وقل نحواً من هذا في أخطاء النحو والصرف .

ولم يؤت هؤلاء الشيوخ — رحمهم الله فقد مات اكثرهم — من كسل أو جهل ، وانما من انطباع على البلبلة وولوع بها الى حد الجنون : فقد ربوا على حفظ الأقوال المختلفة في كل مسألة وعزوها الى أصحابها من غير الفكر فيها ومحاكمتها بغية الوصول الى الحكم الفصل الذي تطمئن اليه النفس .

ونحو سنة ١٩٤٠ ألفت لجنة عليا لحسم النزاع الذي كان يحدث كل عام عند تصحيح أوراق الامتحان ، وللاعتماد على وجه واحد في كل مسألة : فما أشرف وضع الخطة على الانتهاء بعد نقاش طويل حتى قضى على المشروع كله قول قائل : « وما سلطتنا نحن على بقية الاقطار العربية ؟ وأي جدوى في انفرادنا بهذا الاصطلاح وحدنا ومطبوعات جيراننا تغزو طلابنا بما يخالفه ؟ »

وهكذا ترى حتى البلد الواحد لا يستطيع حزم أمره اذا أراد ، لأن اللغة العربية ملك شائع بين البلاد كلها ، بل بين الازمان أيضاً اذا جاز هذا التعبير .

وصرنا – ونحن أحوج مانكون الى الوقت في عصر الذرة والتأميم والعالمية في كل شيء – نبدد أوقات الصغار والكبار في مناقشات طويلة لمسائل خلافية تنتهي منها إلى أن لكل وجهاً سائغاً !! . وبذلك لم يحظ الرجل العادي ببعض ما يجب أن يعود عليه من خير لقاء الاموال الطائلة التي تنفق على تلك المؤسسات

★ ★ ★

وبعد ، فاذا اردنا اليوم إعادة النظر في بناء القواعد العربية ، وجب ان تتجافى المآخذ التي أخذناها في مباحثنا السابقة على الاقدمين ، علينا أولاً أن نحدد هدفنا من القواعد ، فاذا حددناه وضعنا أخصر المناهج وأوضحها وأسرعها في ابلاغنا إياه.

لاجرم أن الاحاطة بكلام قبائل العرب القديمة أمر لاسبيل اليه اليوم ، وأن تنسيق ماوصل إلينا منه على القبائل بدقة أمر متعذر الآن [1] ، ولا شك

(١) ولو أن الاقدمين فعلوا في اللغة مافعله ابو عمرو الشيباني في الشعر لخدموا خدمة جلى وأراحوا من بلبلة كثيرة ؛ فقد جمع أشعار العرب مصنفة على قبائلهم وكانت نيفاً وثمانين قبيلة ، فكان كلما عمل منها قبيلة وأخرجها الى الناس كتب مصحفاً وجعله في مسجد الكوفة حتى كتب نيفاً وثمانين مصحفاً بخطه – الفهرست ص ١٠١

ويظنون أن حماداً الراوية كان عنده شعر كل قبيلة ، يروي ابو الفرج الاصفهاني أن حماداً قال :

« أرسل الوليد بن يزيد الي بمئتي دينار وأمر يوسف بن عمر بحملي اليه على البريد ، فقلت : لا يسألني الا عن طرفيه قريش وثقيف ، فنظرت في كتابيْ قريش وثقيف ، فلما قدمت عليه سألني عن اشعار بَليّ فأنشدته منها ما أحسنته الخ .. » الاغاني ٥/١٦٥ .

والظاهر أن الادباء والعلماء ألفوا هذا النمط من الدواوين فلم يكن غريباً عنهم ؛ فهذا شيخ المعرة في المئة الخامسة يكتب الى صاحبه وتلميذه ابي القاسم التنوخي وكان استعار منه ديوان تيم اللات ثم أعاره ببغداد ، عبدَ السلام بن الحسين البصري وطلب اليه رده الى صاحبه التنوخي – يقول من قصيدة :

سألته قبل يوم السفر مبعثه — اليك ديوان تيم اللات ماليتا

في أننا اليوم نصطنع لغة فصحى يفهمها الرجل العادي فيما بين المغرب الأقصى وخليج البصرة ، بل يفهمها كل من تعلم العربية من الاعاجم ، وأن لنا تراثاً علمياً وادبياً ضخماً تحفل به المكتبات الخاصة والعامة في ديار الغرب والشرق ، هذه واحدة ؛ أما الثانية فان لغة القرآن والحديث النبوي بوجه خاص ولغة قريش بوجه عام هي الغالبة الشائعة ، نقرؤها في الكتب قديمها وحديثها ، وفي صحف اليوم ومجلاته وجميع إذاعاته العربية الصادرة في بلادالعرب او في البلاد الاجنبية ، يستوي في ذلك أبناء العربية والذين شدوا منها شيئاً من الاجانب عنها . وأظن بعد ذلك ان الطريق واضح ، فعلينا اهدار كل لغة لانستعملها نحن اليوم ولم تستعملها اللغةالشائعة في القرآنالكريم والحديث وكتب الادب والتاريخ وسائر الفنون الحضارية التي خلفها أسلافنا ، ثم نؤسس قواعدنا علىهذا التراث الموثوق به والذي كفلت له اصالته الحياة ، نستقصي مفردات القرآن وتراكيبه في جميع قراءاته ، ونمعن النظر فيما اطمأننا الى صحة صدوره عن أهل الصدر الاول من الحديث ، ثم فيما نطمئن اليه من نثر الأقدمين ثم نبني بعد هذا الاستقصاء قواعدنا على ذلك كله متوخين أقصر الطرق وأسهلها ، والأشيع ثم الأقيس فيما فيه لغتان فصيحتان ، وأنا واثق بعد ذلك أننا سنهدر ركاماً ضخماً من قواعد وتفريعات واستثناءات بنيت على شاهد مجهول او لغية محرفة ، او ضرورة شعرية ، ونهدر إزاءهمقداراً ضئيلا لايعتد به من خلاف اللهجات . وتكون القواعد هذه اقرب الى روح العربية من القواعد القديمة التي أفقدها انسجامها حشر النحاة فيها ماهب ودب مما لايرجع الى نظام ولا يجمعه نسق . وأكبر دليل على قولي انك تجد كثيراً من الأحكام التي ضخمت النحو لم يستعمله احد منذ دونت تلك الاحكام حتى الآن ، ولم يستعمله أحد قبل ذلك الا نادراً في الشواهد التي أثبتوها إن صحت .

إعادة نظر في أسس النصوص الشائعة الموثوقة ، ومنهج علمي سهل في بناء القواعد عليها كفيلان بابلاغنا الهدف المنشود ،وربما أهدرت في سبيل ذلكبعض لهجات عربية فصيحة هنا وهناك ، إلا أن ذلك إذا قيس الى مانستريح منه من اكوام القواعد القديمة بدا غير ذي بال .

ك

ن

مَراجِع الكتاب

إتحاف البشر في القراءات الاربع عشر — طبع عبد الحميد احمد حنفي (بلا تاريخ)
الاتقان للسيوطي — المطبعة الازهرية بمصر ١٣٤٣ ﻫ
أخبار النحويين البصريين لابي سعيد السيرافي — « الكاثوليكية ببيروت ١٩٣٦ م
الأدب المفرد للبخاري — « السلفية بمصر ١٣٧٥ ﻫ
إرشاد الاريب لمعرفة الاديب (المعروف بمعجم الادباء) لياقوت مطبوعات دار المأمون بمصر ١٣٥٥ ﻫ
أسواق العرب في الجاهلية والاسلام لسعيد الافغاني المكتبة الهاشمية بدمشق ١٩٣٧ م
الاشتقاق والتعريب لعبد القادر المغربي — لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر ١٩٤٧ م
الأضداد لأبي بكر بن الانباري — الكويت ١٩٦٠ م
الاغاني لابي الفرج الاصفهاني — مطبعة التقدم بمصر (التزام ساسي)
الاقتراح للسيوطي — مطبعة دائرة المعارف بحيدر آباد ١٣١٠ ﻫ
الاكليل للهمداني (الجزء العاشر) — المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٦٨ ﻫ
ألف باء للبلوي — المطبعة الوهبية بمصر ١٢٨٧ ﻫ
الامالي للزجاجي — الطبعة الثانية بالمطبعة المحمودية بمصر ١٣٥٤ ﻫ
« لابن الشجري — مطبعة الامانة بالقاهرة ١٩٣٠ م
« للقالي — « دار الكتب المصرية ١٩٢٦ م
« لليزيدي — « دائرة المعارف بحيدر آباد ١٣٦٧ ﻫ
إنباه الرواة إلى أنباه النحاة للقفطي — « دار الكتب المصرية ١٣٦٩ ﻫ
الانتصاف للسكندري (على هوامش الكشاف للزمخشري)
الانصاف في مسائل الخلاف لابن الانباري — مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٦٤ ﻫ
الإيضاح للزجاجي — مطبعة المدني بمصر ١٩٥٩ م
بغية الوعاة للسيوطي — « السعادة بمصر ١٣٢٦ ﻫ
البيان والتبيين للجاحظ — « لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر ١٣٦٨ ﻫ
تاج العروس من جواهر القاموس — المطبعة الخيرية بالقاهرة ١٣٠٦ ﻫ

تاريخ آداب العرب للرافعي	مطبعة الاستقامة بمصر ١٩٤٠
تاريخ الامم والملوك للطبري	ليدن
تاريخ دمشق لابن عساكر	مخطوطة دار الكتب الظاهرية بدمشق رقم (تاريخ ١/٢٦)
تاريخ الفكر الاندلسي ل(بالنثيا) ترجمة حسين مؤنس	مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥ م
تاريخ اللغات السامية لاسرائيل ولفنسون	مطبعة الاعتماد بالقاهرة ١٩٢٩ م
التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح للزبيدي	مطبعة البابي الحلبي ١٣٤٧ ﻫ
تذكرة داوود الانطاكي	المطبعة الازهرية بالقاهرة ١٣٢٤ ﻫ
التطور النحوي لبرجستراسر	(أملاه في كلية الآداب بالجامعة المصرية)
تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر : لعبد القادر بدران	١ - ٥ مطبعة روضة الشام ١٣٣٢ ﻫ
« « «	٦ ، ٧ مطبعة الترقي بدمشق
الجامع الصحيح للامام البخاري	
حاشية الامير على مغني اللبيب (الطبعة الثانية)	المطبعة الازهرية بمصر ١٩٢٨ م
« الدسوقي « «	دار الطباعة الاميرية بمصر ١٣٠١
حاشية الخفاجي على تفسير البيضاوي (عناية القاضي وكفاية الراضي)	دار الطباعة ببولاق ١٢٨٢ ﻫ
حاضر اللغة العربية في الشام لسعيد الافغاني	طبع معهد الدراسات العالية في القاهرة ١٩٦٢ م
الحضارة الاسلامية في القرن الرابع لآدم متز	طبعة ثانية للجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٧ م
خزانة الادب للبغدادي	المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٨ ﻫ
الخصائص لابن جني	مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٢ م
رسائل الجاحظ جمع السندوبي	المطبعة الرحمانية ١٩٢٣ م
الرسالة للشافعي	المطبعة الاميرية ببولاق ١٣٢١ ﻫ
الروض الانف للسهيلي	« الجمالية بالقاهرة ١٣٣١ ﻫ
سراج القارىء المبتدىء .. لابن القاصح	مطبعة مصطفى محمد بالقاهرة ١٣٥٢ ﻫ
شرح شذور الذهب لابن هشام الانصاري	« الاستقامة بالقاهرة (طبعة ثالثة) ١٩٤٦ م
شرح شواهد المغني للسيوطي	المطبعة البهية بمصر ١٣٢٢ ﻫ
الشعر والشعراء لابن قتيبة	دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٤ ﻫ
الصاحبي لابن فارس	المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٢٨ ﻫ
صبح الاعشى للقلقشندي	المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٣٣١ ﻫ

صفة جزيرة العرب للهمداني	
ضحى الاسلام لاحمد امين	لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٨ م
الفرائد للالوسي	المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤١ هـ
طبقات الحنابلة لابن ابي يعلي (اختصار ابن قيم الجوزية)	مطبعة الاعتدال بدمشق ١٣٥٠ هـ
« الشعراء (طبقات فحول الشعراء في هذه الطبعة)	« دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٢ م
« النحويين واللغويين للزبيدي	طبع محمد سامي الخانجي بالقاهرة ١٩٥٤ م
عائشة والسياسة لسعيد الأفغاني (طبعة ثانية)	مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٧ م
عيون الاخبار لابن قتيبة	دار الكتب المصرية ١٣٤٣ هـ
غيث النفع للصفاقسي	مطبعة مصطفى محمد بالقاهرة ١٣٥٢ هـ
الفهرست لابن النديم	المطبعة الرحمانية بمصر
القاموس المحيط للفيروزبادي	الطبعة الرابعة – مصر ١٩٣٥ م
القراءات واللهجات لعبد الوهاب حمودة	مطبعة السعادة بمصر ١٩٤٨ م
قواعد التحديث للقاسمي	« ابن زيدون بدمشق ١٣٥٣ هـ
القياس في اللغة العربية لمحمد الخضر حسين	المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٥٣ هـ
الكتاب لسيبويه	« الأميرية الكبرى ببولاق ١٣١٦ هـ
الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري	مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٦٥ هـ
لسان العرب لابن منظور الأندلسي	المطبعة الميرية ببولاق ١٣٠٠ هـ
لمع الادلة لأبي البركات الأنباري	مطبعة الجامعة السورية سنة ١٩٥٧ م
مجالس العلماء للزجاجي	الكويت ١٩٦٢ م
مجلة الثقافة (المصرية)	
مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة	
مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق	مطبعة الترقي بدمشق
« مجمع اللغة العربية	المطبعة الاميرية ومطبعة دار الكتب المصرية
محاضرات الراغب	
مراتب النحويين لابي الطيب اللغوي	مطبعة نهضة مصر بالفجالة ١٣٧٥ هـ
المزهر للسيوطي	دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة (طبعة ثانية)
المصباح المنير للفيومي	المطبعة الاميرية بالقاهرة (طبعة سادسة) ١٩٢٥ م
المصون للعسكري	الكويت ١٩٦٠ م
المطالع النصرية للهوريني	المطبعة الاميرية ببولاق ١٣٠٢ هـ
المعاني الكبير لابن قتيبة	مطبعة حيدر آباد
المعرب للجواليقي	دار الكتب المصرية ١٣٦١ هـ

المغرب في ترتيب المعرب للمطرزي — مطبعة دائرة المعارف بحيدر آباد ١٣٢٨ هـ
المفضليات للضبي — مطبعة دار المعارف في القاهرة ١٣٦١ هـ
المهرجان الالفي لابي العلاء المعري — مطبعة الترقي بدمشق ١٩٤٥ م
الموشح للمرزباني — المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٣ هـ
نزهة الالباء لابن الانباري — طبعة على الحجر ١٢٩٤ هـ
النشر في القراءات العشر لابن الجزري — مطبعة الترقي بدمشق ١٩٤٥ هـ
الوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني — دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٤ هـ
وفيات الاعيان لابن خلكان — مكتبة النهضة بالقاهرة ١٩٤٨ م

فهرس الموضوعات

آثار المؤلف المطبوعة

ـ أ ـ

أسواق العرب في الجاهلية والاسلام (طبعة ثانية)	دار الفكر بدمشق سنة ١٩٦٠ م
ابن حزم الأندلسي ورسالته في المفاضلة بين الصحابة	المكتبة الهاشمية بدمشق سنة ١٩٤٠
الاسلام والمرأة	المكتبة الهاشمية بدمشق سنة ١٩٤٥
عائشة والسياسة (طبعة ثانية سنة ١٩٥٧ م)	لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة
في أصول النحو	المكتب الإسلامي بيروت ١٩٨٧
مذكرات في قواعد اللغة العربية [طبعة رابعة]	جامعة دمشق سنة ١٩٦٣
حاضر اللغة العربية في الشام	معهد الدراسات العالية في القاهرة ١٩٦٢
نظرات في اللغة عند ابن حزم	جامعة دمشق ١٩٦٣

ـ ب ـ

المخطوطات التي عني بتحقيقها ونشرها:

الاجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة: للزركشي. [طبعة رابعة]	المكتب الإسلامي بيروت ١٩٨٥
في المفاضلة بين الصحابة: لابن حزم (نُشرت مع كتاب ابن حزم الأندلسي).	المكتبة الهاشمية بدمشق سنة ١٩٤٠.
سير النبلاء: للذهبي (جزء خاص في ترجمة ابن حزم)	المكتبة الهاشمية بدمشق سنة ١٩٤١
سير النبلاء: للذهبي (جزء خاص في ترجمة السيدة عائشة)	المكتبة الهاشمية بدمشق سنة ١٩٤٥
تاريخ داريا: للقاضي عبد الجبار الخولاني	المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٥٠
الإغراب في جدل الإعراب لابن الانباري	الجامعة السورية سنة ١٩٥٧
لمع الأدلة لابن الانباري	الجامعة السوربة سنة ١٩٥٧
توجيه أبيات مشكلة الاعراب للفارقي	الجامعة السورية سنة ١٩٥٨
ملخّص إبطال القياس لابن حزم	الجامعة السورية سنة ١٩٦٠